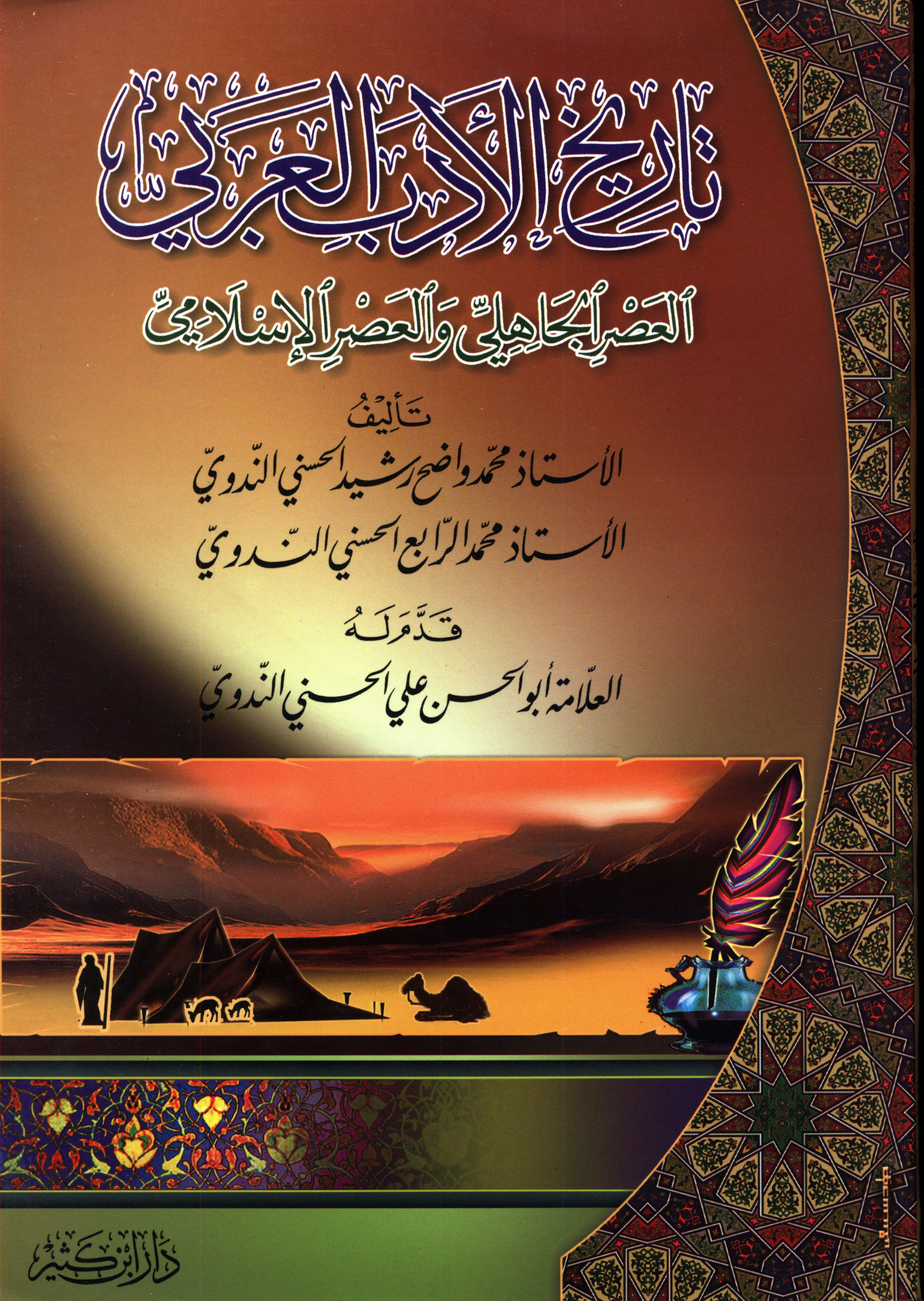
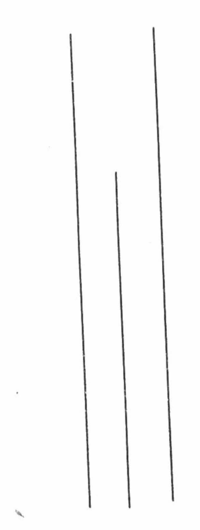


تاريخ الأدب العربي
العصر الجاهلي والعصر الإسلامي
تأليف
الأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي
الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي
قدم له
العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي
دار ابن كثير




تاريخ الأدب العربي
العصر الجاهلي



الطبعة الثانية

1430 هـ ـ 2009 م



للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

ردمك : 978-9953-520-20-9

الموضوع : أدب

العنوان : تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي و العصر الإسلامي

التأليف : الأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي و الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي

الورق : أبيض

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 316

القياس : 17×24

التجليد : غلاف

الوزن : 460 غ

التنفيذ الطباعي : مطبعة بشار الحلبي- دمشق

التجليد : مؤسسة القصيباتي للتجليد - دمشق



دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي

ص.ب : 311 ـ صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450

مكتب تلفاكس: 2243502 - 2458541

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

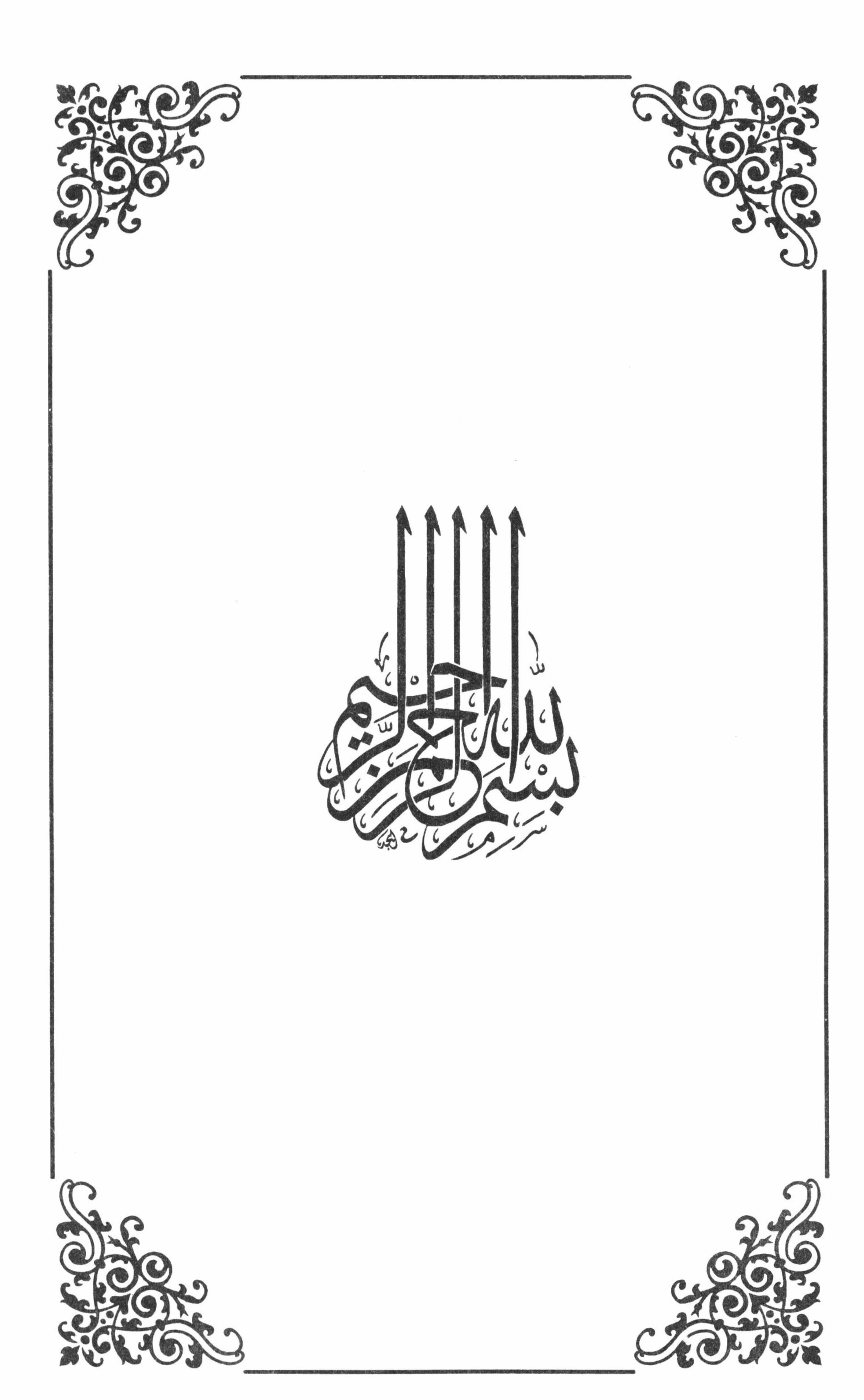




تأليف

الأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي




بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد النبي الأمين؛ الذي بعثه الله بدين الحق المبين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد:

فإن الطبعة الأولى لتاريخ الأدب العربي صدرت في عام ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م ، ونالت قبولاً في المدارس ، وقد كان إعداد هذا الكتاب تحت خطة معينة ، وضعت فيها بعين الاعتبار المقررات الدراسية في المدارس الدينية التي تركز على العلوم الشرعية ، وتعتبر دراسة النصوص الأدبية وسيلة لفهم العلوم المدونة باللغة العربية ، ولا تسع المواد الدراسية المقررة ، والساعات المعينة لدراستها التوسع في دراسة الموضوعات المتصلة باللغة العربية ، والتركيز عليها ، أو التفرغ لها. ويدل على ذلك منهج الأدب العربي المقرر الذي لا يشتمل على دراسة نشأة اللغة ، وخصائص اللغة ، والأحوال الطبعية والعقلية للناطقين بها ، والذوق الأدبي ، ومعايير الذوق الأدبي ، وهي موضوعات مستقلة تحتاج إلى التفرغ لها ، وسعة المطالعة فيها ، فتنقطع بذلك الصلة بين الإنتاج الأدبي ، وظروف الإنتاج وأصحاب الإنتاج ، كما أن طالب هذه النصوص الأدبية لا يعرف ما يدور حولها من مباحث ، وما ترتبط بها من آراء الناقدين القدماء والمعاصرين ، وقد لعبت هذه الآراء عن العرب وأدبهم في مختلف العصور دوراً في تكوين الذهن ، وبدون معرفة أحوال العرب ومعتقداتهم في الجاهلية لا يُدرك فضل الإسلام عليهم ومدى إصلاحه لأحوالهم ، فجعلهم قادة العالم وهداته.

وقد بذلت أنا في الجزء الأول من هذه السلسلة من تاريخ الأدب العربي ، وهو العصر الجاهلي الذي نحن بصدده في هذا الجزء ، وبذل في الجزء الثاني منها ، وهو المحتوي على العصر الإسلامي فضيلة الأستاذ محمد الرابع الندوي عميد كلية اللغة العربية سابقاً ، ومدير دار العلوم ندوة العلماء حالياً ، محاولة لجمع هذه الموضوعات وتلخيصها؛ ليتعرف عليها الطالب في وقت قليل يتيسر له من خلال دراسته للعلوم التي يعكف على دراستها ، فإنَّ أَخْذَ القليل خير من ترك الجميع .

ويشتمل الجزء الأول على بحث نشأة اللغة العربية ، وتطورها ، وخصائصها وخصائص الناطقين بها ، ومعتقداتهم ومعارفهم ، وقد زيدت في الطبعة الثانية مواد تتعلق بخصائص العرب ، وتاريخهم قبل الإسلام ، كأيام العرب ، وأسواقهم ، ومعتقداتهم ، ومعلومات عن النباتات ، والحيوانات في الجزيرة العربية ، ونرجو أنها ستزيد قيمة الكتاب ، كما زيدت فيها نصوص أدبية .

ويليه الجزء الثاني الذي وضع على نفس الفكرة والمنهاج ، وقارن فيه واضعه بين خصائص العهد الجاهلي ومؤثراته على العهد الذي جاء بعده ، وبذلك جاء الكتاب جامعاً لفوائد جديدة ، واشتمل على تعريف جوانب الحياة العربية المختلفة .

ويشكر المؤلفان أنا والأستاذ محمد الرابع أخانا الأستاذ إقبال أحمد الندوي الغازيفوري الذي ساعدنا في النظر في مواد الكتاب ، والرجوع إلى المراجع ، وتصحيح التجارب بدقة وإمعان .

وأخيراً نسأل الله تعالى دوام التوفيق ، وحسن النية ، والإخلاص في العمل كله ، وأن يوثق صلتنا باللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، ويتقبل منا ويسدِّد خطانا ، وهو ولي التوفيق .

واضح رشيد الندوي

ندوة العلماء ، لكهنؤ

٧/ ١/ ١٤٢٠ هـ

٢٤/ ٤/ ١٩٩٩ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تصدير

بقلم: سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

وبعد! فما تحقق وظهر جلياً في العصور الأخيرة، أن تاريخ الأمم والحكومات، والحضارات، والثقافات، والمجتمعات، والبيئات، حتى تاريخ العلوم والآداب ـ بما فيها تاريخ الأدب والشعر ـ خاضع في كثير من الأحوال لاتجاه المؤلف وذوقه، وفي بعض الأحيان لأهدافه الدقيقة وأغراضه البعيدة، فإن الباحث يجد لكل ما يريده، مادة غنية منثورة مبعثرة في كتب التاريخ، والقصص والحكايات، والمحاضرات والفكاهات، حتى في كتب الرحلات والمذكرات، لو جمعت في مكان واحد، بلباقة كتابية وقدرة تأليفية، لكونت كومة من الدلائل الواضحة والبراهين الساطعة، على أنه كان يسود هنالك لون خاص من الحياة على المجتمع كله، وعلى أن الأدب والشعر، والإبداع والابتكار، والعبقرية البيانية أو الخيالية، كانت تدور حول محور خاص، وتتدفق من منبع خاص، قد تكون النهامة بإشباع الغرائز، والتمتع الزائد بالحياة، والاندفاع المتهور إلى التيارات أو الترفيه

والتسلية ، والوصول إلى أغراض مادية ، فمن اقتصر على قراءة كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني م ٣٥٦ هـ ، وكتاب «ألف ليلة وليلة» من النثر العربي ، أو ديوان بشار بن برد م١٦٧ هـ ، وأبي نواس م ١٩٩ هـ ، من الشعر العربي ، اقتنع بأن المجتمع الإسلامي العربي في العصر العباسي ، كان مجتمعاً مترهلاً بطراً ، وفق التعبير القرآني .

يضاف إلى ذلك أن المؤرخ أو المؤلف في موضوع وصف حضارة وتحليل عناصرها وتركيبها النفسي والحضاري ، لو اقتصر على كتاب للجاحظ م ٢٥٥ هـ ، أو كتب في حكايات المتطفلين والعيارين ، استطاع أن يثبت أن المجتمع في العصر العباسي مثلاً كان منصبغاً ـ بجزء كبير وسمة بارزة ـ بسجية البخل ، الذي كان العرب في جاهليتهم وإسلامهم من أبعد الأمم عنه ، فضلاً عما جاء الإسلام به من حث على الجود ، وإيثار الغير على النفس ، ومكارم الأخلاق والشهامة ، واستنتج بذلك بعض المتأملين في القرآن والمتدبرين له ، حكمة ورود ذم الإسراف والتبذير في القرآن أكثر من ذم البخل ، حتى ورد في ذم التبذير من الكلام القوي العنيف اللاذع ما لم يرد في ذم البخل ، فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ وذلك لأن البخل لم يكن من سجايا العرب ، ولا يتفق مع طبيعتهم الأصيلة ، ولم تكن حاجة إلى التشنيع عليه ، واستهجانه لهذا القدر .

ومن قرأ كتاب الأذكياء للإمام الحافظ ابن الجوزي ، وبابه الخاص بفطن المتطفلين ، استنتج أنه كان للمتطفلين والعيارين دولة وصولة في هذه العصور الذهبية ، مع أن ذلك كان من الحوادث النادرة التي لا يخلو منها عصر من العصور ، قد ضخمها ولونها القصاصون والفكاهيون «للسمر والتسلية» وإزالة السآمة ، وإدخل السرور على المجلس ، وحرصاً على التنادر .

وكذلك من اقتصرت دراسته على كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم ، أو صفة الصفوة لابن الجوزي ، أو «إحياء العلوم» للغزالي أو كتب في الزهد ،

وأخبار الزهاد لشيخ الإسلام عبد الله بن المبارك وغيره ، استطاع أن يصور للقارىء ، الجانب المشرق الرباني من المجتمع الإسلامي وحده ، ويعطي انطباعاً للقارئ أنَّ المجتمع الإسلامي في بغداد وفي العواصم الإسلامية كان مجتمعاً ـ مئة في المئة ـ متبتلاً زاهداً ، مقبلاً على الآخرة بالكلية ، عزوفاً عن اللذات والشهوات ، مع أنه كان يوجد كل هذا بنسب مختلفة ، ولكن القضية قضية التناسب ، وقضية المقارنة العادلة ، وتجريد الفكر والقلم عن الخضوع ـ وبالأصح إخضاع الحوادث والمادة التاريخية ـ لنزعة خاصة أو أغراض غامضة أحياناً ، واضحة أخرى.

ثم إن عملية الكتابة والتأليف في تراجم الرجال ، أو تاريخ عهد ، أو حضارة ، أو دين ودعوة ، أو حركة وفلسفة ، لا تنتهي في فترة زمنية أو مدرسة تأليفية ، فلا تزال هنالك حلقات مفقودة طيلة قرون ، يعثر عليها فجأة ، أو مطمورة في ركام من التفاصيل والجزئيات ، ينفض عنها الغبار الذي تراكم عليها ، أو الأنقاض التي غطتها ، فلا بد من مواصلة البحث وهمة عالية ، وثقة بوجود الجديد المجهول ، والطريف المغمور ، في المكتبة العربية الإسلامية ، التي هي من أغنى المكتبات وأوسعها ، فيها كتب أو مخطوطات لم تر ضوء الشمس ، ولم تصل إليها يد متناول ، وبذلك تقدمت الثقافات ، واكتشفت الحقائق الجديدة ، وتغيرت الآراء والنظريات ، وأصلحت الأخطاء ، وأنصف لدعوات وحركات ، وأسر وشخصيات أو مجتمعات أو حضارات ، ولا تزال المكتبات في الشرق والغرب تطلع بالجديد المجهول الذي كان يتسامع به علماء ذلك الفن ، ولا يجدونه ، فلا بد من الإفادة من ذلك.

ترجع الحكاية إلى الثلاثينات الأولى من القرن الميلادي الجاري ، حين أسند إلى الكاتب ـ مع ما أسند إليه من دروس في التفسير والحديث واللغة والأدب ـ تدريس كتاب «تاريخ الأدب العربي» للأستاذ أحمد حسن الزيات ، فكان ذلك هو الكتاب الحديث الأحدث في موضوعه ، وكان كتاباً له قيمة

أدبية موضوعية ، واشتغل الكاتب بتدريسه في صف من صفوف دار العلوم التابعة لندوة العلماء عدة سنين ، هذا مع اطلاع سابق على كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» لجرجي زيدان وغيره من كتب ألفت في هذا الموضوع ، فكان مع تقديره لهذا الكتاب الذي جمع بين بحث رصين ، واختيار موفق للنماذج الشعرية والنثرية ، وكتابة أدبية في أسلوب عربي عصري جميل ، يشعر بحاجة إلى تأليف جديد في تاريخ الأدب العربي يحتوي على مادة جديدة ، وزيادات تستخرج مما كتب في تاريخ الأدب والأدباء والشعر والشعراء ، من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث أصالة ، ما لم يكتب في هذا الموضوع بالتحديد ، ولكنه يتصل به بنسب قريب أو بعيد ، أو لا يتصل به أصلاً ، ولكنه يفاجىء القارى والباحث بجوانب جديدة ، أو يجعله يتأمل في ما آمن به واقتنع به من نظريات وآراء في منازل الأدباء والشعراء ، والنزعات التي كانت تسود على عصرهم وبيئتهم ، وتعمل عملها في شعرهم وتفكيرهم .

وكنت أحب أن أتفرغ لهذا العمل وأغامر بنفسي في هذه الرحلة الطويلة المثيرة لكثير من الاستغراب والاستنكار ، وأعطى بعض الأقطار التي تكونت فيها مدرسة أدبية شعرية نقدية جديدة ، ومثلت دوراً خاصاً في تاريخ الأدب والشعر ، والبحث والتحقيق ، والمعاجم والشروح وشرح المصطلحات العلمية وعلم البلاغة .

أخص منها شبه القارة الهندية التي انتهت إليها رئاسة بعض العلوم الدينية والأدبية ، بعد القرن الثامن الهجري بصفة عامة ، وهجوم التتار على الشرق البعيد الذي كان موطن العلوم ومركز الدراسات الإسلامية ، والشرق العربي بما فيه العراق ومصر والشام بصفة خاصة ، فقد أغفل ذلك أكثر المؤرخين للثقافة الإسلامية والأدب والشعر ، لا عن عصبية جنسية ، أو نزعة سياسية ، ولكن لقلة وجود المصادر العربية في هذا الموضوع[1] ، ولكن صرفت عنه

---

(١) وذلك الذي حمل العلامة السيد عبد الحي الحسني (م ١٣٤١) والد كاتب هذه السطور ، على أن يؤلف كتابه الكبير «الثقافة الإسلامية في الهند» الذي لا يزال =

صوارف ، منها أعماله التأليفية في تعليم اللغة والأدب في بلاد كالهند ، منها سلسلة «قصص النبيين للأطفال والقراءة الراشدة» وكتاب «مختارات من أدب العرب» ومنها أنه كان يستعظم هذا العمل ويعتبره عملاً مجمعياً ، موسوعياً يقوم به مجمع علمي أو جماعة من الأساتذة الذين مارسوا تدريس هذه المادة سنين طوالاً ، واتسع اطلاعهم على مصادره ومظانه.

ولكن رغم تهيبه لهذا العمل العملاق الكبير كانت فكرة استعراض المكتبة الأدبية العربية ـ النثرية والشعرية ـ من جديد ، وإثارة الكنوز الدفينة فيها ، وإدالة الأدب المطبوع النابع من أعماق القلب أو العقيدة الراسخة ، والفكرة القاهرة ، والمعبر عن ضمير حر سليم ، من الأدب المصنوع المتكلف ـ إذا لم نقل المحترف الانتهازي ـ وإعطاءه حقه من العناية والتقليد ، والإجلال والتقدير ، كانت تنتابه وتتردد في خاطره ، فكتب مقالاً لمجلة اللغة العربية ، مجلة «المجمع العلمي العربي»[1] بدمشق حين اختير الكاتب عضواً مراسلاً فيه سنة ١٩٥٧ م بعنوان: «نظرة جديدة إلى التراث الأدبي العربي» وقد استرعى هذا المقال انتباه المعنيين بالأدب العربي وعرضه من جديد ، وإعداد البحوث العلمية فيه ، وأوْلَوه من التقدير والاهتمام ما لم يكن يتوقعهما كاتب المقال[2].

ولم تزل فكرة وضع كتاب جديد أو سلسلة كتب في تاريخ الأدب العربي في مختلف الأدوار ، ومختلف الأقطار ، تراود خاطر الكاتب ، وتتردد بين حين وآخر ، ولعل هذه العملية الفنية كانت تتأخر كثيراً ولا تتحقق أصلاً ،

= المرجع الوحيد لإنتاج علماء الهند العلمي الديني والأدبي بعد دخول الإسلام في هذه البلاد إلى وفاة المؤلف ، وقد صدرت له طبعتان من مجمع اللغة العربية في دمشق.

(١) مجمع اللغة العربية حالياً.

(٢) يمكن الاطلاع على هذا المقال في مجموع مقالات للكاتب «نظرات في الأدب» من مطبوعات رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، (طبع دار القلم بدمشق ص ٢١ ـ ٢٥).

لعلو سن الكاتب وانصرافه إلى مجالات أخرى من التأليف والدعوة ومسؤوليات نيطت به في بلاده وخارج بلاده ، ولكن أراد الله أن تناط هذه العملية التحقيقية البحثية التي هي في صميم تعليم اللغة العربية وآدابها بندوة العلماء ، والتي كان لها شرف الدعوة إلى تعليم اللغة العربية ، على الطريقة القويمة الصحيحة ، ودراستها كلغة حية ، نامية دافقة بالقوة والحيوية تقضي حاجات النفس كما هي تقضي حاجات العصر ، وأن تكون مكتفية في تعليم تاريخ الأدب العربي ، كما كانت مكتفية في عديد من أقسام العلوم والمجالات العلمية والتعليمية .

فكانت للكاتب مفاجأة سارة حين علم أن أستاذين بارزين من أساتذة جامعة ندوة العلماء ، وهما الأستاذ محمد الرابع الندوي والأستاذ واضح رشيد الندوي ، قد تكفَّلا بوضع منهج دراسي ، وتأليف سلسلة من كتب في تاريخ الأدب العربي ، واستقل الأستاذ واضح رشيد الندوي بقسم العصر الجاهلي من تاريخ الأدب العربي ، والأستاذ محمد الرابع الندوي بجزء صدر الإسلام من تاريخ الأدب العربي ، وقرر الاستمرار في إتمام هذه السلسلة إلى أن تصل إلى الدور المعاصر ، وإلى إبراز قسط شبه القارة الهندية في إثراء المكتبة العربية الأدبية والعلمية ، ومعطياتها في بعض المجالات والميادين ، وبذلك تكمل هذه السلسلة الذهبية بإذن الله تاريخياً وجغرافياً ، وشمولاً واحتواءً ، وقد ساعدهما على ذلك إلمامهما باللغة الفارسية والإنجليزية ، فضلاً عن الأردية لغة الهند العلمية الدينية ، واطلاعهما على المصادر الحديثة في تاريخ العلوم والآداب ، والنظريات العصرية ، وزيادة على ذلك النظرة الإسلامية الموسعة ، البعيدة عن تقديس الغرب والاعتماد عليه الاعتماد الزائد ، والتطفل على كتابات المستشرقين ، وإعطاءهم ما لا يستحقونه من التفخيم والتقدير ، والنقل والتقليد .

وأخيراً نسأل الله تعالى جاهدين مخلصين التوفيق لإتمام هذا العمل الجليل ، وأن يمد في عمرهما ويأخذ بيدهما لينتهيا بهذا العمل إلى غاية

سديدة رشيدة ، سليمة كريمة ، وأن يكتب التوفيق لدور التعليم العربي والديني في شبه القارة للانتفاع بمجهود بعض زملائهم ، فالمدارس والجامعات الدينية العربية كلها ، أسرة واحدة ، والعاملون فيها زملاء في الوصول إلى غاية واحدة ، والله ولي التوفيق.

٢٥/ من ربيع الأول ١٤١٠ هـ
٢٦/ من أكتوبر سنة ١٩٨٩ م

أبو الحسن علي الحسني الندوي
دارة الشيخ علم الله الحسني رحمه الله
رائي بريلي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم الكتاب

بقلم الأستاذ محمد الرابع الندوي مدير دار العلوم ندوة العلماء

إن فن تاريخ الأدب بإطاره الجديد السائد لدى مؤرخي الأدب اليوم مأخوذ من قادة الأدب الغربيين ، ولكننا إذا رأيناه في إطاره العام لوجدناه أنه كان سائداً لدى أدباء العربية وعلمائها القدماء أيضاً ، فإن هناك مجموعات شعرية مختارة ومجموعات لنماذج الأدب المنثور ألفت على الأساس التاريخي كذلك ، وبذلك ليس تاريخ الأدب في أساسه موضوعاً حديثاً ، بل إن له جذوراً قوية واضحة في القديم وهي التي تربى عليها الأجيال العربية السابقة ، ولم تزل تتربى إلى أن بدأ العهد الحديث .

وبدأ العهد الحديث من احتكاك العرب بالغرب ، وعكوفهم على مناهله العلمية والأدبية ، وذلك في وقت كان الغرب قد بلغ قوته وغلبته مادياً وسياسياً ، واتسع نطاقه في المعرفة العلمية والاطلاع ، وطفق يبهر ضياء علمه عيون الشرقيين الضعفاء المصابين بمركب النقص أمامه ، وكان الشرق الإسلامي بما فيه الشرق العربي وغير العربي يمر خلال هذه الفترة من ذهول وخمول وضعف شديد ، ولم يكن الشرق في طلبه للنهوض مرة أخرى إلاّ أن يتتلمذ على موائد الغرب ، ويتناول ما يجده فيها من ألوان التراث والمعرفة

والعلم مما قام بخدمته أو تجديده نحارير الغرب وفطاحله في الأدب والثقافة والعلم.

ومن هذا الطريق دخل فن تاريخ الأدب العربي في مراكزنا العلمية بالشكل الذي استحسنه ورآه المستشرقون في الغرب، والمستشرقون هم جماعة من الناس خدموا تراث الشرق العلمي إخراجاً وتحقيقاً وتعليقاً وحلاً لمشاكله العلمية، وقدموه إلينا بروح وطبيعة من العقلية الغربية والفكرة البابوية، أما المتتلمذون على علماء الغرب المستشرقين فقد استفادوا من ذلك، وقلما تنبهوا على تأثير القوالب الغربية على ما صيغ فيها، لأن العادة جرت في ميادين العلم والفكر أن التلاميذ قلما يتنبهون على مواضع الخلل لأساتذتهم.

ولكن مضت على الغزو الثقافي الغربي مدة كانت تكفي لأن تفطن عقول الشرقيين لما هو صاف من ماء المعرفة والثقافة والأدب ولما هو عكر، واقتضت الحاجة إلى أن تؤلف كتب جديدة تبحث في الثقافة والعلم بروحهما الحقيقية، وأن تعرض المادة الأدبية والعلمية في قوالبها الأصيلة، وبدأ هذا الاتجاه في كتابات عدد من علماء الأدب والفكر المسلمين أخيراً، وبدأ تصحيح المسار العلمي والأدبي الإسلامي بفضل الله وكرمه.

ولقد تنبه لضرورة التأصيل والتصحيح لمسار العمل الأدبي والفكري سماحة أستاذنا السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي؛ عندما بدأ مهنة التدريس في دار العلوم ندوة العلماء، وذلك في أوائل الأربعينات من القرن الميلادي الحالي أو أوائل العقد السابع من القرن الهجري الماضي، فبدأ بتعريف تلاميذه بالخلل الواقع في أعمال الاستعراض والإثارة للتراث العلمي والثقافي الإسلامي والعربي لدى المحققين غير المسلمين، وقام سماحته بجمع نصوص أدبية متصفة بالجمال الأدبي نابضة بالحيوية والقوة على صورتها الحقيقية، وألف في ذلك كتابه «مختارات من أدب العرب» ودعا في مقدمته إلى استعراض جديد للمادة الأدبية، ونصح سماحته تلاميذه بالسير على هذا الدرب وإعداد كتب دراسية على المنهج الجامع بين القديم الصالح

والجديد النافع ، وبإزالة الغبار الذي لحق المعارف الإسلامية المختلفة بسبب الغفلة من أصحابها ، وبسبب الاعتداء من أعدائها ، فنشط عدد من تلاميذه بالعمل ، وألفوا كتباً في موضوعات مختلفة مقررة في مناهج ندوة العلماء التعليمية من النصوص الأدبية واللغة والنحو والتصريف والنقد والتاريخ والموضوعات الدينية والثقافية والأدبية والدعوية الأخرى ، وكان من أصحاب التأليف فيها الأستاذ المرحوم علي أحمد الكياني الندوي والأستاذ المرحوم عبد الماجد الندوي والأستاذ محمد معين الندوي والأستاذ سعيد الأعظمي الندوي رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» العربية ، وذلك في مجال اللغة العربية وقواعدها بصورة خاصة ، والمرحوم فضيلة الشيخ محمد أويس الندوي أستاذ التفسير في ندوة العلماء ، والأستاذ الدكتور عبد الله عباس الندوي ، والدكتور تقي الدين الندوي ، والأستاذ السيد سلمان الحسيني الندوي ، والشيخ شفيق الرحمن الندوي وغيرهم ، وكاتب هذه الحروف ، وذلك في موضوعات فقهية وعلمية إسلامية بصورة خاصة ، وعلى رأسنا وفي مقدمتنا سماحة الشيخ الندوي نفسه.

وكان سماحته يدرس علم التفسير والأدب ، وكان من موضوعاته تاريخ الأدب العربي أيضاً ، فكان يدرسه على منهجه بالتأصيل والتصحيح ، واستمر على ذلك منبهاً تلاميذه على التفريق بين الأصالة والتقليد الأعمى.

وكان بوده أن يقوم هو بتأليف كتاب في تاريخ الأدب العربي على الخطة الرشيدة ، ولكن مسؤولياته المختلفة لم تسمح له بذلك ، فأوصى تلاميذه بهذا العمل ، ومن هنا كان قيامنا لتقديم جهدنا في هذا المجال ، وبناءً على جلالة شأن هذا العمل وقلة بضاعتنا فيه توزعنا بيننا أبواب الموضوع ، فاخترت أنا عهوداً واختار أخي واضح رشيد الندوي عهوداً أخرى ، واستعرضنا ما احتوته الكتب المؤلفة فيها قديماً وحديثاً ، واخترنا منها ما وجدناه سديداً ومفيداً ، ولقد راعينا في ذلك المستوى التعليمي الموافق لعقول الشباب ومستواه العلمي.

فهذا هو جهدنا وهو في صورته الأولى ، ولا يكون خالياً من النقص ، ولكننا أردنا من عملنا خيراً وبذلنا جهداً ، نرجو من إخواننا أهل البحث والتحقيق في شأن ما يجدونه في هذا العمل من زلة أو نقص أن ينبهونا على ذلك ، وندعو الله تعالى أن يتقبل منا صالح أعمالنا ، ويغفر زلاتنا ، إنه رحيم مجيب .

١٥/١١/١٤٠٩ هـ

محمد الرابع الحسني الندوي
مدير دار العلوم ندوة العلماء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وأصدق القائلين الذي نزل عليه الكلام المبين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من رب العالمين .

وبعد! فإن الأدب هو الكلام الذي يهذب النفس ، ويثقف اللسان ، والتاريخ يربط الجيل الحاضر بالجيل الماضي ، وينظر الخَلَف من خلاله إلى سلفه ، ليقتبس منه الأفكار ، ويتعلم منه نتائج الأعمال ، ويقوِّم سلوكه في ضوئه ، وإذا كان التاريخ العام يعنى بعرض الجيل الماضي بأفعاله وأعماله ، وتصرُّفه في الحياة ، ونتائج أعماله وأفعاله ، ويتعلَّم الجيل الحاضر بما يقتبس من هذا العرض مناهج يسلكها في حياته ، والنتائج السيئة للأعمال فيتجنبها ، فالتاريخ الأدبي يقدِّم للجيل الحاضر أقوال الجيل الماضي وتعبيره عن انفعاله ومشاعره وأحاسيسه في الكلام المنثور والمنظوم ، ويتعلَّم الجيل الجديد منه تأثير الكلام في الحياة ، وقيمة الأدب في الكلام ، ويميز به بين الطيب والرذيل ، والحسن والقبيح من القول ، ويقتبس الأفكار الطيبة ، فيثقِّف سلوكه ، فإذا كان الكلام طيباً كان تأثيره طيباً ، وإذا كان شنيعاً كان تأثيره شنيعاً ، فكم من حروب قامت ، وفتن ثارت بكلمة أو بيت شعر ، ولذلك حث القرآن الكريم على القول السديد : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ـ ٧١] .

يتعلم الجيل الجديد من تاريخ الأدب تأثير الكلام ويقتبس منه ما يهذِّب نفسه ويثقِّف لسانه ، فلا يقلُّ تاريخ الأدب أهمية من التاريخ العام ، بل هو أقوى تأثيراً منه ، لأن تأثير الأعمال محدود ومؤقت ، وتأثير الأقوال دائم يقع على القلب ، ويؤثر على النفس ، كما جاء في المثل العربي : «رب قول أنفذ من صول» وقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحراً» وقال: «وإن من الشعر حكمة» .

وبهذا الاعتبار يحتمل المؤلف في تاريخ الأدب مسؤولية كبيرة في عرض النماذج وتراجم الشعراء ، والأدباء ، لأن لها وقعاً وتأثيراً على النفوس ، وقد أهمل المؤلفون في الموضوع هذا الجانب ، وأغفلوا هذا الاعتبار ، فعرضوا جوانب تتصل بإثارة الغرائز ، وإمتاع النفس ، وأغفلوا جوانب التهذيب والتثقيف التي لا تخلو منها لغة من اللغات ، ولا عهد من عهود التاريخ ، ولا شخصيَّة من الشخصيات الأدبية ، وذلك لسوء فهم معنى الأدب الحقيقي ومكانته ودوره في الحياة ، فابتعد الأدب عن دَوْر نشر الفضائل والمكارم ، وإن كان ذلك الدَّوْرُ دَوْر الأدب الرئيسي .

كانت اللغة العربية غنية بهذه الثروة الكلامية ، ولا يخلو منها أي عهد من العهود بما فيه العهد الجاهلي ، بل إنه عامر به ، وتتوفر نماذج مثل هذه الجوانب في شعر العظماء من شعراء الجاهلية ، وخطبائهم ، كحاتم الطائي ، وزهير ، والنابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت الأنصاري ، وعمرو بن معديكرب ، وقيس بن ساعدة الإيادي ، وأبي الأصبع العدواني وغيرهم من الشعراء والحكماء ، وقد روي عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «محاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق وتنهى عن مساويها» وكان يفضل زهير بن أبي سُلْمى المزني ويقول: إنه يتعفف ، وكذلك كان سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يفضل النابغة الذبياني لترفعه في شعره ، أما شعر النشوة ، والشهوة ، والنخوة ، فهو شعر حالات خاصة ، وجزء يسير من الأدب .

وإذا كان العهد الجاهلي يشمل ثروة غنيَّة من أدب الحياة الذي يثقِّف ، ويهذِّب النفس ، ويصرف الدارس له إلى مسؤوليات الحياة ، ومواجهة حقائقها ، ويوجد في الإنسان روح المصابرة ، وخدمة الإنسان ، وتحمل الشدائد في سبيله فكيف يكون أدب العهد الإسلامي ، والعهد العباسي ، والأيوبي والمملوكي والتركي الذي شاعت فيه العلوم ، وازدهرت ، ووجد فيه علماء ونبغاء ، حتى السلاطين والأمراء في تلك العهود كان يحدوهم الشوق إلى الجهاد ، وتتغلغل في قلوبهم العواطف النبيلة ، والحمية الدينية ، وكان الأدباء والشعراء حتى الندماء الذين يعرضهم المؤرخون بألوان المجون والخلاعة كانوا ينساقون مع هذا التيار ، ويتجاوبون مع متطلبات عصرهم ، ولا يجد الدارس للنصوص الأدبيَّة صعوبة في العثور على أفضل النماذج وأجودها في أدب أي أديب وشاعر ، من أبي تمام ، والمتنبي ، والمعري ، إلى أحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم ، وعمر أبو ريشة في هذا العصر .

إنها مسألة الاختيار والاقتباس والعرض للنصوص ، وهكذا في الأحداث وتصوير البيئة ، وتقديم تراجم الرجال ، ففي حياة الأدباء ، والشعراء مواقف وأدوار تحمل دعوة إلى الفضائل والمكارم ، وقد وجدت في حياتهم فلتات وهنات ، لا تخلو منها حياة شخص ، تستحق غض البصر عنها باعتبارها فلتات ، وخاصة إذا تاب ذلك الشخص عنها ، وعبر عن توبته وإنابته في أدبه ، أو شعره .

لقد أشار إلى هذا الجانب الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي في مقاله عن الأدب ، ولهذا الغرض قام بتأليف كتاب «مختارات من أدب العرب» وسار على هذا الدرب الأستاذ محمد الرابع الندوي ، مدير دار العلوم لندوة العلماء بتأليف كتاب «منثورات» وكانت هذه الجهود جهوداً رائدة ، ونالت هذه الفكرة القبول في الأوساط العلمية ، ثم تحولت إلى حركة الأدب الإسلامي .

كان تاريخ الأدب العربي منذ بدء التأليف فيه يخضع لأفكار المغتربين ، وتلامذة المستشرقين ، والقوميين العرب ، وغلب عليه طابع التقليد للفكر الأوربي ، وسيطر على هذه البحوث تأثير بحوث المستشرقين ، فأثقل المؤرخون العرب كتبهم بآراء المستشرقين الذين كانت صلتهم باللغة العربية ضعيفة ، وفهمهم لطبيعة العرب القومية ضيقاً ، وكانوا في دراساتهم منحازين إلى تصوراتهم القومية ، وعقائدهم النصرانية واليهودية .

وظل هذا الموضوع مدة من الزمن صدى لآراء حتي ، ومرغوليوث ، ونولديكي ، واسمث ، والأدباء الأوربيين الآخرين ، لأن معظم هذه الكتب ألفت في عهد الاستعمار الأوربي ، وكان أوائل الكتّاب في هذا الموضوع من تلاميذ المستشرقين ، ولما تحررت الدول العربية بقي نفوذ أفكارهم وبحوثهم سائداً ، فبقي هذا الاتجاه ، وفي العهود الأخيرة ظهرت أقلام حاولت تطهير التاريخ من تأثير هذه النظريات ، واتخذت مواقف مستقلة في عرض النصوص ، ولكن لا تزال هذه الجهود في مرحلة البداية ، وتحتاج إلى المواصلة والمتابعة .

إننا نجد في التاريخ شخصيات مظلومة أُسيء عرضها ، وهي في حاجة إلى دراسة جديدة ، من زاوية جديدة ، لتعطي القارىء فكرة صحيحة عن المجتمع الإسلامي في القرون الأولى ، فلا يعرف القارىء إلا أن المجتمع في العهد العباسي والعهود التالية كان مجتمع الجواري والندماء ، والمضحكين ، والمجانين ، والمترفين ، وأن الأدب في ذلك العهد كان أدب الخمر ، والكأس ، والغواني ، والشرود الفكري ، وهو خلاف الواقع ، وخلاف التاريخ .

إن الكِتَاب الذي نحن بصدده خطوة في هذا السبيل ، وهو خط جديد ، وضعه سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي وسار عليه ، إنه كان من حق الأدباء والمؤرخين في العالم العربي ، أن يخلصوا هذا الموضوع من التأثير الأجنبي ، ولكن لم يبذل في صدد تصحيح المنهج المتبع في كتابة

التاريخ بصفة عامة ، والتاريخ الأدبي بصفة خاصة ، مجهود كبير يعيد الثقة إلى نفوس الشباب المسلم في تاريخه .

وقد كان كتاب الأدب العربي بين عرض ونقد للأستاذ محمد الرابع الندوي كتاباً رائداً في هذا العمل ، وكان الموضوع يحتاج إلى توسعة وتفصيل ، فوضعت ندوة العلماء خطة موسعة للكتابة في هذا الموضوع .

يختلف هذا الكتاب عن كتب تاريخ الأدب الأخرى في الجمع والشمول ، فإن كتب التاريخ الأدبية الشائعة في مدارس الدول العربية تركز على عرض تراجم الأدباء والشعراء والنصوص على الخطوط التي وضعها الكتَّاب في التاريخ في عهد الاستعمار ، وبالإضافة إلى ذلك إن تاريخ الأدب في المدارس العربية وزع على دراسة النصوص ، دراسة تاريخية ، ودراسة نقدية ، ودراسة علم اللغة وفقه اللغة ، أما دراسة هذا الموضوع في مدارس الهند فهي محدودة ، فلا يقرأ الطالب تاريخ الأدب إلا في مراحل متقدمة بدون دراسته في المراحل الثانوية ، ولا يجد فرصة ليقرأ بحوث النقد الأدبي ولا تاريخ نشأة اللغة العربية ، وتهذيبها ، وطبيعة الحياة العربية ، فجمعت بعض المعلومات الأساسية في هذه العلوم في هذا الكتاب لتحصل للطالب معرفة بها ، لتوفير الوقت ، كما بذلت محاولة لإبراز دور الإسلام في تربية النفوس وإعداد المجتمع النبيل ، وتأثير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وأقوال الصالحين في تثقيف اللسان وتكوين المجتمع .

يشتمل الكتاب الذي بين أيدينا على تاريخ اللغة العربية والأدب العربي ، في عهد ما قبل الإسلام ، وضمت إليه بعض الموضوعات المتعلقة بالعصر الجاهلي ، كرواية الشعر ، والكتابة ، والخط ، وقضية النحل كموضوعات أساسية ليكون القارىء على معرفة بها ، ويمكنه التوسع في المعرفة ، بالرجوع إلى كتب مفصلة في الموضوع .

وإني أشكر في هذا الصدد أخي الأكبر الأستاذ محمد الرابع الندوي مدير دار العلوم لندوة العلماء على تشجيعه ومساعدته في إعداد الكتاب ، وتنسيق

الخطة وقبوله ليتحمل مسؤولية الكتابة في أدب العصر الإسلامي ، لشغفه بذلك الموضوع ، ودراسته الخاصة ، كما أشكر زميلي الكريم الأستاذ سعيد الأعظمي على إشرافه على إخراج الكتاب والاهتمام بالنشر .

وأشكر زميلي الأخ عبد النور الندوي الأزهري على مراجعة مسودة الكتاب وتوجيهه إلى بعض الجوانب المفيدة .

وأسأل الله التوفيق والسداد ، وأن ينفع به المسلمين ، ويلهمنا مراشد أمورنا وهو ولي التوفيق .

١٥/١١/١٤٠٩هـ **واضح رشيد الندوي**




الباب الأول

الفصل الأول: العرب أصلهم وموطنهم.

الفصل الثاني: اللغة العربية، نشأتها، وتهذيبها وخصائصها.

الفصل الثالث: الأدب، تعريفه، وأقسامه، وصلته بالعلم والدين.




الفصل الأول
العرب أصلهم وموطنهم

السامیو ن :

يطلق لقب الساميين على أولاد سام بن نوح ، ومنهم الشعوب الآرامية والفينيقية والعبرية ، والعربية ، واليمنية والبابلية والآشورية ، ومن انحدر من هذه الشعوب[1] .

اللغات السامية :

تشتمل اللغات السامية على اللغات الكلدانية والآشورية والسريانية (الآرامية) والفينيقية والعبرية (الكنعانية) والعربية واليمنية والحبشية ، ولوجود قرابة بين هذه اللغات يشبه بعضها البعض الآخر في جوانب عديدة ، وقد اندثرت معظم هذه اللغات أو انقطعت صلتها عن أصلها ، فلم يبق منها إلا لهجات أو لغات محدودة ، بعد تفرق الساميين إلى مناطق خارج الجزيرة العربية ، واحتفظت العربية بمزاياها الأصلية لأنها بقيت في موطنها الأول وبقي الناطقون بها منقطعين عن الخارج ، وازدهرت بمر الأيام ، وتغلبت

---

(١) أول من استخدم هذا الوصف في إلحاقه على الشعوب السابقة العالم الألماني فردريك سلوشر في أواخر القرن الثامن عشر على أساس الرواية التوراتية ، وليس له أساس ولا سند ، واختار هذه التسمية الكتاب العرب على سبيل التقليد ، ومن المؤرخين العرب المحدثين من يرى تسمية الساميين بالعرب .

على سائر اللغات ، واللهجات الأخرى ، لأنها حملت رسالة الإسلام ونزل بها القرآن الكريم ، وقد وعد الله بحفظ القرآن الكريم : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ويضمن حفظ القرآن في هذه الآية لحفظ اللغة العربية كذلك ، فلم تحتفظ اللغة العربية بوجودها فحسب بل تهذبت تهذيباً كاملاً ، وارتقت بنزول القرآن الكريم بها ، ولا تزال تتهذب وتتوسع محتفظة بخصائصها إلى العصر الحديث ، وصارت لغة التخاطب المفهومة في معظم أرجاء العالم ، ولغة العلم والإعلام ، وهي تعتبر من اللغات العالمية المعدودة المعترف بها في المنابر الدولية .

الموطن الأول للشعب السامي :

اختلف العلماء في تعيين الموطن الأول للساميين ، أَهُمْ من بلاد العرب أم رحلوا إليها من إفريقية أم الجزيرة .

الأقوال المشهورة كما يلي :

١ ـ بلاد الحبشة ، ومنها انتقلوا إلى القسم الجنوبي ببلاد العرب عن طريق باب المندب ، ومن هنا انتشروا في مختلف أنحاء الجزيرة العربية .

٢ ـ شمال إفريقية ومنها نزحوا إلى آسيا .

٣ ـ بلاد أرمينية بالقرب من حدود كردستان .

وهذه الآراء الثلاثة هي أضعف الآراء .

٤ ـ جنوب العراق .

٥ ـ بلاد كنعان .

٦ ـ القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية (الحجاز ونجد واليمن) وهذا هو أصح الآراء[١] ولم يقطع العلماء في أصل معهد الساميين

---

(١) فقه اللغة ، علي عبد الواحد وافي .

برأي ، وهم دائبون على التنقيب عن الآثار ومقارنة الحضارات المختلفة للشعوب السامية .

ومهما يكن موطن الساميين الأول فإنهم تفرقوا في المناطق الآتية :

البابليون والأشوريون في العراق ، والفينيقيون في سواحل سورية ، والعبرانيون في فلسطين ، والأحباش في الحبشة ، والعرب في الجزيرة العربية .

شبه الجزيرة العربية :

العرب شعب سكن في منطقة تعرف بشبه الجزيرة العربية ، وهي إقليم في الجنوب الغربي من آسيا ، يحده من الشرق الخليج العربي ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، ومن الغرب البحر الأحمر ، ومن الشمال يحده خط وهمي من خليج العقبة حتى مصب شط العرب في الخليج العربي .

وبلاد العرب في مجموعها صحراء ، ولكنها ليست كالصحارى الأخرى التي لا زرع فيها ولا ماء ، إنها تشتمل على مواضع خضراء مزروعة ، وخاصة على سواحل شبه الجزيرة ولكن الماء فيها قليل ، وتميز جنوب الجزيرة بالخضرة ، فعرف بالأرض الخضراء أو البلاد السعيدة ، وقامت فيه حضارات ، واشتغل سكانه بالزراعة والفلاحة والبناء ، وكان فيه ملوك ، أقاموا السدود والحصون والقصور ، وتنعموا في الحياة ، أما أهل الشمال فغلبت عليهم البداوة ، للجفاف ، ولغلبة الجفاف بصورة عامة وصف العرب في التوراة بالبداوة ، واستعملت لفظة العرب بهذا المعنى في جميع فروع اللغات السامية[١] وأطلق الكتّاب القدماء كلمة العرب على سكّان هذه المنطقة الجافة الصحراوية .

التقسيم الطبيعي لجزيرة العرب :

يقسم جغرافيو العرب الجزيرة العربية بحسب طبيعتها على خمسة أقسام :

---

(١) حضارة العرب لأحمد سوقة .

١ ـ **تهامة**: وهي الأرض الواطئة الممتدة بمجاورة ساحل البحر الأحمر من ينبع إلى نجران في اليمن، وتسمى الغور أيضاً لانخفاض أرضها عن أرض نجد.

٢ ـ **الحجاز**: ويقع شمالي اليمن وشرقي تهامة، ويتكون من أودية تتخلل سلسلة جبال السراة الممتدة من الشام إلى نجران في اليمن، وفيه المدينتان المقدستان مكة المكرمة والمدينة المنورة، وسمي بالحجاز لأنه يحجز بين تهامة ونجد، ووجدت في الحجاز آثار العمارة، والحياة المستقرة بنوع من نظام ترتبط به مختلف القبائل.

٣ ـ **نجد**: ويمتد بين اليمن جنوباً وبادية السماوة شمالاً والعروض وأطراف العراق، وسُمِّي نجداً لارتفاع أرضه.

٤ ـ **اليمن**: ويمتد من نجد إلى المحيط الهندي جنوباً والبحر الأحمر غرباً ويتصل به من الشرق حضرموت والشحر وعمان، وعرف اليمن بالخصب ووجدت به آثار الحضارة والحكم.

٥ ـ **العروض**: ويشمل اليمامة والبحرين، وسُمِّي عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق.

العرب:

أقدم من ذكر العرب من اليونانيين أخيلس (٤٥٦ ـ ٥٢٥ ق.م) وهيرودوتس (٤٢٥ ـ ٤٨٤ ق.م) ووردت إشارات إلى العرب في كتب طائفة من الكتَّاب كبطليموس الذي عاش في الإسكندرية في القرن الثاني للميلاد، وعرفت هذه المنطقة عند الكتَّاب السريان باسم عرب منذ القرن الثالث للمسيح، ووردت في الكتب اليونانية واللاتينية المؤلفة قبل الإسلام أخبار وأسماء قبائل عربية، وقد عرف العرب أيضاً في قديم الزمان بأسماء بعض

قبائلهم الكبرى[١] فقد أطلق الآراميون والإيرانيون على العرب اسم تائوي نسبة إلى طيء ، القبيلة العربية الشهيرة ، كما أطلق العبرانيون هذا الاسم على العرب في عهد التلمود ، والكتابة الوحيدة التي فيها اسم العرب هي تلك التي عثر عليها في الكتابة العربية التي ترجع إلى زمن امرىء القيس.

أطلق القرآن لفظة العرب علَماً على العرب جميعاً مِنْ حَضَرٍ وأعراب ، وخص بهذه التسمية ونعت لسانهم باللسان العربي ، ونعت القرآن البدو بالأعراب وذكرهم في مواضع كثيرة وذكر طبائعهم الخاصة ، وهو أول من خصص الكلمة وجعلها دالة على سكان الجزيرة العربية[٢] ومنذ ذلك الحين اقتصر استعمال كلمة العرب وطناً وقومية على جزيرة العرب ، والعرب ، وقد كان العرب قبل الإسلام ينتمون إلى قبائل وأماكن يتعصَّبون لها ، ويلتزمون بها ، ويعادون غيرها ، فكانوا مشتتين متناحرين ، ولم تكن بينهم وحدة تربطهم إلا اللغة ، ولم يكن لهم أي ملتقى إلا الأسواق والمواسم.

ويقول العرب القدامى بأن العرب عُرفوا بهذا الاسم لإعرابهم ، وهو البيان لأن الإعراب كان السمة الغالبة لهم ، قال الجوهري: الإعراب: الإبانة.

وفي اللغة: رجل معرب إذا كان فصيحاً ، وإن كان عجمي النسب ، ورجل عربي إذا كان نسبه من العرب ثابتاً وإن لم يكن فصيحاً وجمعه عرب ، والرجل الأعرابي ، إذا كان بدوياً صاحب نجعة وانتواء وارتياد للكلأ وتتبع لمساقط الغيث، سواء كان من العرب، أم كان من مواليهم، وجمعه أعراب[٣].

قال أخنس بن شريق:

وَنَحْـنُ أنـاسٌ لا حِجـازَ بـأَرْضِنـا   مع الغيثِ ما نلفى ومَنْ هو غالبُ

---

(١) أرض القرآن للعلامة السيد سليمان الندوي.

(٢) جواد علي ، المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام.

(٣) اللسان.

ولا يقال للمهاجرين والأنصار ـ وهم سكان مكة ويثرب والمناطق المجاورة ـ الأعراب ، إنما هم عرب ، وقد تهذبت لغتهم وارتقى أدبهم ، ولم يوجد في العرب شعور بكونهم أمة ذات خصائص ومميزات قومية ووطنية إلا بعد احتكاكهم بالأمم الأخرى كالفرس والروم والهنود والأتراك ، فقد كانوا قبل الإسلام مهجورين لا يعبأ بهم ولا يوزن لهم[1] ، ولم يجتمع العرب تحت راية واحدة كأمة إلا في ذي قار[2] ، اليوم الذي انتصر فيه العرب على الفرس مجتمعين .

طبقات العرب :

يقسم المؤرخون العربَ إلى ثلاثة أقسام كبرى : العرب البائدة ، العرب العاربة ، العرب المستعربة ، ويقسم بعض الكتاب العرب إلى قسمين البائدة والباقية ، ثم يقسمون الباقية إلى العاربة والمستعربة .

العرب البائدة :

هم العرب الذين اندثروا ، منهم من ذكرهم القرآن الكريم ومن لم يذكرهم ، وممن ذكرهم القرآن عاد وثمود ، وقد ذكرت القصص والأساطير والشعر العربي القديم شعوباً كثيرة أخرى بادت ، منها طسم وجديس والعمالقة وجرهم الأولى ، والعرب البائدة أولاد إرم بن سام .

العرب العاربة :

وهم القحطانيون أو عرب الجنوب (اليمن) تعلموا اللغة العربية من العرب البائدة ، وهم أهل إقامة لوجود أراض مخصبة وتوفر الماء والخضرة في

---

(١) يدل على ذلك ما جرى في بلاد كسرى في حضرة المنذر بن نعمان ما اضطره إلى أن يرسل خطباء العرب للدفاع عن العرب وبيان خصائصهم ، وما ذكره جعفر بن أبي طالب عند النجاشي .

(٢) وقعت معركة ذي قار وكان ﷺ في المدينة فقال: هذا يوم انتصر فيه العرب على العجم ، وبي نصروا .

بلادهم ، ويقال: إن أول من سكن اليمن هو يعرب بن قحطان ، وسَمَّى العربُ الأقدمون اليمن «اليمن الخضراء» لكثرة أشجارها وثمارها ، وقيل إنهم نشؤوا في الشمال ، وانتقلوا إلى اليمن في عهد المعينيين ، واستولوا على مناطقهم ومدوا سلطتهم إلى أن خضعت اليمن كلها لهم ، وسقط المعينيون.

العرب المستعربة:

وهم العدنانيون الذين سكنوا الحجاز ونجد في شمال الجزيرة ، غلبت عليهم البداوة ، فسكنوا الخيام التي كانت تنصب حيث طاب لهم المقام ، وأقربهم إلى الحضارة وأحسنهم خلقاً الحجازيون لجوارهم للكعبة المشرفة ، واتصالهم بالقبائل العربية التي كانت تأتي إليهم في موسم الحج ، ورحلاتهم التجارية ، وهم منبع اللغة العربية الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم.

حفظ الأنساب:

كان العرب في الجاهلية يحافظون على نسبهم ، ويحرصون على تخليد مآثر آبائهم وأمجادهم ، ويتفاخرون ، ويتباهون بها ، ولهذه العناية بحفظ الأنساب ، وجدت فيهم طبقات النسابين ، كرواة الشعر ، في القبائل الكبرى بصفة عامة ، كانوا يسجلون مفاخر رجال قبائلهم ، ويلقنون أولادهم أن يسيروا في ضوئها ، يقول الشاعر:

إنَّا لَمِنْ مَعْشَرٍ أفنى أَوائِلَهُم ... قِيلُ الكُماةِ ألا أَيْنَ المُحَامُونا

ووصف النابغة الذبياني جيش الغسانيين:

وَثِقْتُ له بالنَّصْرِ إذْ قيلَ قد غزتْ ... كتائبُ من غَسَّانَ غَيْرُ أَشَائِبِ

ويقول عمرو بن كلثوم:

فَهَلْ حُدِّثْتَ عن جُشَمَ بنِ بَكْرٍ ... بِنَقْصٍ في خُطُوبِ الأَوَّلِينا

وَرِثْنا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بنِ سَيْفٍ ... أباحَ لنا حُصُونَ المَجْدِ دِيْنا

وَرِثْتُ مُهَلْهِلاً والخَيْرَ مِنْهُ ... زُهَيْراً نِعْمَ ذُخْرُ الذَّاخِرِينا

وعَتَّاباً وكُلْثُوماً جميعاً ... بِهِمْ نِلْنَا تُراثَ الأَكْرَمِينَا

وللعناية بالأنساب كان بعض العرب الذين وهبهم الله ذاكرة قوية يحفظون الأنساب ، فعرف عدد منهم بالنسابة ، وألفت كتب في الأنساب ، وكان سيدنا أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ من علماء الأنساب ، يرجع إليه الباحثون في الأنساب ، وممن عرف في علم الأنساب : دغفل بن حنظلة ، وعبيد بن شرية الجرهمي ، وأبو الشطاح اللخمي ، والشخار بن أوس ، وعبد الله بن عبد المحجر ، وهشام الكلبي ، ومحمد بن سائب الكلبي ، والمدائني ، والفاكهاني ، ومصعب بن عبد الله الزبيري ، وزبير بن بكار ، وقتادة ، والشعبي ، والنضر بن شميل الحميري ، وخالد بن مسلمة ، والأصمعي ، وأبو عبيدة ، وابن هشام ، والمبرد ، والبلاذري ، والسمعاني ، وابن حزم ، والقلقشندي ، وكان دغفل أوسع أهل زمانه رواية في أنساب العرب خاصة وأخبارها وعلومها في الجاهلية عامة .

ويعتبر علم الأنساب من علوم العرب التي يتميزون بها من غيرهم ، وكان علم الأنساب مادة غزيرة في الشعر العربي ، وأخبار العرب ، وكان وسيلة فعالة في الهجاء والرثاء ، وتفْقِد بعض القصائد العربية أهميتها بدون علم الأنساب ، وكان بعض الشعراء يشيرون إلى أحداث التاريخ ، ويذكرون بعض الأسماء ، وصلات بعض رجال القبائل مع بعض ، تتضمنها قصائد كاملة ، وقد استغل الشعراء في شعر النقائض علم الأنساب بكثرة ، ما يدل على أن أهمية الأنساب بقيت حتى في العهد الإسلامي .

رتب علماء الأنساب قبائل العرب على مراتب ، هي شِعْب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم فصيلة ، فالشِّعْب النسب الأكبر مثل عدنان وقحطان ، والقبيلة مثل ربيعة ومضر ، والعمارة مثل قريش وكنانة ، والبطن مثل عبد مناف وبني مخزوم ، والفصيلة مثل بني أبي طالب ، وبني العباس ، وجعل ابن الكلبي بين الفخذ والفصيلة : العشيرة ، وهي رهط الرجل ، والقبيلة : الجماعة التي تنتمي إلى نسب واحد .

الأرحاء والجمرات والجماجم:

من قبائل العرب قوم لم يخرجوا من ديارهم ويسمون بالأرحاء ، وهم ست قبائل ، تميم بن مرة ، وأسد بن خزيمة في مضر وكلب بن وبرة ، وطي بن أدد في اليمن ، وقبيلتان في ربيعة لم تعرفا ، ومنها قبائل تسمى بالجمرات ، لاجتماعهم على أن لا يخرج منهم أحد إلى غيرهم ، ولا يدخلوا من غيرهم أحداً فيهم ، وهم بنو تميم بن عامر بن صعصعة ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو ضبة ، وبنو عبس بن بعيض ، والجماجم هي القبائل التي تفرعت من كل واحدة منها قبائل اكتفت بأسمائها دون الانتساب إليها ، فصارت كأنها جسد قائم وكل عضو منها مكتف باسم معروف بموضعه ، والجماجم ثمان: وهي غطفان وهوازن وكنانة وتميم في مضر ، وبكر وعبد القيس في ربيعة ، ومذحج وقضاعة من سبأ باليمن[1] .

الأنساب وتصور الطوطمية:

وقد رفض بعض المستشرقين كـ (روبرت اسمث (Roberst Smith) ونولديكي (Noldeke) الأنساب على أساس بعض الشكوك والشبهات وعمل التدسيس في العهود السابقة ، ولا شك في أن التدسيس وقع في كل موضوع وعلم ، فيحتمل هذا الموضوع أيضاً تلاعب بعض علماء الأنساب لأغراض سياسية أو مادية ، ولكن الاهتمام الكبير الذي كان يناله علم الأنساب ، وكثرة عدد النسابين ، واستمرار هذا العلم إلى قرون التدوين ، يستبعد تلاعباً كبيراً أو تلفيقاً واسعاً .

ورفض نولديكي وجود هذا العلم ، وقال: إن محمداً الكلبي وولده هشاماً الكلبي اخترعا هذا العلم ، والواقع أن هناك مصادر أخرى كثيرة لهذا العلم ، ولا يقصد من هذا القول إلا هدم إحدى دعائم الحياة العربية ،

---

(١) العقد الفريد.

والتشكيك في الشعر الجاهلي بكامله ، والذي وردت فيه إشارات كثيرة إلى الآباء والأمجاد وحوادث التاريخ ، وقد اشتبه على هؤلاء الرافضين حفظ الأنساب كما اشتبه عليهم حفظ الشعر وروايته لسوء تقديرهم لذاكرة العرب ، وعدم معرفتهم بخصائص العرب القومية ، إنهم تبنوا تلك النظرية لإنكار التاريخ العربي والتشكيك في السيرة النبوية والأدب العربي ، واستند بعض هؤلاء الرافضين إلى تصورهم الخرافي المعروف بالطوطمية(١) وهو النسبة إلى الآلهة ، والكواكب ، والحيوانات ، والأشجار ، وكان هذا التصور شائعاً في الهند وأوربة فقاس عليه هؤلاء العلماء ، ولكن دراسة تاريخ العرب تفيد أن هذا التصور لم يكن شائعاً في العرب ، ووقع آخرون بانتساب بعض القبائل إلى نساء في مغالطة وجود تصور الأمومة(٢) لدى العرب ، وهو أيضاً قياس لا ينطبق على العرب ، فإن النسبة إلى الأمهات قليلة .

وقد انضمت بعض القبائل الضعيفة إلى قبائل أخرى نتيجة للأحلاف فانتسبوا فيما بعد إلى تلك القبيلة .

وذكر ابن دريد في كتاب «الاشتقاق» طريقة العرب في تسمية أولادهم :

«اعلم أن للعرب مذاهب في تسمية أبنائها ، فمنها ما سموه تفاؤلاً على أعدائهم نحو غالب ، وغلاب ، وظالم ، وسموها في هذا الباب مسهراً

---

(١) الطوطمية (Totemism) نظرية وضعها ماك لينان المتوفى ١٨٨١ م تقول : إن القبائل البدائية مرت بدور الطوطمية ، وهي اتخاذ القبيلة حيواناً أو نباتاً أو كوكباً ، أو شوكة تسمى باسمه ، وكان هذا الطوطم الخيالي يحميها ويدافع عنها وكان الزواج ممنوعاً بين أهل الطوطم الواحد ، والأبوة غير معروفة عند أهل الطوطم ، ويرجع النسب عندهم إلى الأم .

(٢) الأمومة : اتخذ روبرت اسمث على أساس تسمية بعض القبائل تسمية الأنثى كمدركة ، وطابخة ، وخندف ، دليلاً على أن العرب مروا بدور الأمومة وهو دور لم يكن للنساء أزواج معينون ، لأن الزواج لم يكن فيه بالمعنى المفهوم من الزوجية عندنا ، وهذان تصوران لا ينطبقان على العرب ، لأن عادة تسمية القبائل بتسمية الأنثى ، وبالحيوان الخرافي لم يكن عاماً ، ويوجد خلاف ذلك كثيراً .

ومؤرقاً ، ومنها ما تفاءلوا به للإيثار نحو نائل ، ووائل ، وناج ، وسعيد ، ومنها ما سُمي بالسباع ترهيباً لأعدائهم نحو أسد ، وليث ، ومنها ما سُمي بما غلظ وخشن في الشجر تفاؤلاً نحو طلحة ، وسمرة ، وسلمة ، وقتادة ، ومنها ما غلظ من الأرض وخشن لمسه وموطنه مثل حجر ، وصخر ، وفهر ، وجندل ، وجرول ، ومنها أن الرجل كان يخرج من منزله وامرأته تمخض ، فيسمي ابنه بأول ما يلقاه من ذلك نحو ثعلب ، وكلب ، وحمار ، وجحش ، وبأول ما يسنح أو يبرح من الطير نحو غراب(١) .

وأيد الجاحظ أيضاً هذا المسلك في تسمية الأولاد(٢) .

الفصاحة والبيان وحب الحرية :

وامتاز العرب بين أمم العالم وشعوبه في العصر الجاهلي بأخلاق ومواهب تفردوا بها أو فازوا فيها بالقدح المعلى ، كالفصاحة ، وقوّة البيان ، وحب الحرّية ، والأنفة ، والفروسية ، والشجاعة ، والحماسة ، والصراحة في القول ، وجودة الحفظ ، وقوة الذاكرة ، وحب المساواة ، وقوة الإرادة والوفاء ، والأمانة ، وإكرام الضيف ، والقرى ، وكل ذلك يتجلى في أدبهم ، نظماً ونثراً ، وخاصة الشعر الذي قيل عنه إنه ديوان العرب .

ولم يكن الموت في سبيل المجد ، والكرامة والنجدة محبوباً لدى نفوس رجال أي أمة كما كان لدى العرب ، فكانوا يتسابقون إليه كما قال شاعر :

يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لنا ... وتكْرَهُهُ آجالُهم فَتَطُولُ

ويقول :

تَسِيلُ على حَدِّ الظُّباتِ نُفُوسُنا ... وليستْ على غيرِ الظُّباتِ تَسِيلُ

وقد انتشرت فيهم ـ لبعد عهدهم بالنبوة والأنبياء وللتطرف في اتباع هذه

---

(١) كتاب الاشتقاق لابن دريد .

(٢) راجع للتفصيل كتاب تاريخ التمدن الإسلامي ، وأرض القرآن للعلامة السيد سليمان الندوي .

الخصال ، والإفراط فيها ـ بعض عادات قبيحة ، كالقتال لأدنى إثارة وعدم المبالاة بالعواقب وشرب الخمر والمغامرة ، والربا ، وكان شرب الخمر واسع الشيوع ، تحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها والمغالاة في ثمنها الشعراء ، وشغلت جانباً كبيراً من شعرهم بجانب ذكر القتال وسفك الدم ، وتبديد المال في حصول اللذات ، ولتصورهم بقصر الحياة ، وغلبة روح المغامرة ، والفردية ، كانوا غير مدنيين وغير متسامحين في السلوك ، فلم تشع فيهم الصنائع والعلوم ، والتدبير لتحسين مستوى الحياة.

الزواج والأسرة:

كان العرب يعددون الزوجات ، ولم يكن هناك حد معروف لعددهن ، ولعل ذلك كان نتيجة لزيادة عدد النساء على الرجال بسبب قتل الرجال في الحروب ، وكانوا يطلِّقون ، فإذا أراد الرجل أن يطلِّق زوجته يقول لها: الحقي بأهلك ، أو ما يماثل ذلك ، وكان للمرأة في بعض الأحيان الحق في أن تطلِّق نفسها ، وطلاق المرأة كان يعرف بأن تحول باب بيتها المصنوع من الشعر أو الوبر أو الجلد إلى غير جهته الأصلية ، ولكن الجمهور كان يجعل حق الطلاق للرجل ، وكان الرجل يرتبط بالمرأة بعقد زواج بعد رضائها ورضاء أوليائها ، وبعد أن يتفقوا على مهر معين ، وكان بعضهم يتغالى في مهر البنات حتى يبلغ مبلغاً عظيماً.

وقد كانت هناك بعض أنكحة فاسدة أبطلها الإسلام نخص بالذكر منها:

١ ـ نكاح البغايا.

٢ ـ نكاح الاستبضاع.

٣ ـ نكاح الجمع.

٤ ـ نكاح المقت: وهو أنه إذا مات الرجل وترك زوجة وله أولاد كبار قام أكبرهم ووضع عليها ثوبه ، فيرث بذلك زواجها ، فإذا لم يكن راغباً في نكاحها زوجها إلى من يريد من إخوته الباقين بمهر جديد.

٥ ـ أنكحة أخرى شاذة: كنكاح الأمهات والبنات والجمع بين الأختين، ولكن هذا كان نادراً، ولعله تسرب إليهم عن طريق المجوس، وقد أطلق في الإسلام على كل هذه الأنكحة اسم السفاح، ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن ذلك كان مقصوراً على فئات خاصة منهم، لأن ما عرف عن العرب من المحافظة على الأنساب والغيرة على العرض والشرف يجعلنا نعتقد أن ذلك لم يكن شائعاً إلا في أحط الأوساط، وكانت لدى العرب بعض العادات المستهجنة، من ذلك: أن الرجل كان إذا قابل آخر ليس من قبيلته ـ ومعه ظعينة ـ فإن غلبه أخذ الظعينة، واستحلها لنفسه.

وكذلك كان بعض العرب يئدون بناتهم أحياناً، وقد اختلف الباحثون في البواعث التي كانت تحملهم على الوأد، ففريق منهم يقول: إن الباعث كان الإملاق وعدم القدرة على تربية الأولاد، وآخرون كانوا يقولون: إن الباعث كان الحرص على صيانة العرض، وخشية أن تجر البنت العار على عشيرتها في المستقبل، وقد وصل الدكتور علي عبد الواحد أستاذ الاجتماع بكلية الآداب إلى رأي جديد يقول: إن وأد البنات كان لدافع ديني بحت، ذلك لأن العرب كانوا يعتقدون أن البنات رجس من خلق الشيطان، أو من خلق آلهة غير آلهتهم، ينبغي التخلص منهم. ونحن نرى أن هذه الأسباب مجتمعة قد تكون السبب في الوأد، ونذكر في هذه المناسبة: أن الوأد لم يكن قاصراً على البنات بل كان يشمل الأولاد الذكور أيضاً، وأنه كان شائعاً في بعض الطبقات المنحطة، وقليل الشيوع بين الطبقات الراقية.

وكانت معاملة العربي لابنه تنطوي على الحنان والمحبة: يربيه ليكون درعاً يتقي به العدو، ولذلك كانوا يتخيرون لأبنائهم شر الأسماء، مثل أسد وكلب وثور وفهر وصخر.

أما معاملته لأخيه وابن عمه، فكانت تنطبق على المثل الجاهلي وهو: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، وكانوا يسيرون عليها بمعناها الحقيقي

لا المعنى الذي تعورف عليه بعد الإسلام: بأن نصرة الظالم تكون بالأخذ فوق يديه.

بعض عادات العرب ومعتقداتهم الخرافية:

اشتملت أخبار العرب وأشعارهم على ذكر العادات والمعتقدات الآتية:

١ ـ كان إذا مرض أحد الملوك أو الزعماء حملته الرجال على أكتافها يتعاقبون.

٢ ـ تحريم الخمر على أنفسهم حتى يثأروا لقتيلهم.

٣ ـ التعقية أو سهم الاعتذار، وأصل هذا: أن يتقدم جماعة من أهل القاتل إلى أولياء المقتول ـ إن كانوا من غير ذوي البأس ـ فيطلقون سهماً نحو السماء، فإن رجع مضرجاً بالدم امتنعوا عن أخذ الدية، وإن رجع كما صعد مسحوا لحاهم وصالحوا على قبول الدية (قال ابن الأعرابي: ما رجع قط إلا نقياً ولكنهم يعتذرون به عند الجهال).

٤ ـ الخلع واللعن: فأما الخليع فهو الذي خلعه أهله وتبرؤوا منه لخبثه، فكان الرجل يأتي بابنه إلى الموسم، فيقول: خلعت ابني هذا فإن جر لم أضمنه وإن جر عليه لم أطلبه.

وأما اللعين: فهو تمثال الغادر، كان يجعل من طين وينصب، وقد أبطل الإسلام هاتين العادتين.

٥ ـ جز النواصي: فكانت العرب إذا أنعمت على الرجل الشريف بعد أسره جزوا ناصيته (وهي الشعر في مقدم الرأس فوق الجبهة) فتكون الناصية عند الرجل الآسر يفتخر بها.

٦ ـ شد اللسان: وذلك أنهم كانوا إذا أسروا أسيراً وكان شاعراً ربطوا لسانه بنسعة (سير منسوج).

٧ ـ خضاب نحور الخيل: فكانوا إذا أدرك خيلهم الصيد يخضبون نحر السابق بدم الصيد، وقد بطلت هذه العادة بعد الإسلام.

٨ ـ وأد البنات وقتل الأولاد ، وقد تكلمنا عنهما في الفقرة السابقة .

٩ ـ حبس البلايا في الولايا: وذلك أن الرجل إذا مات ؛ كانوا يشدون ناقته إلى قبره ، ويغطون رأسها بولية (بردعة) فإذا أفلتت لم تردَّ عن ماء ولا مرعى ، ويزعمون أنهم إذا فعلوا ذلك حشرت معه في الميعاد ليركبها .

١٠ ـ الهامة: كانوا يزعمون أن الإنسان ـ إذا قتل ولم يطالب بثأره ـ خرج من رأسه طائر كالبومة يسمى الهامة ، وصاح اسقوني حتى يطالب بثأره .

١١ ـ تصفيق الضال: كان الرجل ـ إذا ضل في الفلاة ـ قلب ثيابه ، وحبس ناقته ، وصاح في أذنها بكلمات خاصة ، وصفق بيديه ، ثم يحرك الناقة ، فيزعمون أنها تهتدي إلى الطريق .

١٢ ـ ضرب الثور ليشرب البقر: كانوا يزعمون أن الجن تركب الثيران فتصد البقر عن الشرب ، فيضربون الثور ليشرب البقر .

١٣ ـ مسح الطارف عن المطروف: كانوا يزعمون أن الرجل إذا طرف عين صاحبه فهاجت ، فمسح الطارف عين المطروف سبع مرات سكن هيجانها .

١٤ ـ كيّ السليم من الإبل ليبرأ الجرب منها: كانوا يزعمون أن الإبل إذا شمت رائحة كيّ الصحيح ، برأت من جربها .

١٥ ـ ذهاب الخدر من الرجل: كانوا يقولون إن الرجل إذا خدرت رجله ، فذكر أحب الناس إليه ذهب الخدر .

١٦ ـ ومن تخيلات العرب وخرافاتهم أن الغلام منهم كان إذا سقطت له سنّ أخذها بين السبابة والإبهام ، واستقبل الشمس إذا طلعت وخذف بها ، وقال: يا شمس أبدليني أحسن منها ولتجر في ظُلَم إياتك وهو شعاع الشمس ، قال طرفة بن العبد البكري:

سَقَتْهُ إِيَاةُ الشَّمسِ إلاَّ لِثَاتِهِ … أُسِف ولم تَكْدُمْ عَلَيْهِ بِإِثْمِدِ

١٧ ـ العيافة: وهي زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها واتجاهاتها وممراتها ، وبذلك يتشاءمون ويتفاءلون .

١٨ ـ النهيق لاتقاء الوباء: كانوا يعتقدون أن الرجل إذا قدم قريته، وخشي وباءها، ونهق قبل أن يدخلها مثل الحمار، لم يصبه الوباء.

١٩ ـ التفقئة والتعمية: وذلك أنه كان إذا بلغت إبل أحدهم ألفاً فقأ عين الفحل، فإذا زادت عن الألف فقأ عينه الأخرى، ويزعمون أن ذلك يكف العين عنها[١].

الحجاز:

كانت الحياة في الحجاز تختلف عن الحياة في المواضع الأخرى، وخاصة في آخر العهد الجاهلي، فقد وجدت في يثرب ومكة الحضارة المحدودة، بوجود نظام اجتماعي محدود، وقد انتقلت مكة في منتصف القرن الخامس الميلادي من طور البداوة إلى طور الحضارة وخضعت لنظام يقوم على اتفاق طوعي وتفاهم جماعي، وكان ذلك على يد قصيّ بن كلاب جد النبي ﷺ الخامس.

وساعد على هذا التضامن والتسامح في الحياة وجود البيت في هذا الوادي، وكان يتمتع به جيرانه وسدنته من شرف ومكانة وأمن، وتوجهت كثير من القبائل الغريبة إليها فازداد العمران، وحلت البيوت الموصوفة بالحجر محل الخيام، وكانت الرحلات التجارية لقريش إلى الشام واليمن مصدر خير كثير مادياً وثقافياً واجتماعياً، فكان منهم مترفون لهم مجالس سمر، ينشد الشعراء فيها الشعر، ويحضرها بعض كبار الشعراء، ونشأت فيها بعض الصنائع، وقامت أسواق تجارية، وكانت مكة وأهلها مثلاً في الجزيرة العربية في سلامة الذوق، والظرافة والأناقة، وكانت لغتهم في العصر الجاهلي هي الميزان وهي المرجع وعليها الاعتماد، وكانوا أبلغ العرب وأفصحهم تعبيراً ونطقاً، وكان قولهم حجة في صحة الكلام وسلامته

---

(١) عصر ما قبل الإسلام، محمد مبروك نافع.

وجودته[1] ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه السعادة والأمن في سورة قريش : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ .

مناخ بلاد العرب :

إذا نظرنا إلى بلاد العرب على اعتبار أنها قريبة من خط الاستواء ، وأنها إقليم قاحل ، فإننا نعدها من الأقاليم الحارة في العالم ، ولكن حرارتها مع ذلك لا تقارن بحرارة بعض البلاد الأخرى كصحراء السند وبلاد العراق ، وقد سجلت أقصى درجات الحرارة في نجد ، فوجد أنها لا تزيد عن ١١٢ فهرنهيت (نحو ٤٥ مئوية) ووجد أن أدنى درجة حرارة هي ١٨ فهرنهيت وهي دون درجة التجمد ، وقد سجلها في الحائل أحد العلماء سنة ١٨٩٣ م ، وتمتاز الأقاليم الوسطى بمناخ صحي بسبب جفاف الجو وبخاصة عندما يهب نسيم الشمال المنعش ، ولكن حرارة الجو تزداد عندما تهبُّ رياح من الجنوب ، والجو عند السواحل على وجه العموم أقلُّ حرارة منه في قلب الجزيرة ، إذ لا يزيد متوسط درجة الحرارة عن ٩٥ فهرنهيت ، وتتمتع عمان بجو معتدل لا تطرُّف فيه ، ولكن منطقة مدين تشتد فيها البرودة في الشتاء لدرجة يسقط معها البَرَد .

وإذا استثنينا بلاد اليمن التي تقع في منطقة الرياح الموسمية ، والتي تنزل أمطارها في شهور الصيف ، وبلاد عمان التي يسقط فيها المطر (وفي بعض الأحيان البَرَد) أمكننا أن نقرر أن بلاد العرب بلاد عديمة الأمطار أو قليلتها ، ولا يتجاوز ما يسقط من المطر في عدن وعلى ساحل البحر الأحمر في العام ٣ بوصات ، وإذا أمطرت السماء في هذه الجهات أمطرت وابلاً ، ولكنه لا يستمر إلا بضع ساعات ، وينزل بعض المطر في قلب الجزيرة وفي المناطق الواقعة إلى الغرب منه في فصل الشتاء ، كما تمطر السماء قليلاً على

---

(١) أبو الحسن علي الحسني الندوي (السيرة النبوية) .

هذه الجهات في شهر أغسطس أو سبتمبر ، وتقاسي مساحات شاسعة في بلاد العرب ، وبخاصة في الغرب والجنوب من الجفاف ، ولكن ما ينزل من الأمطار على وجه العموم يكفي لأن يجعل الصحراء تزدهر في فصل الربيع ، ويساعد الواحات على إنتاج شيء من الزرع ، وحظُّ جبال الحجاز وافر في الغالب من الأمطار ، وتمتاز الطائف بأنها تقع عند المرحلة النهائية ، التي تصل إليها الرياح الموسمية في سيرها شمالاً .

وأما الصحراء الجنوبية فربما لا يصيبها الرذاذ ساعة واحدة كل ثلاث أو أربع سنوات .

أما بلاد حضرموت فلا تسقط فيها أمطار لأن شواطئها توازي الرياح الموسمية في هبوبها ، والرياح السائدة في شمال بلاد العرب إما شرقية أو غربية ، وتحمل الأخيرة منها الأمطار من ناحية البحر الأبيض المتوسط وتجتاز بها فلسطين ، وفيما عدا هذه المنطقة تتبادل الرياح الشمالية والرياح الجنوبية الهبوب على بلاد العرب ، فأما الجنوبية فتحمل ما تحمل من أمطار في الشتاء ، كما تحمل لفحات الحر في الصيف ، وأما الشمالية فإنها في الغالب تلطف الجو .

نبات بلاد العرب:

دلَّت الأبحاث العلمية التي قام بها علماء النبات في جهات متعددة من بلاد العرب ، على أن نباتات بلاد العرب تَمُتُّ بصلة إلى نباتات إفريقية أكثر من صلتها بنباتات آسيا الجنوبية .

تنبت في هذه البلاد أنواع مختلفة من التين والتمر الهندي والخرنوب؛ كما تكثر غابات العرعر في بلاد اليمن وعسير ومدين .

ويزدهر نخيل البلح ازدهاراً في كل مكان ، وينتج أنواعاً من أحسن أنواع البلح في العالم ، وتعتبر النخلة ملكة الأشجار العربية ، وقد ذكر كتَّاب العرب القدامى أكثر من ١٠٠ صنف من البلح ، وتنمو أشجار الأثل في كثير من المناطق الصحراوية ، كما تغرس في بعض الأحيان على شكل أسوار

حول المزارع لتمنع طغيان الرمال المتحركة من إتلاف الزرع ، وفي معظم الواحات تزرع الأعناب والخوخ والبرقوق والرمان والتين.

ويزرع البرتقال والسفرجل في المناطق المرتفعة ، والموز في بعض الوديان الصالحة نحو الجنوب.

ومن الحبوب تزرع أنواع عدة أهمها القمح والشعير والذرة والدخن ، وفي بعض أقاليم الحجاز يزرع البطيخ ، كما يزرع بكثرة في جهات عدة الفجل والخيار والبصل ، وتشتهر الطائف وغيرها من الجهات المرتفعة بزراعة الورد الذي يستخرج منه عطر الورد بكميات محدودة ، كما تزرع بعض الأزهار ذات الروائح الزكية كالياسمين لنفس الغرض.

ولا تزال شجرة البخور التي كانت أهم سلعة في الحياة التجارية الأولى لبلاد العرب الجنوبية ، تزرع على المرتفعات الموازية للساحل الجنوبي ، وخاصة في مهرة والشحر.

ومن النباتات الصحراوية التي ورد ذكرها في الشعر العربي: السمرة ، البان ، الطلح ، السدر ، الحناء ، السلم ، الصقال ، الغرار ، الأراك ، الحنظل ، الخزامى ، العناب ، الأقحوان ، النعمان ، الأسل ، الأثل.

يقول شاعر:

بلى إنَّ بالجزعِ الَّذي ينثّ الفضا ... إلـيَّ وإن لَـمْ ألقـه لَمُـدَاويـا

وقال شاعر:

فجـاءَ كخـوطِ البـانِ لا مُتَتَـابِـعٌ ... ولكـنْ بسيمـا ذِي وقـارٍ وميسـمِ

وقال شاعر:

تَمَتَّـعْ مِـنْ شَمِيـمِ عَـرَارِ نَجْـدٍ ... فَمَـا بَعْـدَ العَشِيـةِ مِـنْ عَـرَارِ

ويقول شاعر:

يُبَـارِيـنَ الأَعِنَّـةَ مُصْعِـداتٍ ... علـى أكتـافِهـا الأَسَـلُ الظِّمَـاءُ

ويقول تأبط شراً:

أَهُـزُّ بِـهِ فـي نَـدْوَةِ الحَـيِّ عِطْفَـهُ　　كَمَـا هَـزَّ عِطْفِـي بـالهِجَـانِ الأَوَارِكِ

وقال حسين بن مطير :

يُمَنِّيننـــا حتَّــى تَــرِفَّ قُلُــوبُنـــا　　رفيفَ الخُزَامى تَحْتَ طَلٍّ يَجُودُها

حيـوان بـلاد الـعـرب :

أشهر أنواع الحيوان البري : الأسد ، والفهد ، والنمر ، والضبع ، والثعلب ، والذئب ، وابن آوى ، والوعل ، واليربوع ، وبقر الوحش ، وحمار الوحش ، والخنزير ، والأرنب ، والغزلان ، والظباء .

ومـن الحيـوان المستـأنـس : الإبـل ، والخيـل ، والشـاة ، والمـاعـز ، والحميـر ، والبقـر ، والجـامـوس ، والبغـال ، والقـردة ، والنسـانيـس ، والكلاب .

وفي بلاد العرب من الطيور : النعام ، والقطا ، والحجل ، والكروان ، والغراب ، والبجع ، والرخم ، والهدهد ، والنسر ، والحدأة[١] .

* * *

(١) عصر ما قبل الإسلام ، محمد مبروك نافع .

الفصل الثاني
اللغة العربية، نشأتها، وتهذيبها، وخصائصها

اللغة العربية:

امتازت الجزيرة العربية على سعتها، وترامي أطرافها، وتشتت قبائلها بوحدة اللغة التي كانت أداة تفاهم والتقاء لجميع أبناء هذه الجزيرة حَضَرِهم وبَدْوِهم، القحطاني منهم والعدناني، وقد عرف العرب بعناية زائدة بلغتهم وحرصهم على الإفصاح وحسن البيان والتمسك الشديد بقيمها وموازينها، والرجوع إلى الفصحاء لتهذيب اللغة، وتنقيح البيان ما لا يوجد له مثيل في الأمم الأخرى، وكانت هذه الوحدة اللغوية التي امتازت بها هذه الجزيرة من أهم الأسباب لتيسير مهمة الدعوة الإسلامية، وسرعة انتشار الإسلام كما كان نزول القرآن فيها ضماناً لبقاء اللغة وخروجها من الصحراء لتغزو العالم كله، فكان القرآن وقاية لها، ومبعث خلودها.

نشأة اللغة العربية وتطوُّرها:

اللغة العربية هي إحدى اللغات الساميَّة الباقية التي نشأت في أقدم موطن للساميين وهو الحجاز ونجد وما إليها، وهي أقدم اللغات الحية التي تحتفظ بخصائصها الأولى، أما اللغات الأخرى فقد طرأ عليها تعديل وتحريف فقدت به خصائصها الأولى، إلا أن مراحل نشأتها الأولى قبل نضجها وتهذيبها غير معروفة؛ لأنَّ العلماء لم يجدوا آثاراً تلقي الضوء على حالتها

الأولى قبل نضجها وتهذيبها ، وأقدم ما وصل إلينا منها هو الأدب الجاهلي الذي يمثل عنفوان اللغة واكتمالها ، ولا بد من أنها تكون كلغات أخرى مرَّت بمراحل التطوُّر ، ويرى بعض المحققين أن اللغة العربية الفصحى هي اللغة التي كان يتكلم بها الساميون قبل انتقالهم إلى مناطق أخرى ، وهي اللغة الفصحى للساميين ، أما البابلية والكنعانية والآرامية فهي لهجات[١] .

كان المتكلمون بهذه اللغة في أقدم العصور منقسمين إلى قبائل مختلفة ، بعضها يعيش في البوادي وبعضها في الحواضر ، وكانت الأحوال والبيئات لكل قبيلة تختلف ، وكان لهذا الاختلاف في طبيعة الحياة تأثير على النطق ، فكثرت ثروة الكلمات للتعبير بمقتضى الحياة .

ولوجود عناصر الالتقاء بين مختلف القبائل وأفرادها ، أهمها الحروب والتجارة وانتقالها من مكان إلى مكان بحثاً عن موارد الحياة وحضور موسم الحج ، أتيحت لهذه القبائل فرص التبادل والاحتكاك اللغوي والثقافي .

أفصح العرب :

كانت الفترة التي سبقت الإسلام بحوالي مئة سنة فترة أنهكت الحروب والصراعات الداخلية فيها عدة قبائل كبرى في الجزيرة العربية ، وتعرضت هذه القبائل للتشرُّد والتشتُّت ، وظلت مكة وما جاورها من المناطق في نجوة من هذه الحروب ، وخاصة قريش التي تجنَّبت مثل هذه الصراعات ببعض الأحلاف ، وروح التزامل ، وما كانت تتمتع به من مكانة دينية واجتماعية وثقافية واقتصادية لرحلاتها إلى الخارج واتصالها بالقبائل المجاورة ، ولوجود أهم الأسواق العربية في أراضيها ، فكانت القبائل الأخرى تنظر إليها بعين الاحترام ، وتقلد لهجتها وتحاكيها ، فصارت لغة قريش لغة التفاهم بين القبائل ، ولغة الأدب والشعر والخطابة بغزارتها ورقتها وسعتها ، وكانت

---

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي» دمشق ٦ : ٥٢٩ ـ ٦٢٣ تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ .

للقبائل الأخرى لهجات وألفاظ مختلفة ، ولكنها كانت تحترز عن هذه الألفاظ الإقليمية حرصاً منها على تقليد لهجة قريش .

قال الفراء : كانت العرب تحضر المواسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات العرب ، فما استحسنوه في لغاتهم تكلّموا به ، فصاروا أفصح العرب ، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ .

قال ابن فارس في فقه اللغة :

«أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً ﷺ فجعل قريشاً قُطّان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم ، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم .

وكان هذا الالتقاء بالقبائل المختلفة فرصة سانحة لقريش لتخيير الألفاظ الطيبة وانتقائها ، وتنمية ثروتها اللغوية والأدبية .

وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيَّروا في كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائرهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب[١] .

الفصاحة في مضر ومن أشهرها كنانة ، ومن بطونها قريش ، ومن أفصح القبائل الذين هم مادة اللغة قيس وتميم وأسد ، وعليا هوازن[٢] وهذه القبائل

---

(١) الصاحبي .

(٢) وهم خمس قبائل منها : سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونضر بن معاوية ، وثقيف ، وأفصحها سعد بن بكر .

كلها كانت تسكن في بوادي نجد والحجاز ، وإليها كان يرحل الرواة ، ويقول ابن خلدون : كانت لغة قريش أفصح اللغات وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتها ، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وتميم ، أما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وغسان ، وعرب اليمن المجاورين للفرس والروم والحبشة فلم تكن لغاتهم تامة الملَكَة لمخالطتهم العجم[1] .

عوامل انتشار اللغة وتهذيبها :

كان لشيوع اللغة العربية وانتشارها عاملان أساسيان وهما الأسواق العربية وأيام العرب .

أشهر الحروب أو الأيام كما أطلق عليها مؤرخو العرب :

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي .

حروب الأوس والخزرج

يوم سمير :

سببه : أن رجلاً يقال له كعب بن العجلان من بني ذبيان نزل على مالك بن العجلان زعيم الخزرج محالفه ، وأقام معه ، فخرج كعب يوماً إلى السوق ، فرأى رجلاً من غطفان ومعه فرس وهو يقول : «ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب» فقال رجل : فلان الأوسي ، وقال غيره : فلان الخزرجي ، وقال ثالث : فلان اليهودي أفضل أهلها ، وقال رابع : مالك بن العجلان . فدفع الغطفاني الفرس إليه ، فقال كعب : ألم أقل لكم إن حليفي مالكاً أفضلكم ، فغضب لذلك رجل من الأوس يقال له سمير وشتمه وافترقا ، ثم حدث بعد ذلك أن كعباً قصد سوقاً لهم بقباء ، فقصده سمير وانتظر حتى خلت السوق فقتل كعباً وأخبر مالك بن العجلان بقتله ، فأرسل إلى آل سمير يطلب قالته ، فقالوا : لا ندري من قتله ، وترددت الرسل بينهم ، هو يطلب سميراً وهم ينكرون قتله ، ثم عرضوا عليه الدية فقبلها ، وكانت دية الحليف فيهم نصف دية النسيب ، فأبى مالك إلا أخذ دية كاملة ، ولج الأمر بينهم حتى آل إلى المحاربة ، فاجتمعوا واقتتلوا قتالاً شديداً وافترقوا ، ثم التقوا مرة أخرى واقتتلوا ، حتى حجز الليل بينهم ، وكان الظفر يومئذ للأوس ، ثم أرسلت الأوس تطلب أن يحكم بينهم المنذر بن حرام الخزرجي جد حسان بن ثابت الشاعر ، وأجابهم إلى ذلك ، وحكم المنذر : أن يعطوا كعباً حليف مالك دية الصريح ، ثم يعودوا إلى سنتهم القديمة ، وفرحوا بذلك وحملوا الدية ،

وافترقوا وقد تمكنت البغضاء والعداوة في نفوسهم .

يوم السرارة :

وسببها أن رجلاً من بني عمرو من الأوس ، قتله رجل من بني الحارث من الخزرج ، فعدا أهل القتيل على القاتل وقتلوه غيلة ، وعرف ذلك أهله ، فكانت حرب بين الفريقين شديدة ، حمل راية الخزرج فيها عبد الله بن سلول ، وراية الأوس حضير بن سماك ، وصبر القوم بعضهم لبعض أربعة أيام ، ثم انصرفت الأوس إلى دورها ، ففخرت الخزرج بذلك .

يوم حاطب :

توالت الحروب بعد يوم السرارة ، حتى إذا مرت مئة سنة من يوم سمير إذ بحرب تعرف بيوم حاطب وقعت بين الفريقين ، وسببها : أن حاطباً الأوسي ـ وكان شريفاً سيداً في قومه ـ أتاه ضيف من بني ثعلبة ، ثم غدا يوماً إلى سوق بني قينقاع فرآه يزيد الخزرجي ، فقال لرجل من اليهود : لك ردائي إن كسعت هذا الثعلبي ، فأخذ الرداء وكسعه ، فنادى الثعلبي : يا لحاطب كسع ضيفك وفضح ، وعرف حاطب بالأمر ، فجاء وضرب اليهودي بالسيف فقتله ، وعلم يزيد الخزرجي فأسرع خلف حاطب فلم يدركه ، فقتل رجلاً من أهله ، فقامت الحرب بين الأوس والخزرج ، وسعى بينهما جماعة من فزارة بالصلح ، فلم تفلح مساعيهم ، واستمرت الحرب بينهما سجالاً ، يوماً للأوس ويوماً للخزرج ، حتى انتهت بظفر الخزرج . وتجددت الحرب بعد ذلك ، وكان الفريقان يتصالحان على الديات ، وطال أمر الحرب حتى سئمت الأوس ، فصارت إلى قريش بمكة تطلب محالفتها ، فأجابت قريش طلب الحلف ، ثم تحللت منه ، فطلبت الأوس إلى بني قريظة وبني النضير الحلف على الخزرج ، فأجابوهم إلى ذلك ، ثم عادوا فنقضوا .

يوم بعاث :

وتجدد الحلف بين قريظة وبني النضير من جهة ، وبين الأوس من جهة أخرى ، وأشعلوها حرباً على الخزرج ، انضمت فيها إلى الأوس طوائف

أخرى ، من اليهود وغيرهم ، وانضم إلى الخزرج جهينة ، وتداعى الفريقان إلى القتال ، فكان بينهما يوم بعاث ، وهو ناحية من أعمال قريظة على طريق مكة من المدينة غرباً ، وكان على الأوس حضير بن سماك (والد أسيد بن حضير) وعلى الخزرج عمرو بن النعمان ، وكان حضير يحقد على الخزرج أشد الحقد ، فلما بدأ القتال دارت الدائرة على الأوس ، ففروا نحو نجد ، فعيرهم الخزرج ، فلما سمع حضير تعييرهم برك وطعن بسنان رمحه فخذه وصاح: والله لا أعود حتى أقتل ، فإن شئتم يا معشر الأوس أن تسلموني فافعلوا ، فعاد الأوس إلى القتال مستبسلين مستيئسين حتى هزموا الخزرج شر هزيمة ، وأخذوا يحرقون نخلهم ودورهم ، وإن كادوا ليهلكوهم لولا أن صاح صائح فيهم: يا قوم إن جوارهم خير من جوار الثعالب ، فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم وإنما سلبهم قريظة وبنو النضير ، وحملت الأوس زعيمها حضيراً مجروحاً فمات ، وكذلك مات عمرو بن النعمان رئيس الخزرج ، واستعادت اليهود بعد هذا مكانها بيثرب ، وأضحى الأوس والخزرج أجراء عند اليهود ، وأدركوا أنهم أخطؤوا في تطاحنهم ، وفكروا في عاقبة أمرهم ، وتطلعوا إلى إقامة ملك عليهم يجمع شملهم ، وحدث أن نفراً من الخزرج خرجوا إلى مكة في موسم الحج ، والتقوا برسول الله ﷺ ، فسألهم عن شأنهم ودعاهم إلى الله ، فعرفوا أنه النبي الذي كانت تواعدهم به اليهود ، فأجابوا دعوته وأسلموا.

وكانت وقعة بعاث هذه آخر الحروب بين الأوس والخزرج إلى أن جاء الإسلام ، وأجمع الفريقان أمرهم على نصرته ، وهاجر إليها النبي ﷺ من مكة ، وآخى بينهم.

* * *

حروب العدنانيين

حرب البسوس:

كان كليب بن ربيعة متزوجاً من بكرية، تسمى جليلة بنت مرة، أخت جساس بن مرة الذي يسمى الحامي الجار، وكان لجساس خالة تسمى البسوس، ونزل بالبسوس رجل يسمى سعداً الجرمي، له ناقة اسمها سراب، وكانت ترعى مع نوق جساس، وحدث أن كليباً خرج يوماً يتعهد الإبل، وكانت إبله وإبل جساس مختلطة، فنظر إلى سراب فأنكرها، فقال جساس - وهو معه -: هذه ناقة جارنا الجرمي، فقال كليب: لا نعد هذه الناقة إلى هذا الحي، فقال جساس: لا ترعى إبلي إلا وهذه معها، فقال كليب: لئن عادت لأضعن سهمي في ضرعها، فقال جساس: لئن وضعت سهمك في ضرعها، لأضعن سنان رمحي في لبتك، ثم تفرقا.

وقال كليب لامرأته: أترين في العرب رجلاً مانعاً مني جاره، فقالت: لا إلا أخي جسَّاساً.

ثم إن كليباً خرج إلى الحمى وجعل يتصفَّح الإبل، فرأى ناقة الجرمي، فرمى ضرعها فولت - ولها رغاء - حتى بركت بفناء صاحبها، فلما رأى ما بها صرخ: يا للذل، وسمعت البسوس صراخ جارها، فخرجت إليه، فلما رأت ما بناقته وضعت يدها على رأسها وصاحت، فسمعها جسَّاس، فخرج إليها وقال لها: اسكتي إني سأقتل غلالاً أفحل إبل كليب.

وكان لكليب عين يسمع ما يقولون، فقال: لقد اقتصر من يمينه على

غلال ، ولم يزل جسَّاس يطلب غرة كليب ، حتى إذا خرج يوماً ركب جساس فرسه وأخذ رمحه وأدرك كليباً فوقف كليب ، فقال له جساس: يا كليب الرمح وراءك ، فقال: إن كنت صادقاً أقبل إلي من أمامي ، ولم يلتفت إليه ، فطعنه فأرداه عن فرسه ، وطلب كليب شربة ماء فلم يغثه ، ولكنه أمر رجلاً كان معه ، فجعل عليه أحجاراً لئلا تأكله السباع ، وانصرف جسَّاس حتى أتى أباه مرة، وقال له: طعنت طعنة يجتمع بنو وائل غداً لها رقصاً ، لقد قتلت كليباً ، فجعل مرة يتهيأ للحرب مع قومه ، فشحذوا السيوف وقوّموا الرماح ، ولما علم قوم كليب بمقتله دفنوه وقد شقوا الجيوب وخمشوا الخدود وخرجت الأبكار وذوات الخدور والعواتك وقمن للمأتم، وقلن لأخت كليب: أخرجي جليلة امرأة كليب عنا فإنها أخت قاتلنا ، فخرجت تجر أذيالها وأتت مرة.

وكان لكليب أخ اسمه مهلهل ـ وهو الفارس الشاعر المشهور ـ وكان وقت مقتل كليب يشرب مع همام بن مرة أخي جسَّاس ، فلما أفاق مهلهل وعرف بمقتل أخيه ، جز شعره وقصَّر ثوبه ، وهجر النساء وترك الغزل ، وحرم القمار والشراب ، وجمع إليه قومه ، وأرسل رجالاً منهم إلى مرة والد جساس ، وهو في نادي قومه ، فقالوا له: إنكم أتيتم عظيماً بقتلكم كليباً بناقة ، وقطعتم الرحم ، وانتهكتم الحرمة ، وإنا نعرض عليكم خلالاً أربعاً لكم فيها مخرج ، ولنا فيها مقنع ، إما أن تحيي كليباً ، أو تدفع إلينا قاتله جساساً نقتله به ، أو أخاه هماماً فإنه كفؤ له ، أو تمكننا من نفسك ، فإن فيك وفاء لدمه ، فقال لهم مرة: أما إحيائي كليباً فلست قادراً عليه ، وأما جساس فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه ، ولا أدري أي بلاد قصد ، وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومهم فلن يسلموه بجريرة غيره.

وأما أنا فما هو إلا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل ، فما أتعجل الموت ، ولكن لكم عندي خصلتان: أما إحداهما ، فهؤلاء أبنائي الباقون

فخذوا أيهم شئتم بصاحبكم ، وأما الأخرى فإني أدفع إليكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر.

فغضب القوم وقالوا: لقد أسأت ، تبذل لنا صغار ولدك وتسومنا اللبن في دم كليب.

ثم نشبت الحرب بينهم ودامت أربعين سنة ، وقال مهلهل عدة قصائد يرثي كليباً فيها ويطلب ثأره.

حرب داحس والغبراء:

السبب الذي قامت هذه الحرب من أجله بين عبس وذبيان يرجع إلى سوء تصرف قام به الذبيانيون في حفلة سباق أقيمت بين خيول عبس وخيول ذبيان ، وداحس اسم حصان كان يملكه زعيم من عبس ، والغبراء اسم لفرس كان يملكها شيخ ذبيان ، وخلاصة النزاع أن صاحبي الحصان والفرس اتفقا على أن يجرياهما ، وجعلا الرهان مئة ناقة ، ويكون منتهى الغاية مئة غلوة ، والمضمار أربعين يوماً ، ثم أرسلاهما إلى رأس الميدان وكان في موضع الغاية شعاب كثيرة ، فأكمن صاحب الغبراء فتياناً اعترضوا داحس الذي كان سابقاً ، وردوه عن الغاية ، حتى برزت عليه الغبراء ، وقد قام ذلك النزاع في النصف الثاني من القرن السادس ، بعد أن عقد الصلح في حرب البسوس بفترة قصيرة ، وظل الفريقان تخمد بينهما الحرب ، وتقوم مدة طويلة استمرت إلى ما بعد ظهور الإسلام ، وفي هذه الحرب اشتهر عنترة بن شداد العبسي بجولاته الصادقة ، وقد عاش عنترة فيما بعد بين سنتي ٥٢٥ ـ ٦١٥ تقريباً ، وهو يعتبر من أعظم أبطال العرب وأشهر شعراء العصر الجاهلي ، ولا يخفى أن قبيلتي عبس وذبيان ، كانتا تسكنان في بلاد العرب ، وكانت تجمع بينهما صلات القربة ، إذ كانا ينتميان ـ كما تقول الرواية العربية ـ إلى الجد الأكبر غطفان.

الأسـواق:

كانت للعرب أسواق عامة للتجارة والأدب والتسلية لا يخلو منها شهر من

شهور السنة ، يجتمعون في دومة الجندل أول ربيع الأول ، ثم كانوا ينتقلون إلى سوق هجر ، وكان أكبر أسواقهم سوق عكاظ ، كانوا يعمرونها من أوائل ذي القعدة ، ثم كانوا يغادرونها إلى ذي المجنة قرب مكة ، فيقضون بها ذي القعدة، وفي أول ذي الحجة كانوا ينتقلون إلى ذي المجاز بجانب عرفة ، ومن ذي المجاز كانوا ينتقلون إلى عرفة ، وكانت الأسواق الثلاثة الأخيرة (عكاظ ، ذو المجنة ، ذو المجاز) أهم أسواق العرب؛ لأنها كانت تقام في موسم الحج ، كانوا يتفاخرون فيها بأنسابهم وأيامهم وأحسابهم ، ويتغنون بالحب والجمال ، ويعقدون العهود والمعاهدات ، وكانت مواضع أمن ، وكان جميع ما يقال فيها بلغة قريش لأنها كانت تقام في مكة وفي مناطق متصلة بها ، وقد قصد الرسول ﷺ الأسواق الثلاثة الأخيرة يدعو إلى دين الله(١).

تهذيب اللغة العربية وتطورها:

غلبت اللغة العربية نتيجة لاحتكاكها باللغات السامية الأخرى على سائر اللغات في المنطقة ، وتطورت ، ثم غلبت لهجة قريش على اللهجات العربية الأخرى نتيجة للعناصر التي بيَّناها ، فلما صارت لغة القرآن والإسلام انتشرت في العالم بانتشار الإسلام ، فصارت إحدى اللغات العالمية الكبرى الثلاث ، وحلت محل اللغات التي كانت تستعمل في عدة دول قبل الإسلام ، وصارت اللغة القومية ، من المحيط الهندي إلى المغرب العربي.

إنها كانت لغة محصورة في جزيرة العرب وما يليها من مشارف الشام والعراق وتدمر وفي بادية الجزيرة (بين النهرين) وفي جزيرة سيناء ، حيث كانت تقيم بعض القبائل العربية ، ولكنها اليوم لغة منتشرة في غربي البحر المتوسط وجنوبِيِّه إلى الشام والعراق وما بين النهرين بالإضافة إلى مهدها جزيرة العرب ، وفي مصر وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش وعدد من بلاد إفريقية الشرقية ووسطها ، وقد تعرَّبت هذه البلاد كلها بفضل العرب

---

(١) المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي.

الذين حملوا الإسلام إليها ، ولسائر هذه الدول مساهمة غنية في إثراء الأدب العربي ، كما تفهم اللغة العربية وتدرس في بلاد المسلمين الأخرى كالهند ، وفارس ، وأفغانستان ، وباكستان ، وتركستان ، والصين ، وسائر البلدان التي دخلها الإسلام ، وألف العلماء المسلمون فيها باللغة العربية ما تعتز به المكتبة العربية نظماً ونثراً وعلماً وأدباً .

ما يميز اللغة العربية عن غيرها من اللغات :

مرت اللغة العربية مثل سائر اللغات الحية بتقلبات ، ونشأت في طقوس وأجواء مختلفة متنوعة ، من الصحراء والجبال ومناطق تكثر فيها الأمطار ، وفيها الخضرة والماء ، ومناطق تقل فيها ، وكان الناطقون بها يمتازون بصدق التعبير ، ودقة المشاهدة ، ويتميزون عن غيرهم بعواطف وقَّادة ، وشعور مرهف ، ودراسة للحياة ، ما جعل اللغة العربية تزخر بتعبيرات ذات صلة وثيقة بواقع الحياة وأحاسيس البشر ، قلما تزخر بها لغة أخرى ، فاحتوت اللغة العربية على ثروة غنية من التعبيرات الدقيقة ، وامتازت بألفاظ تؤدي فروع المعاني أو جزئياتها ، فمما تمتاز به أنها تضم أسماء وصفات كثيرة لشيء واحد ، باعتبار الأشكال والحالات والمقادير والأحجام ، ففيها اسم خاص لكل ساعة من ساعات الليل والنهار ، واسم خاص للطفل باعتبار الشهور والأيام ومراحل العمر واللون ، وأسماء الليالي والقمر والشعر ، والنظر والجلوس والقيام ، وحالة القيام والنوم واليقظة ، وأسماء مختلفة للرمل وكثبانه ، والأرض باعتبار نوع التربة ولونها ولون الحصى ، وكذلك الخيام وأصوات الحيوانات والمشي وسرعة السير[1] وهي تزخر بألفاظ تعبِّر عن المعاني الذهنية والحسِّية وأقدارها .

نذكر بعض الأمثلة لفروع المعاني في اللغة العربية :

---

(١) راجع فقه اللغة للثعالبي للتفصيل .

الجلوس :

الربوض للغنم ، البروك للإبل ، الجثوم للطير ، الجلوس للإنسان .

المعدة :

الكرش للدابة ، المعدة للإنسان ، والحوصلة للطائر .

الامتلاء :

فلك مشحون ، كأس دهاق ، واد زاخر ، نهر طافح ، عين ثرة ، طرف مغرورق ، جفن مترع ، مجلس غاص بأهله ، جرح مقصع (ممتلىء بالدم) .

الكشف :

حسر عن رأسه ، أسفر عن وجهه ، كشر عن أنيابه ، شمر عن ساقه ، حفيت رجله .

ومما تتميز به اللغة العربية عن غيرها من اللغات الإعراب ، وهو تغير أواخر الكلم بتغير العوامل ، ودقة التعبير والإيجاز ، والمترادفات والأضداد وحكاية الأصوات والأمثال والسجع .

فاللغة العربية هي أغنى اللغات المعبِّرة عن المعاني المجرَّدة والعواطف ، وأبعدها عن الخطأ في المنطق بسبب الإعراب ، والإعجام ، وأمثلة ذلك متوفرة في كتب فقه اللغة .

عناصر نمو اللغة العربية واتساعها :

من أهم عناصر نمو اللغة العربية واتساعها : الوضع ، والاشتقاق ، والنحت ، والتعريب .

١ ـ الوضع أو الارتجال :

هو وضع ألفاظ جديدة للدلالة على المعاني الطارئة .

٢ ـ الاشتقاق :

وهو أخذ كلمة من كلمة أخرى يتناسب المعنى بينهما ، ويتقارب اللفظ

بتغير بسيط ، وينقسم إلى صغير وكبير وأكبر .

أما الصغير :

فهو ما اتحدت فيه الكلمتان حروفاً وترتيباً ، وقد وضعت له قواعد وهو موضوع الصرف .

الكبير :

ويقال له القلب ، وهو أن يكون بين لفظين تناسب في اللفظ والمعنى دون الترتيب كقولهم جبذ وجذب .

الأكبر :

ويقال له الإبدال ، وهو ما يتناسب في المعنى والمخرج مثلاً : نعق نهق ، آن وحان .

٣ ـ النحت :

وهو كلمة مأخوذة من كلمتين أو جملة للاختصار ، بأخذ حروف من كل كلمة وإطلاقها على معنى خاص ، مثلاً حوقل .

٤ ـ التعريب :

انتقلت إلى اللغة ألفاظ كثيرة من اللغات الأخرى نتيجة للتعامل مع الناطقين بتلك اللغات والذين كانوا أرقى حضارة ، وأصبحت هذه الألفاظ بعد فترة جزءاً من اللغة العربية وعمت وشاعت ، وقد استعملت عدة كلمات من هذا القبيل في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، واستعملها فصحاء العرب المتقدمون ، ويطلق على هذه الكلمات اسم «المعرب» واصطلح المحدثون من الباحثين على أن العرب الفصحاء هم عرب البدو من جزيرة العرب إلى أواسط القرن الرابع الهجري ، وعرب الأمصار إلى نهاية القرن الثاني الهجري ، وهذه العصور هي عصور الاحتجاج ، أما ما استعمله

المولدون من ألفاظ أعجمية لم يعرفها فصحاء العرب؛ فيطلق عليها اسم الأعجمي المولد[1].

وقد أجرى العرب على الكلمات التي اقتبسوها من اللغات الأخرى لرعاية صوتية اللغة العربية ومزاجها ، تعديلاً في أصواتها وأوزانها وطريقة نطقها ، وابتعدت هذه الكلمات في كثير من الحالات عن صورتها الأولى ، كما أن كثيراً من هذه الكلمات تغير مدلولها بعد انتقالها إلى اللغة العربية ، فاندمجت إلى الجو العربي ، وانقطعت عن مصدرها ، وقد ألف العلماء في هذا الموضوع كتباً مستقلة لتمييز الكلمات الدخيلة[2] ، يبدو من هذه البحوث أن الكلمات المعربة التي استعملها الفصحاء من العرب لا تعدو نحو ألف كلمة ، على أنه ليس هناك دليل على أن العرب أخذوا هذه الألفاظ من غيرهم.

ومن أشهر المفردات التي يقال أنها انتقلت إلى العربية في عصور الاحتجاج: أسماء المعادن ، والأواني ، والأحجار الكريمة ، وألوان الخبز والرياحين ، والمنتجات الزراعية ، مثل: الطست ، والإبريق ، والقصعة ، والديباج ، والسندس ، والإستبرق ، والبلور ، والزنجبيل ، والمسك ، والعنبر ، والكافور وأمثالها.

قال الجوهري في الصحاح: تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه العرب على منهجها ، وقال أبو حيان: الأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم تركوه غير مغير ، كخراسان.

٢ ـ قسم غيرته العرب ، وألحقته بكلامها فحكم أبنيته في اعتبار الأصل والزائد والوزن حكم أبنية الأسماء العربية الوضع كدرهم.

---

(١) فقه اللغة: علي عبد الواحد وافي ص: ١٩٣.

(٢) حمزة فتح الله: في المعرب من القرآن الكريم ، شفاء العليل فيما ورد في كلام العرب من الدخيل ، لشهاب الدين الخفاجي ، والمعرب من الكلام الأعجمي للجواليقي.

٣ ـ قسم غيرته العرب ولم تلحقه بأبنية كلامها فلا يعتبر فيها ما يعتبر في القسم الأول كآجر.

اختلاف لغات العرب:

كان لبعد القبائل عن الحجاز مركز اللغة العربية، وتشتتهم في مناطق صحراوية شاسعة، وعدم كونهم مرتبطين بعضهم ببعض، ولعدم انتشار الكتابة تأثير في اختلاف الألفاظ والكلمات في تأدية المعنى الواحد، وكان موسم الحج والأسواق كعكاظ تهيىء فرصاً للاختلاط، وتهذيب اللغة، وكان لقريش دور في التهذيب في آخر العهود، إلاَّ أن بعض الميول اللغوية واللسانية ظلت باقية، وخاصة في الشباب والشيوخ الذين لم تسنح لهم فرص اللقاء بقريش.

وكان اختلاف اللغات من عدة وجوه، اختلاف الدلالة للفظ الواحد، كما روي أن أبا هريرة رضي الله عنه لما قدم من دوس عام خيبر، لقي النبي ﷺ، وقد وقعت من يده السكين، فقال له: ناولني السكين، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم ما المراد بهذا اللفظ، فكرر له القول ثانية وثالثة، وهو يفعل كذلك، ثم قال: المدية تريدها؟ وأشار إليها، فقيل له: نعم، فقال: أو تسمى عندكم سكيناً؟ ثم قال: والله ما سمعتها إلاَّ يومئذ، وبذلك كثرت الألفاظ للمعنى الواحد، وعدت مترادفات في عصر التدوين، ومثل هذا الاختلاف طبيعي يوجد في كل لغة، ومن أجل هذا الاختلاف في الاستعمالات اللفظية، توفرت الألفاظ لتأدية المعنى الواحد في اللغة العربية، فقد جمعت هذه الألفاظ من البوادي، ودونت في المعاجم، فصارت جزءاً من اللغة العربية، وعدت مترادفات.

ومن اختلاف النطق:

إبدال الهمزة عيناً في أول الكلمة كعسلم في أسلم لدى تميم.

إبدال الجيم عيناً كعرب في جرب لدى هذيل.

إبدال العين نوناً كأنطى في أعطى لدى بني سعد ، وكان بنو تميم ينطقون «ك» ولا تنطق به القبائل الأخرى.

كانت قريش وأسد تفتح أول حرف المضارع ، أما القبائل الأخرى فكانت تكسره.

وكانت ربيعة ومضر تضيف الشين في خطاب المؤنث كعليكش بدل عليك.

الاختلاف في الهمزة والتليين نحو مستهزئون ومستهزون.

الاختلاف في التقديم والتأخير نحو صاعقة ، وصاقعة.

الاختلاف في الحذف والإثبات نحو: استحييت استحيت ، وصدرت أصدرت.

الاختلاف في صورة الجمع نحو أسرى وأسارى.

اختلاف التضاد كقول حمير للقائم: ثب ، أي: اقعد.

وفي الحديث أن عامر بن الطفيل قدم على رسول الله ﷺ فوثّبه وسادة ، أي افترشه إياها ، والوِثاب: الفِراش بلغة حمير[1].

كانت أفصح القبائل الذين هم مادة اللغة ، قيس وتميم وأسد والعجز من هوازن ، وهم عليا هوازن وهم خمس قبائل ، سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف ، وأفصح هذه القبائل كما قال أبو عبيدة: سعد بن بكر ، وقال أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم ، ولهذا كان لا يكتب في المصاحف برأي عمر وعثمان إلا كاتب من ثقيف ، وتلك القبائل كانت تسكن في بوادي نجد والحجاز وتهامة ، وبقيت معادن الفصاحة زمناً بعد الإسلام وإليها كان يرحل الرواة.

* * *

(١) فقه اللغة لابن فارس.

الفصل الثالث
الأدب ، تعريفه ، وأقسامه ، وصلته بالعلم والدين

تعريف الأدب:

الأدب: هو الكلام المتضمن للأخيلة الدقيقة ، والمعاني الرقيقة ، أو الكلام الذي يؤثر على النفوس ، ويثير العواطف ، ويهذب النفس ، ويرقق الحس والخيال ، ويثقف اللسان.

يتناول الأديب في كلامه إما تجارب حياته وأحاسيس نفسه ، ويعرضها بطريق يشخِّصها ويشرك في إدراكها غيره ، أو يصور تجارب حياة غيره وأحاسيسه بطريق تصبح صورة للحياة وتعبيراً صادقاً للأحاسيس.

لا يقتصر الأدب على رقي العقل ولا سمو الفكر والعلم في إنتاجه ، وإنما مصدره الوجدان ، والشعور ، والقدرة على التعبير عنه ، فلا يخلو دور من أدوار الحياة لأي أمة من الأمم من الإنتاج الأدبي.

الأدب أكثر ظهوراً في الشعر:

الأدب في الأمم البدائية وغير المتعلمة يظهر في الشعر ، لأنه أيسر للحفظ والرواية ، أما النثر الفني فلا يظهر إلا بعد نشأة الكتابة ، فيقتصر الإنتاج الأدبي في الأمم التي لا تعرف الكتابة على الشعر ، ولذلك قصر المؤرخون القدامى تعبير الأدب على الشعر ، والواقع أن صلة الإنسان بالشعر

أقدم من صلته بالنثر الفني وأكثره ، فكلما جاش صدره بالعواطف لجأ إلى الشعر ، ولذلك لا يفقد الشعر أهميته مهما ارتقى الإنسان في العلم والتفكير لأنه حديث القلب ، وفيض الخاطر.

فالأدب إذاً هو التعبير الشعوري عن طريق اللفظ ، والكلام الذي يتضمن الأحاسيس والمشاعر ، ووصف الأحزان ، والأفراح ، والأحلام ، والأماني ، أو تعبير مؤثر عن واقع الحياة بطريق فيه تصوير للحياة ، وتشخيص للمعاني المجردة سواء يتعلق ذلك بحياة المنتج ، أم كان يتصل بحياة الآخرين من بني الإنسان ، إنه كلام يحسن سماعه ويؤثر في القلب ، ويتغير الأدب ويتطور بتطوُّر الحياة ونمطها ، ويتخذ ألواناً ومناهج ، كما يختلف الأدب باختلاف طبائع المنتجين ، ويصطبغ بنفسية الأديب كاليأس والفرح والتشاؤم والتفاؤل ، والسلبية والانفعال ، والتمسك بالقديم ، أو حب الجديد ، وتظهر هذه المعاني في الأدب ، وإن هذا الاختلاف في التجاوب والانفعال كان سبباً مباشراً لاختلاف الأساليب والمناهج التي أحدثت مذاهب أدبية ، ويختلف الأدب عن الفن ، فالأول يعتمد الألفاظ للتعبير عن المعاني ، والثاني يعتمد غالباً على حركات ، وأصوات ، ورسوم غير الألفاظ.

الأدب والعلم:

ويختلف الأدب عن العلم لأن العلم يعتمد على التجارب والواقع أكثر مما يعتمد على الخيال والمشاهدة والوجدان ، والعلم المجرد يتغير وتبلى جدته؛ لأن كل تجربة ودراسة للظواهر تغير التجربة السابقة ، أما الأدب فيحتفظ بجدته وجماله مدة أطول لأنه يقوم على العاطفة والشعور.

تطور كلمة الأدب ومعناها:

أصل الأدب الدعاء ، ومنه قيل للوليمة مأدبة ، وهو الطعام الذي يدعى إليه الناس ، والأدب حسن التناول للأمور والتصرف في الحياة ، يقال أدب فلان إذا ظرف وكان ذا أدب ، وقد كانت كلمة الأدب مقصورة على حسن

الشيم والأخلاق والمكارم والتأنق في الكلام والحياة ، ثم توسع استعمالها فاستعملت للكلام الجيد المهذب.

قال رسول الله ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» ، وجاء في المثل «نعم المؤدب الدهر» ، وشرح بعض الأدباء كلمة الأدب بالسليقة والتناسب برعاية اللفظ والمسمى ، ورعاية التناسب بين الألفاظ ، ورعاية أقدار الناس واقتضاء الحال ، وأكدوا على أن يشتمل الكلام على المحامد ، وحسن الأخلاق لأنها مادة الأدب ، فإن كان الأدب هذا شأنه فإنه كلام يهذب النفس ويرقق الحس ويثقف اللسان ، وقال شاعر:

أُكَنيهِ حينَ أُنَادِيه لا أُلَقِّبُهُ كَذَاكَ أُدِّبْتُ إنَّ السَّوءَةَ اللَّقَبا

أُطلق هذا اللفظ على الكلام والآثار التي تؤدب اللسان وتحسن خلق الإنسان ، فأفضل الآداب ما يولد ملكة التمييز بين الحسن والقبيح من الكلام ومن العمل ، فأطلقت على المربين في العصر الإسلامي كلمة المؤدبين ، ثم توسع استعمالها لأن مادة التعليم في ذلك العصر كانت تقتصر على الرواية بالخبر والنسب والشعر واللغة ونحوها فأطلقت على كل ذلك ، قال ابن خلدون: «إنما المقصود عنه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومنهاجهم».

لم يشع استعمال كلمة الأدب بهذا المعنى إلا في القرن الثاني ، وقبل ذلك كان الناس يسمون ما يقرب من ذلك بعلم العرب ، ثم أطلقت كلمة الأدباء على المؤدبين بعد أن شاعت كلمة الأدب للعلوم العربية.

وفي القرن الرابع استعملت كلمة الأدباء على الشعراء والكتاب ، وبدأ الناس يميزون بين علماء وأدباء ، وقد كان رجال القرن الثالث جامعين بين العلوم العربية وآدابها كالمبرد ، والجاحظ ، وثعلب ، وابن قتيبة.

علوم الأدب:

علوم الأدب ثمانية: النحو، واللغة، والتصريف، والعروض، والقوافي، وصنعة الشعر ، وأخبار العرب وأنسابهم ، وعرَّف الزمخشري علوم الأدب

بأنها علوم يحترز بها من الخلل في كلام العرب لفظاً وكتابة ، وهي اللغة والصرف والاشتقاق ، والنحو ، والمعاني والبيان والبديع ، والعروض والقوافي .

ومنها فروع وهي الخط وقرض الشعر والإنشاء والمحاضرات ومنه التواريخ .

أما كتب الأدب التي هي من شروط الأدب فكثيرة ، وأصولها كما قال ابن خلدون أربعة دواوين وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة ؛ وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفرع لها .

ومن الكتب المشهورة الأخرى العقد الفريد لابن عبد ربه ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، والأمالي لابن الشجري ، والتذكرة لصلاح الدين الصفدي ، وخزانة الأدب للبغدادي ، ويتيمة الدهر للثعالبي ، وإصلاح المنطق لابن السكيت ، وزهر الآداب للحصري ، والمثل السائر لأبي هلال العسكري .

الأدب والدين :

يعتمد الدين على الأحاسيس القلبية والشعور النبيل والخضوع أمام الخالق والتذلل له ، والولاء له كل الولاء ، ويُبرِز في الكون مواضع الجمال والقبح ، والقوة والضعف ، ويوجد في الإنسان ملكة التمييز بين الخير والشر ، ويقوي العاطفة وقوة التخييل ، وهما عنصران هامان لوجود الأدب ؛ لأن الشعور بالخوف ، والحياء ، والولاء ، يشغل القلب أكثر من أي شعور آخر ، وتتوفر هذه المشاعر بالعلاقة بالدين ، لأن مجال الدين يشمل الإنسان والحياة ، والكون وخالق الكون .

فعلاقة الأدب بالدين علاقة أقوى من علاقته بأي موضوع آخر ، ولذلك نرى أن بداية الأدب مرتبطة بالدين ، مهما كان نوع ظهوره ، سواء ظهر في الترانيم والأناشيد في حمد الخالق ، أو التعبير عن خضوع العبد لربه ،

وخشوعه أمامه ، والتذلل له ، ثم تطور فبدأ يصور الإنسان إزاء المحيط الذي يعيش فيه ، ثم ظهرت أناشيد قومية من فخر ، وحماسة ، ومدح ، وتعليم ، وتربية ، ثم تطور إلى التسلية والاستمتاع والتغني بسعادة الحياة وشقائها ، وعندما يفسد ذوق الإنسان ، ويعاني من الفراغ ، ويقهره حب الذات وجانب اللذة في الحياة ، يعم أدب التسلية والمجون ، ويتوفر هذا القسم عادة في عهد الانحطاط الخلقي .

فالأدب لقوته وتأثيره وسرعة انتشاره وصلاحيته لتحريك القوى وتهييجها سلاح قوي ، وقد يصبح سلاحاً فتاكاً يقف عليه مصير الشعب ، وكلما انفلت زمامه أو أرخى حبله أصبح أداة تضليل وتمويه وتشتيت ، وتدمير وفساد ، بإثارة الإحن والأحقاد ، والعصبيات والغرائز البهيمية ، ويصبح سلعة رخيصة تباع وتشترى .

وأمثلة هذا النوع من الأدب كثيرة في كل لغة ، ولا يخلو منه التاريخ العربي القديم والتاريخ المعاصر .

يدعو الإسلام إلى أن يقتصر الأدب على القيام بواجبه ، ولا يطلق زمامه ، ولا يرسل إرسالاً مطلقاً فيعبث بالقيم ، ويقوض كيان المجتمع ، ويبث الانحلال ، ويخل بالأمن ، ويقف حائلاً في طريق مسؤولية نظام واع يحرص على سلامة العقيدة ، وسلامة الحياة من عبث العابثين .

عناصر الأدب :

يعتمد الأدب في الظهور على أربعة عناصر : العاطفة ، والخيال ، والفكرة ، والصور اللفظية .

أقسام الأدب :

ينقسم الأدب باعتبار الصورة اللفظية إلى النظم والنثر .

النظم :

هو كلام مقيد بالوزن والقافية وتتوفر فيه العاطفة والوجدان .

النـثـر :

هو كلام لا يتقيد بهما ، وهو مجال عام للمتكلم ، وهو أقرب إلى العقل منه إلى العاطفة .

مجال الإنتاج الأدبي :

يقصر الأديب عمله على ما أثر من أقوال ، وحِكَم ، فيتناول ما أنتجه الآخرون في معالجة قضايا الحياة من سعادة وشقاء ، وتجارب الحياة ، أو مشاعر وأفكار ، ويبحثها في أعماله في النقد والتقريظ والشرح ، ويعد هذا الصنف من الأدب أدباً توصيفياً ، والأديب يدرس الحياة دراسة مباشرة ويخيلها لغيره ويفسرها ، ويدرس العواطف الإنسانية ويصوِّرها ، أو ينقل ما يختلج في قلبه من أفكار وأخيلة ، ويصف مشاهد الطبيعة ، وهذا العمل الأدبي الذي يقوم به الأديب والإنتاج الأدبي المباشر ، هو الأدب الإنشائي .

النـقـد :

هو معرفة وتفسير مواضع الجمال والقبح في الكلام منثوراً كان أو منظوماً ، واستكشاف مواضع القوة والجمال ، وتقييم الإنتاج الأدبي ، وتحليله ، وهو إما أن يكون على أساس الذوق المجرد ، أو على أساس الموازين المقررة لتقدير الكلام ، أما النقد على أساس الذوق ، فيعرف بالنقد العملي ، وهو قديم قدم الإنتاج الأدبي ، فقد كان يوجد هذا النقد في العصر الجاهلي ، والنقد العلمي متأخر ، ويرجع إلى القرن الثالث .

وكلمة النقد لم تأخذ معناها الاصطلاحي إلا في العصر العباسي ، مثل كلمة الأدب التي بدأ استعمالها في المعنى المراد اليوم في العصر العباسي ، أما قبل ذلك فكان النقد يستخدم بمعنى الذم والاستحسان ، وكان الصيارفة يستخدمونه في تمييز الصحيح من الزائف في الدراهم والدنانير ومنهم استعاره الباحثون في النصوص .

التاريخ :

التاريخ يتناول كل الآثار العقلية والشعورية ، ويستعقب أدوار التاريخ ، ويبحث العوامل الاجتماعية والسياسية والعقلية ، والعلوم والفنون والإنتاج الأدبي والمؤثرات الأدبية ، ويوفق بين وقائع التاريخ ويعلل الأحداث ، بأسلوب سهل للسرد والحكاية .

البلاغة :

يتناول علمُ البلاغة اللفظ والمعنى مثلما يتناوله النقد ، والفرق بينها وبين النقد دقيق ، فالنقد يقرر القواعد النظرية ويطبق بين هذه القواعد للتعبير وبين العواطف والمشاعر ، أما البلاغة فهي تعنى بالشكل وصورة الكلام ، وتبيين ما فيه من تشبيهات واستعارات ، وبديع وجناس ، وهي تحسب أن المعاني حاصلة في ذهن السامع ، فتعالج نظم الكلام وتأليفه وتركيب الجمل .

❊ ❊ ❊

تاريخ الأدب

هو علم يبحث عن أحوال اللغة ، نثرها ونظمها وأساليب الكتاب في العصور المختلفة منذ نشأة اللغة ، وتتبع مراحل تطورها ، والأسباب التي كانت وراء تغير الأساليب ، ويبحث العلوم الأدبية والمعارف التي ساعدت على تكوين الأساليب وطرق الكتابة ، والذوق الشعري ، وهو سابق للنقد الأدبي العلمي الفني ، ومتأخر عن النقد العملي الذي يقوم على أساس الذوق والسليقة اللغوية .

ومن فوائده دراسة أسباب ارتقاء اللغة الدينية والاجتماعية والسياسية ، وعلى هذه الدراسة يقف ارتقاء أدب اللغة، وهي توجهه وتجنبه من الانحطاط والانقطاع عن مصدره ومعينه .

أدب اللغة العربية

اللغة العربية هي أغنى لغات العالم وأرقاها في النظم والنثر ، وأدبها أدب حي ، ومرآة صادقة لمن يتكلم بها ، وهو صورة للحياة العربية في مختلف أدوارها ومراحلها ، سواء في عصر ما قبل الإسلام أو ما بعد الإسلام وفي عصور الانحطاط ، والنهضة ، وهو يسير مع الحياة ، وهو صلة وثيقة مرتبطة بَها بحيث إن كل تحول اجتماعي وسياسي وانقلاب فكري أثر على أساليب الأدب ، ولذلك قسم الأدباء تاريخ الأدب العربي إلى العصور الآتية :

العصر الأول:

العصر الجاهلي: وهو عصر ما قبل الإسلام وينتهي بسطوع شمس الإسلام في عام ٦٢١ م ومدته حوالي مئة وخمسين سنة.

العصر الثاني:

العصر الإسلامي: ويشتمل عهد بني أمية، ويبدأ بظهور الإسلام وينتهي بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ.

العصر الثالث:

العصر العباسي: يبتدىء بسقوط دولة بني أمية وينتهي بسقوط بغداد بأيدي التتار ٦٥٦ هـ ويشمل حكم البويهيين والحمدانيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والأندلسيين.

العصر الرابع:

عصر المغول والأتراك: يشمل عهد المماليك والغزنويين والمغول والعثمانيين في مصر والشام وبلاد العجم.

العصر الخامس:

العصر الحديث: ويبتدىء من حكم الأسرة العلوية بمصر ويمتد إلى عصرنا هذا.

* * *




البابُ الثاني

الأدب العربي في العصر الجاهلي[1]

الفصل الأول: الحالة الاجتماعية والدينية والثقافية للعرب قبل الإسلام

الفصل الثاني: النثر في العهد الجاهلي وأعلامه

الفصل الثالث: الشعر

(١) الجاهلية: اسم أطلقه القرآن الكريم على العصر الذي سبق الإسلام، والجاهلية في الواقع ضد الحلم، وليست ضد العلم، فإن العرب كانوا على قسط كبير من العلوم والمعارف المعروفة في عصرهم وإن كانت الكتابة غير منتشرة لاعتمادهم على الذاكرة، أما أدبهم فكان أرقى الآداب، ولا يزال هذا الأدب موضع تقدير واستحسان، ويستمتع به اليوم كما يستمتع بالآداب المعاصرة.




الفصل الأول

الحالة الاجتماعية والدينية والثقافية للعرب قبل الإسلام

ينقسم العرب الباقية إلى قسمين؛ أحدهما ينتمي إلى قحطان وهم العرب العاربة ، استقر أولادهم في اليمن جنوبي الجزيرة العربية ، وآخرهما: العرب المستعربة أو المتعربة وهم العدنانيون من أولاد إسماعيل عليه السلام ، وكان موطنهم بنجد والحجاز في شمال الجزيرة العربية.

من أشهر قبائل القحطانيين جرهم ويعرب ، ومن يعرب تشعبت القبائل إلى كهلان وحمير ، ومن كهلان إلى الأزد ومنهم الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة ، وأولاد جفنة (الغساسنة) وطيء ومذحج وهمدان وكندة وأنمار وجذام ولخم (ومنهم ملوك الحيرة).

ومن أشهر بطون حمير قضاعة ومن قضاعة بلي ، وجهينة وكلب وبهراء ونهد وجرم وتنوخ وسليح ومهرة وعذرة.

ومن أشهر قبائل عدنان: ربيعة ومضر ، ومن ربيعة تشعبت قبائل ، أشهرها: بكر وتغلب ، وهما قبيلتان جرت بينهما حرب البسوس.

أما مضر فتشعبت منها قبيلتان رئيسيتان: خندف وقيس ، ومن خندف تشعبت تميم وخزيمة وهذيل والرباب ، ومن خزيمة كنانة ، ومنها قريش. وتشعبت من قيس: باهلة وعدوان وهوازن وسليم وغطفان ، ومن هوازن

ثقيف وسعد وعامر ، ومن غطفان : عبس وذبيان القبيلتان اللتان جرت بينهما حرب داحس والغبراء المعروفة .

كان أهل الجنوب (القحطانيون) أي العرب العاربة[١] يعيشون عيشة قرار ، وقد أقامت عدة قبائل منهم حكومات قوية في اليمن ، ومنهم التبابعة من حمير ، ومن اليمانيين قبائل كالغساسنة ، والمناذرة ، والكِنْديين ، الذين أقاموا حكومات في شمال الجزيرة العربية خارج اليمن .

أما أهل الشمال ، وهم العرب المستعربة[٢] فغلبت عليهم البداوة ، وعاشوا حياة الخشونة والشظف ، يقيمون حيث طاب لهم المقام وتوفر الماء والخضرة .

كانت لغة حمير غير لغة العدنانيين ، ومن اللهجات اليمنية المعروفة المعينية السبئية ، القتبانية الأوسانية الحضرمية ، وهي قريبة من اللهجة الحبشية السامية .

وكان لسان أهل الشمال كذلك يشمل لهجات كثيرة منها اللحيانية والثمودية والصفوية والنبطية .

سبق عرب الجنوب عرب الشمال في إنشاء حضارة خاصة ، بينما عاش عرب الشمال في الخيام وبيوت من مدر ووبر ، توزعهم الخصومات ويتعرضون للغارات ، وكانت حياتهم قاسية لا يملكون موارد إلا ما يجلبونه بالنهب والسلب والغارة ، كما قال شاعر عربي :

ومَنْ رَبَط الجحاشَ فإنَّ فينا	قَنا صُلْباً وأَفْراساً حِسانا
وكُنَّ إذا أَغَرْنَ على ضِبابٍ	وأَعْوَزَهُنَّ نَهْبٌ حيثُ كانا
أَغَرْنَ مِنَ الضِّبابِ على حلولٍ	وضَبّةَ إنه مَنْ حانَ حانا
وأحياناً على بَكْرٍ أَخِينا	إذا ما لم نَجِدْ إلاَّ أَخَانا

(١) عرب عاربة وعرباء أو صرحاء وهم العرب الأصليون .

(٢) المستعربة أو المتعربة لأنهم أخذوا العربية من العرب العاربة .

فلم يظهر عرب الشمال على المسرح العالمي كأمة متمدنة إلا بعد الإسلام.

هاجرت عدة قبائل يمنية بعد تصدع سد مأرب واستوطنت الشمال وبوادي الشمال، فاستقرت خزاعة في مكة، والأوس والخزرج في يثرب، وطيء بين جبلي أجأ وسلمى، والغسانيون[1] في مشارف الشام، واللخميون في الحيرة، والكِنْديون[2] في شمالي حضرموت، واشتد العداء عبر الزمن بين هذه القبائل، وأدى إلى حروب طاحنة استمرت سنين طويلة، ومن أشهر الأيام بين القبائل اليمنية النازحة إلى الشمال، يوم بعاث بين الأوس والخزرج، ويوم حليمة بين الغسانيين والمناذرة.

ومن أشهر الأيام التي جرت بين القبائل العدنانية: حرب داحس والغبراء

---

(١) آل غسان أقاموا في تهامة قبل نزولهم البلقاء وبصرى في مشارف الشام بعد تصدع سد مأرب، وحكموا حوالي ٦٠٠ سنة، فلما نزلوا في مشارف الشام كان يحكمها حينئذ الضجاعمة من سليخ فتغلبوا عليهم وأنشؤوا إمارة لهم وكانوا متحالفين مع الروم، فتنصروا، ومن ملوكهم الحارث بن شمر، والمنذر، وآخرهم جبلة بن الأيهم.

(٢) آل لخم التنوخيون، حكموا بالعراق، منهم جذيمة الأبرش أول من حكم بالعراق من العرب، فلما قتلته الملكة الزباء ملكة تدمر صار ملك الحيرة إلى ابن أخته عمرو بن عدي ٢٦٨ ـ ٢٨٨ م بعد أن أخذ الثأر من الملكة، أشهر ملوكهم امرؤ القيس بن عمرو صاحب قصر الخورنق والمنذر وعمرو بن هند الذي قتله عمرو بن كلثوم التغلبي، فالنعمان بن منذر الذي وقعت بسببه معركة ذي قار، وآخر ملوكهم المنذر بن نعمان (٦٢٨ ـ ٦٣٢ م) وفي عهده فتح خالد بن الوليد الحيرة. وكان ملوك الحيرة موالين للفرس.

أهل كندة نزلوا في البحرين والمشقر، فأجلوا عنها، فنزلوا في مكان قريب من حضرموت، وكانوا تحت سيادة حمير، وكانت إمارتهم اتحاداً للقبائل المختلفة، توزعت في آخر العهد إلى فروع، منها دومة الجندل والبحرين ونجران، وإلى ملوكهم ينتمي امرؤ القيس بن حجر الكندي الشاعر المعروف. ذهبت هذه الإمارات بالإسلام.

التي دامت أكثر من أربعين سنة بين عبس وذبيان ، ابني غطفان في قيس من مضر ، وحرب بسوس بين بكر وتغلب ابني وائل في ربيعة ، وهاتان الحربان تحملان مادة غزيرة في الأدب العربي ، وخاصة الشعر العربي.

كان أهل الشمال خاضعين لليمنيين يؤدون لهم إتاوة ثم انقطعوا عنهم بعد يوم خزازى الذي انتصر فيه عرب الشمال بقيادة كليب بن ربيعة من تغلب بن وائل من ربيعة والذي جمع العرب تحت لوائه ، وإليه يشير عمرو بن كلثوم:

وَنَحْنُ غَدَاةَ أُوقِدَ في خَزَازَىٰ رَفَدْنا فَوْقَ رِفْدِ الرَّافِدينا

والواقع أن خروج عدنان من سلطة حمير لم يؤمن لها الاستقلال التام لأنها تخاصمت فيما بينها ، وكان تخاصمها يؤدي أحياناً إلى الاستعانة بأصحاب القوة من القحطانيين ، فمنهم من كان يدخل في حماية كندة ومنهم من يدخل في حماية غسان ولخم ، ولاشتداد العداء هاجرت عدة قبائل من معد من تهامة ونجد والحجاز إلى سواد العراق واليمن.

كان عرب الشمال كلهم بدواً ، إلا سكان مكة والمدينة والطائف وبعض المدن الأخرى كتيماء التي كانت إحدى محطات القوافل بين دمشق وصنعاء ، ولا سيما في رحلة الشتاء والصيف [١].

كانت الحروب والغارات سمة غالبة للحياة العربية ، والشجاعة والحماسة شيمة من الشيم المميزة للعرب يتمجد بها الشعراء ويفاخرون بها ، ويفخمون وقائعها.

وأيّامُنا مَشْهُورةٌ في عَدُوِّنا لها غُرَرٌ مَعْلُومةٌ وحُجُولُ

ويقول الشاعر الآخر:

تَسِيلُ على حَدِّ الظُّباتِ نُفُوسُنا وليستْ على غَيْرِ الظُّباتِ تَسِيلُ

وكانت هذه الحروب تستمر طول السنة سوى الأشهر الحرم وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم متتابعة لأداء المناسك والرجوع منها ، وشهر

---

(١) دراسة وتحليل للعهد العربي الأصيل: محمد جميل بيهم.

رجب في وسط الحول لزيارة البيت والاعتمار ، وكان لا يشذ عن هذا التنظيم إلا حَيَّان وهما : خثعم وطيء ، فإنهما كانا يستحلان الشهور كلها .

وكانت بعض القبائل المنيعة تعتبر ثمانية أشهر حُرُماً ، ويعرف ذلك بالبسل[١] .

وعلاوة على القبائل المتماسكة التي كانت تخضع لسيد تطيعه القبيلة كلها في الحرب والسلم ، كانت عصابات وأفراد يعيشون بما ينهبونه من المارة ، وغيرهم من الناس ، لا يخضعون لأي قبيلة فكانوا أحراراً في تصرفاتهم منهم تأبط شراً ، والشنفرى ، والسليك بن السلكة ، وعمرو بن براق ، ونفيل بن براقة ، وهم صعاليك العرب ، وصفوا بطولتهم ومخاطرتهم في شعرهم وأخبارهم بأسلوب رائع يحمل مادة أدبية ، كما كانت بعض القبائل معروفة بالتلصص ، ونهب المسافرين كقبيلة غفار وأسلم .

وصف جعفر بن أبي طالب الحالة الاجتماعية العامة للعرب وهو يتحدث إلى النجاشي قائلاً :

«أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف»[٢] .

فالحرب في العهد الجاهلي كانت شرعة في الحياة ، وموردًا من موارد الرزق ، فإن لم تكن تنشب عن عصبية أو حادثة كانت تنشب للرزق .

ولذلك كان العرب لا يسوِّدون إلا من اجتمعت فيه خصال السيادة وهي الشجاعة ، والسخاء ، وكرم النسب ، قال شاعر : وهو لقيط بن يَعْمُرَ :

يا قوم لا تَأْمَنُوا إن كُنْتُمُ غُيُراً ... على نِسائكُمُ كِسْرى وما جَمَعَا
فَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ للهِ دَرُّكُمُ ... رَحْبَ الذِّراعَ بِأَمْرِ الحَرْبِ مُضْطَلعا

---

(١) لسان العرب مادة بسل .
(٢) ابن هشام .

لا مُتْرَفاً إنْ رَخِيُّ العيشِ ساعَدَهُ ... ولا إذا حَلَّ مكروهٌ به خَشَعا
لا يَطْعَمُ النَّومَ إلا حيثُ يَبْعَثُهُ ... هَمٌّ يكادُ حَشَاهُ يَقْطَعُ الضِّلَعا
مُسَهَّدُ النَّومِ تَعْنِيهِ أُمورُكُمْ ... يَرُومُ منها على الأعداءِ مُطَّلَعا[١]

المزايا القومية للعرب:

كانت الحروب والغارات على أوهى الأسباب السمة الغالبة للحياة الجاهلية، وكانت تؤدي إلى سلسلة لا تنتهي من الانتقام وأخذ الثأر، وكان من أهم أسبابها النخوة الزائدة والإباء والتصلب في طبيعة العرب، إلا أنهم كانوا يتصفون بعدة خصال حميدة تكاد تصبح ميزة لهم، منها الجود والسخاء وحسن الجوار، وإيفاء الوعد، والقِرى في أحرج الأوقات، في اشتداد الصيف، واشتداد البرد وهبوب الرياح العاتية، وإغاثة المظلوم المستنجد، كما كان في العرب رجال متعففون، متزهدون، وحكماء يتوسطون في الصراعات، ويدعون إلى ممارسة العقل والحلم.

وكانت هذه المعاني: الفروسية ونجدة المظلوم والإباء والسماحة والكرم والضيافة مادة غزيرة للأدب الجاهلي، وخاصة الشعر الذي يُعتبر ديوان العرب.

علوم العرب:

ومن علوم العرب التي برعوا فيها العرافة[٢] والقيافة[٣] والفراسة[٤]

---

(١) الأغاني.

(٢) العراف مثل الكاهن، إلا أن الكهانة منصب ديني، والعرافة ليست بمنصب ديني، وكان العراف يكشف المخبأ في الماضي وكان أيضاً طبيباً.

(٣) تتعلق بمعرفة اتجاه السائرين، والهاربين من تتبع آثارهم، والقافة جمع قائف، كانوا يميزون بين بعض آثار القدم من بعض، ولو تزاحمت، وكانوا يعرفون الأشخاص بآثار أقدامهم، ومنهم من كان يعرف آثار الحيوان أيضاً.

(٤) الفراسة: دراسة الأمور الظاهرة للإنسان والاستدلال بها على أخلاقه أو على نسبه إذا شك شاك في قرابته إلى أسرته وقبيلته.

والزجر والعيافة[1] ومعرفة النجوم[2] والأنساب والبيطرة.

كانت الحياة عند العرب عابرة، والموت شرفاً ومكرمة، فكانوا يعتبرون الموت غبطة وشرفاً لهم ويفتخرون به.

إنّـا لَمِـنْ مَعْشَـرٍ أَفْنَـى أوائِلَهـم   قِيلُ الكُماةِ أَلاَ أيـنَ المُحَامُـونا

ويقول الشاعر:

يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لنا   وتَكْـرَهُـه آجـالُهـم فَتَطُـولُ

وعلى الجانب الآخر كان لهذه العقيدة عن الحياة دور في الاستزادة من الاستمتاع بالحياة وملذاتها، والقيام بأعمال تذكر بعد الموت وتخلد ذكراه، فالعربي بعيد عن التكلف، ميال إلى الفطرة، سطحي الفكر، يؤمن بما يشاهد، ويصف ما تراه عينه، غير متفلسف في الحياة صادق النفس أبيُّها، ولبعده عن عهد الديانات تسرَّبت فيه الوثنية، والخرافة، وداء العصبية، والاستخفاف بالقيم الإنسانية، فصرف طاقاته إلى أمور واهية من الحياة. وكان الفقر الفاشي، والأمية، والشظف في الحياة والحروب الطاحنة قد جعلهم أمة متداعية خلقياً واجتماعياً، فجاء الإسلام وألف بين القلوب، وجعل القبائل المتناحرة أمة واحدة، قادت الإنسانية تحت لواء الإسلام، وحملت رسالة الأخلاق، والوحدة، والرحمة للإنسانية جمعاء.

الحيـاة الدينيـة:

كان العرب قبل الإسلام موزعين من الناحية الدينية، ولكن دهماء العرب كانوا يدينون بالدين الوثني، فكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وكانت كل قبيلة تختلف في الأصنام، ولعل هذا الاختلاف حمل

---

(١) الزجر أو العيافة: هو التنبؤ بالمستقبل من ملاحظة حركات الحيوان أو الطيور، أو بذبح الحيوانات، ودراسة العلامات التي توجد في أكبادها ورئاتها وأمعائها.

(٢) كان العرب يعرفون مواضع الكواكب والنجوم وتنقل الكواكب في بروجها بين فصل وفصل للاستدلال على المواضع أو الطرق لأن بلادهم كانت قليلة المعالم.

الشعراء على عدم ذكرها في الشعر خوفاً من أن يكون شعرهم محدوداً في تلك القبيلة.

وبجانب الوثنية كانت الصابئة ، وكان يعبد أتباعها النجوم والكواكب ، وانتشرت في بلاد اليمن وحران وأعالي الفرات.

وانتشرت اليهودية في وادي القرى ، وخيبر وتيماء ويثرب حيث أقامت قبائل بني قريظة ، وبني النضير وبني قينقاع.

وانتشرت المسيحية في قبائل تغلب وغسان وقضاعة وفي بلاد اليمن ، وكانت أهم مواطن النصرانية في بلاد العرب نجران ، وكانت النصرانية موزعة بين النسطورية واليعقوبية ، ولكن لم يكن لهم دور كبير في النشاط الأدبي ، وما ادعاه شيخو في شعراء النصرانية لا يستند إلى الحق لأن النصرانية لم تكن ديناً سائداً في الجزيرة ، كانت في العرب طبقة ارتفعت عن الوثنية لاختلاطها باليهودية والنصرانية ، ولكنها لم تكن يهودية ولا نصرانية ، فكان فيها رجال دعوا إلى التعفف ونبذ عبادة الأوثان والتخلص من عبادات الجاهلية ، منهم أمية بن أبي الصلت.

* * *

الفصل الثاني

النثر في العهد الجاهلي وأعلامه

كان العرب قبل الإسلام أُمَّة أمِّيَّة غالباً ، لم تنتشر فيهم الكتابة ، فكان أكثر اعتمادهم على الذاكرة ، وحيث إن الشعر أقرب إلى الحفظ ، لذلك أكثر ما انتقل إلينا هو الشعر ، ولم تنتقل إلينا نماذج كثيرة للنثر الجاهلي .

وكل ما يحفظه لنا التاريخ من النثر الجاهلي لا يتعدى الأمثال والحكم وخطباً قصيرة وبعض الوصايا وسجع الكهان .

المثل :

جملة مقطعة في غاية من الإيجاز تنقل عما وردت فيه إلى ما يشابهه بدون التغيير وهو متصل بواقع أو حادث .

الحكمة :

قول رائع يتضمن حكماً صحيحاً مسلّماً ، وهو ثمرة الحنكة ونتيجة التجربة ، ولا تجري الحكمة إلا بين الخواص ، أما المثل فهو كلام شائع بين العامة والخاصة .

نماذج من الأمثال :

إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً .

أوسعتهم سباً وأودوا بالإبل .

قبل الرمي يراش السهم.

أحشفاً وسوء كيلة.

تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

أنت تئق وأنا مئق فكيف نتفق.

لا تجني من الشوك العنب.

يداك أوكتا وفوك نفخ.

إن البغاث بأرضنا يستنسر.

سكت ألفاً ونطق خلفاً.

ضرب أخماساً لأسداس.

مواعيد عرقوب[1].

عند جهينة الخبر اليقين.

نماذج الحكم:

- من سلك الجدد أمن العثار.
- عيٌّ صامت خير من عيٍّ ناطق.
- يدك منك وإن كانت شلاء.
- من ضاق صدره اتسع لسانه.
- كَلِم اللسان أنكى من كلم السنان.
- رب عجلة تهب ريثاً.
- رب قول أنفذ من صول.
- من مأمنه يؤتى الحذر.

---

(١) عرقوب: رجل من العماليق، كان يعد ولا يفي.

ـ مصارع الرجال تحت بروق الطمع.

ـ أنجز حر ما وعد.

الخطابة:

كان لكل قبيلة خطيب كما كان لكل قبيلة شاعر، وقد كانت الخطابة عادة للتحريض على القتال والتحكيم في الخصومات وإصلاح ذات البين.

أشهر خطباء العرب كعب بن لؤي، ذو الأصبع العدواني، قيس بن خارجة بن سنان، وقس بن ساعدة الإيادي، وأكثم بن صيفي، وعامر بن الطفيل، وعمرو بن معديكرب، والحارث بن ظالم المري، وعمرو بن الشريد السلمي، وحاجب بن زرارة التميمي.

قال أبو العباس: من كلام العرب الاختصار المفهم، والإطناب المفحم، وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغني عند ذوي الألباب عن كشفه، والإيماء عند العرب في كلامهم كثير[1].

كان العرب يستحسنون من الخطيب أن يكون رابط الجأش، قليل اللحظ، جهير الصوت، قوي الحجة، نظيف البزة، كريم الأصل، عاملاً بما يقول، وكان من عادة الخطباء الاعتماد على مخصرة، أو عصا، أو قناة، أو قوس، وكان التشاغل بفتل الإصبع، ومس اللحية وغير ذلك من البدن، والتنحنح أو طلب الماء يعتبر نوعاً من العيِّ عند العرب، وقد عاب أحد الشعراء بعض الخطباء:

مليء ببهرٍ والْتِفاتٍ وسَعْلَةٍ ... ومَسْحةِ عُثْنُونٍ وفَتْلِ الأصابع

وعاب شاعر خطيباً أصابه رعب فأطال الكلام:

نَحْنَحَ زيدٌ وسَعَلْ ... لمَّا رأى وَقْعَ الأَسَلْ

وَيْلمّهِ إذا ارْتَجَلْ ... ثُمَّ أطالَ واحْتَفَلْ

(١) الكامل للمبرد.

نمـاذج الخطـابـة:

قال هارون بن قبيصة الشيباني في يوم ذي قار وهو يحرضهم على القتال:

«يا معشر بكر هالك معذور، خير من ناج مفرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية لا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد».

أرسل النعمان ملك الحيرة إلى كسرى وفداً عربياً يتكون من أربعة فصحاء العرب وبلغائهم بعد ما سمع منه كلاماً فيه تهجين العرب، وتنقيصهم، وأمرهم بأن يتكلموا أمام كسرى في مدح العرب، وذكر مناقبهم بحيث لا يبغضه، وأمر أن يكون المتكلم الأول أكثم بن صيفي أمام كسرى فقال:

«إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعاً، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها، الصدق منجاة والكذب مهواة، والشر لجاجة، آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي، من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء».

قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى، قال أكثم: «رب قول أنفذ من صول».

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي فقال: ورى زندك، وعلت يدك، وهيب سلطانك، إن العرب أمة قد غلظت أكبادها، واستحصدت مرتها[1] ومنعت درتها وهي لك وامقة ما تألفتها، مسترسلة ما لاينتها، سامعة ما سامحتها، وهي العلقم، والصابّ غضاضة، والعسل حلاوة والماء الزلال سلاسة.

وقام عمرو بن معديكرب الزبيدي فقال: إنما المرء بأصغريه، قلبه

---

(١) المرة: الطاقة، الحبل.

ولسانه ، فبلاغ المنطق الصواب ، وملاك النجعة الارتياد[1] وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبر خير من اعتساف الحيرة ، فاجتبذ طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك ، وألن لنا كنفك ليسلس لك قيادنا[2] .

زار عبد المطلب سيف بن ذي يزن بعد ما ظفر بالحبشة في وفد العرب لتهنئته فاستأذنه في الكلام فقال :

«إن الله تعالى أيها الملك أحلَّك محلاً رفيعاً صعباً منيعاً ، باذخاً شامخاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته وعزَّت جرثومته ، ونبل أصله وبسق فرعه في أكرم معدن ، وأطيب موطن ، فأنت ـ أبيت اللعن ـ رأس العرب وربيعها الذي به تخصب وملكها الذي له تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف ، لن يهلك من أنت خلفه ، ولن يخمل من أنت سلفه ، نحن أيها الملك حرم الله وذمته وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي أبهجك بكشفك الكرب الذي فدحنا ، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة» .

الوصايا :

احتضر ذو الأصبع العدواني فدعا ابنه أسيداً ليوصيه ، فقال : «يا بني إن أباك قد فني ، وهو حي ، وعاش حتى سئم العيش ، وإني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته ، فاحفظ عني ، ألِن جانبك لقومك يحبُّوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسوِّدوك» .

ومن نماذج النثر الجاهلي : سجع الكهان ، وهو كلام يحتمل عدة معان ، والسجع مأخوذ من سجع الحمام وهو الكلام المقفى أو موالاة الكلام على روي ، والنطق بكلام له فواصل .

---

(١) النجعة : طلب الكلأ .

(٢) العقد الفريد ج/ ٢ ص ٤ .

ارتج إيوان كسرى ليلة ولد النبي ﷺ وغاضت بحيرة ساوة تلك الليلة ، ورأى الموبذان رؤيا هالته ، فأرسل كسرى عبد المسيح بن نفيلة الغساني إلى سطيح أحد الكهنة المعروفين لتأويل الرؤيا ، فقال له سطيح :

«عبد المسيح على جمل مشيح ، إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بني ساسان لارتجاج الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى إبلاً صعاباً ، تقود خيلاً عراباً ، قد اقتحمت في الواد ، وانتشرت في البلاد ، يا عبد المسيح ، إذا ظهرت التلاوة ، وفاض وادي السماوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وظهر صاحب الهراوة ، فليست الشام لسطيح شاماً ، يملك منهم ملوك وملكات ، عدد سقوط الشرفات ، وكل ما هو آت آت» .

* * *

الفصل الثالث

الشعر

الشعر أقوى قسم من أقسام الأدب الجاهلي ، وهو ديوان العرب ، ويحمل أغزر مادة أدبية للعرب قبل الإسلام .

وهو الكلام الموزون المقفى قصداً ، والذي يعبر عن صور الخيال البديع ويثير الوجدان والشعور ، ويرغب ويرهب ، على عكس النثر الذي يقنع الفكر بالحجة والبرهان ، والأدلة العقلية ، وهو أسرع تأثيراً من النثر في إثارة العواطف ، وتشخيص المعاني الذهنية ، وأقل مؤنة على الذهن من الكلام المنثور ، لأنه يشتمل على نغم الوزن والقافية التي تشبه الإيقاع والتلحين الذي يطرب له الحيوان بله الإنسان .

والشعر أسبق من النثر الفني ، لأن النثر الفني يتطلب تطوراً عقلياً وذوقاً علمياً ، ونمو الكتابة ، وانتشار العلم ونضج الفكر ، والشعر ينبع من الوجدان ، ويصور الخيال ، وأحوال النفس ، والمحسوس الباهر الذي يدركه سائر أفراد المجتمع ، فلا يحتاج إلى نشأة العلم والكتابة[١] .

---

(١) يقول العلامة شبلي النعماني في شعر العجم: «الشعر هو التعبير بألفاظ عن الإحساس والانفعال والشعور ، وهو كلام يثير العواطف ويهيجها ، ويقول أحد الكتاب الغربيين: إن كل كلام يعجب به القلب أو يجيش له ، ويتأثر به هو الشعر ، ولا خلاف في أن أهم عنصر من عناصر الشعر هو إثارة العواطف في القلب ، =

وقد أطلقوا على النثر المتضمن للخيال الرائع كلمة الشعر المنثور لمشاركة الخيال ، كما أطلق العرب على القرآن كلمة الشعر مسحورين بروعة البيان فيه وتأثيره الوجداني.

كان التغني بالشعر شيئاً متلازماً لدى العرب القدماء ، ولذلك يقول العرب أنشد الشعر ، والنشيد في اللغة رفع الصوت.

قال ابن رشيق في كتاب «العمدة»:

«كان الكلام كله منثوراً ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعرافها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأمجاد وسمحائها الأجواد لتهتز به نفوسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض ، فعملوها للكلام ، فلما تم له وزنه سموه شعراً لأنهم شعروا به ، أي فطنوا له».

والغالب أنهم بدؤوا أولاً بالسجع بلا وزن ، كقولهم «إذا طلع السرطان ، استوى الزمان ، وحضرت الأوطان ، وتهادت الجيران» وهو سجع بقافية بلا وزن ، وكان هذا النوع في الكلام يقتصر على الكهان ، وتقييد بعض العلوم التي كانوا يريدون حفظها ، ثم دخل الوزن ، وكان استعماله خاصاً لحداء الإبل ، والأمور الطارئة مثل السرور والألم ، وكان ذلك رجزاً ، ومن أمثلة الرجز:

أبكيـتَ علـى طَلَـلٍ طَـرَبـاً   فَشَجَـاكَ وأَحْـزَنَـكَ الطَّلَـلُ

أو كما يقول الراجز:

قَلْبـي بـهِ فـي شُغُـل   لا مـلّ ذلـكَ الشُّغـلا
قَيَّـدَهُ الحُـبُّ كمـا   قَيَّـد راعٍ جَمَـلا

ولما تمت ملكة الشعر وتنوعت الأغراض قصدت القصائد ، وكان أول

= والفرق بين الشاعر والخطيب هو أن الشاعر يصور ما يجيش في صدره ويقتنع به ، أما الخطيب فهو يراعي في كلامه طبيعة الجمهور ويتأثر بانفعاله ، (شعر العجم).

من قصدها المهلهل بن ربيعة بعد قتل كليب ، وقبل ذلك كان الشعر مقطعات ، وكان تعليقاً على حادث أو أمر طارىء ، وتدل دراسة أوزان الشعر العربي على شبه كبير بينها وبين توقيع الإبل والفرس.

أنـواع الشـعـر:

العرب يقسمون الشعر إلى: الفخر ، والحماسة ، والمدح ، والعتاب ، والغزل ، والوصف ، والحكم وغيرها من الأغراض ، وهذه كلها من أنواع الشعر الغنائي ، لأنها تؤثر على النفس تأثير الغناء أو الموسيقا ، ويقسم الشعر عند الإفرنج إلى ثلاثة أقسام:

الشعر القصصي ، والشعر الغنائي ، والشعر التمثيلي ، إلا أن الشعر الغنائي هو أسبق الأنواع الشعرية ، لأنه شعر طبيعي ووجداني.

وأقدم أغراض الشعر عند الأمم ، هو الغرض الديني كالابتهالات والمناجاة وقصص الآلهة ، كما كان عند اليونانيين والهنود واليهود ، أما العرب فلم يكن لحياتهم الدينية تأثير كبير في الشعر ، لأنه لم تكن لهم فكرة دينية واضحة ، فكانت لكل قبيلة أصنام ولها طقوس ، وكانت الخصومات شديدة بين القبائل ، وكانت تشغلهم الحروب الدامية فكانت أهم موضوع لشعرهم ، وهو الذي يصور حياتهم الاجتماعية ، ولم يكن في الشعر الديني إلا بعض الأبيات التي تشير إلى بعض الآلهة وطقوسهم الدينية ، ولا يصح أن يقال: إن الرواة من المسلمين أغفلوا الشعر الديني للعرب ، لأنه كان وثنياً ، والإسلام يمحو ما كان قبله ، فقد بقي شعر أمية بن أبي الصلت والقصائد التي قالها الشعراء من أعداء الإسلام في هجاء النبي ﷺ والأنصار والمهاجرين وفي الاستخفاف بتعاليم الإسلام ، وفي رثاء قتلى الغزوات التي عبروا فيها عن تشنيعهم للإسلام والمسلمين ، وهجائهم لهم وهو كثير ومحفوظ في كتب السير والتراجم ، كان أكثر الموضوعات الشعرية عند العرب هو الحماسة ، والفخر ، والهجاء ، والمدح ، ولذلك مال عدد من الباحثين للشعر العربي في العصر الأول إلى القول بأن الشعر مجاله الشر ، وإذا تناول

الموضوعات الأخلاقية والدينية ضعف وتهافت وكان منهم الأصمعي ، وسلك هذا المسلك بعض النقاد في العصر الحديث من الإباحيين ، فأخرجوا ما كان وعظاً أو كان فيه عنصر الصدق غالباً من الشعر ، والواقع أن الشعر الوجداني مؤثر في ذاته ، فإن كان سيئاً كان تأثيره سيئاً ، وإن كان خيراً ، كان تأثيره خيراً.

مكانة الشعر عند العرب:

كان العرب بفطرتهم مطبوعين على نظم الكلام ، وهم أقدر الأمم على الشعر الوجداني ، لأنهم أشد الأمم حساسية ، وعاطفة ، وإدراكاً لمواضع القوة والجمال ، وأملكهم تعبيراً عن مشاعرهم الفياضة ، وأكثرهم انفعالاً ، كما يتميز العرب بالصراحة والجراءة في التعبير عما يجيش بصدورهم ، وقد كانت الروح الفنية غالبة فيهم ، فكانوا يقدرون الكلام الجيد المثير الذي يتميز بالتعبير الجميل ، ويحمل الخيال الرائع ويحفظونه ويروونه ، وإن كان من كلام الأعداء ، وكانوا صادقين أمناء في نقل الكلام ، وكان ذلك لشغفهم بالشعر ، وقد قيل عن الأعشى أنه ما مدح أحداً إلا رفعه ، وما ذم أحداً إلا وضعه ، ومما يدل على تأثير الشعر في الذهن العربي ما رواه ابن إسحاق في السيرة عن الأعشى واجتهاد قريش لصرفه عن النبي ﷺ ومدحه خوفاً من تأثير شعره.

وقد قال أبو سفيان: «والله لئن أتى محمداً ﷺ أو اتبعه ليضرمن عليكم نيران الحرب بشعره».

وكان العرب إذا نبغ فيهم شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة ، واجتمعت النساء يلعبن بالمزامير كما يصنعن في الأعراس ، لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة لذكرهم ، فكانوا لا يهنئون إلا بغلام ولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج[١] .

---

(١) العمدة.

وقد ضاع الشعر ولم يحفظ إلاَّ بعضه ، وما انتهى إلينا مما قالت العرب إلا أقلّه .

الشاعر الأول:

ادعت كل قبيلة لشاعرها أنه هو الشاعر الأول: فادعت اليمانية لامرىء القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص ، وتغلب للمهلهل بن ربيعة ، وبكر لعمرو بن قميئة والمرقش الأكبر ، وإياد لأبي دؤاد ، وقال بعضهم: إن الأفوه الأودي أقدم من هؤلاء ، وأنه أول من قصد القصيدة ، وقال عمرو بن شبة في طبقات الشعراء: هؤلاء النفر المدعى لهم التقدم في الشعر متقاربون ، لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمئة وخمسين سنة تقريباً ، وهو عهد غلبة قريش السياسية والاجتماعية ، ولم يصل إلينا ما قيل قبل مئتي سنة من الإسلام وما وصل إلينا هو شعر ناضج منقح .

مميزات الشعر الجاهلي:

إن أهم عنصر من عناصر الشعر هو العاطفة والخيال والتعبير الوجداني ، وقد فاق العرب وتميَّزوا بهذه العناصر ، وهو يكاد يكون طبيعتهم وجِبِلَّتهم ، وقد ساعدت على ذلك طبيعة الحياة والجو والبيئة ، فقد غلبت على العرب روح الفردية ، وحرية الفكر وبساطة الحياة وعدم الارتباط بملابساتها أو الحرص على إطالتها ، فيخلو الشعر الجاهلي من التكلف في الأداء والتفكير العميق ، وزخرف القول ، فجاء شعراً صادقاً في الوصف ، مليئاً بالعواطف ، ودقيقاً في تصوير الطبيعة ، وقد يكون واهن المعنى ، مفكك التنسيق ، غير مرتبط ، وبدون نقطة مركزية ، فإذا حذف شيء أو قُدِّم أو أُخِّر لا يحدث خلل ، ويبدو لقلة المعاني وعدم الاستقصاء الشعرُ العربيُّ مكرراً ، ومتشابهاً بعضه من بعض ، كما قال زهير:

ما أرانا نَقُولُ إلا مُعاراً ... أو مُعاداً من القولِ مَكْرُورا

ومن أسباب التشابه في اللغة والفكر في الشعر الجاهلي أن الآثار التي

وصلت إلينا لا ترجع إلى ما وراء القرن السادس للميلاد ، وتدل نظرة على عهود شعراء الطبقة الأولى على أن أحدهم لا يتجاوز عهده ٥٠٠ سنة للميلاد.

المهلهل بن ربيعة التغلبي (الشاعر الأول)	٥٠٠ م
الشنفرى	٥١٠ م
بشر بن أبي خازم الأسدي	٥٣٠ م
تأبط شراً	٥٣٠ م
امرؤ القيس الكندي	٥٣٩ م

وكذلك الأعشى ، وزهير ، والنابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت الأنصاري ، ولبيد ، والخنساء ، ودريد بن الصمة ، وعمرو بن معديكرب ، وحاتم الطائي ، كانوا متقاربي العهد.

فلا غرابة إذاً أن هذه الآثار التي ألفت في عهد تمت فيه للغة قريش الغلبة على ما عداها من اللغات ، وأصبحت اللغة الفذة التي يصطنعها العرب في ميادين الآداب ، منسجمة مع لغة قريش ومتأثرة نوعاً ما من الثقافة والمثل في قريش سدنة الكعبة ، قال زهير:

أَقْسَمْتُ بالبيتِ الذي طـافَ حَوْلَـهُ   رجالٌ بَـنُوهُـنَّ من قريـشٍ وجُـرْهمِ

ولقد سبق أن ذكرنا أن الشعراء كانوا يجتمعون في الموسم وينشدون أشعارهم ، فكانوا يبقون ما تقبله قريش ويتركون ما ترفضه قريش ، وهذا يتطابق كلياً مع نواميس اللغات الإنسانية ، ولو جاء شيء معارضاً مع ذلك لكان غريباً.

وكذلك ما ألفه شعراء اليمن وأدباؤهم في المراحل الأخيرة للعصر الجاهلي فهو أيضاً مؤلف باللسان العربي المبين ، فينبطق عليهم ما ذكرناه عن الشعراء والأدباء في الحجاز ونجد ، فقد كانت اللغات القديمة الأخرى في ذلك العهد الذي وصل إلينا أدبها قد انقرضت وأصبحت غريبة ، وتغلبت اللغة العربية الفصحى على سائر اللغات الأخرى من اللغات القديمة ، وفوق

ذلك كان كثير من الشعراء الذين كانوا ينحدرون من أصل يمني قد استقرُّوا في الشمال ، واصطبغوا بالصبغة الشمالية ، وقبلوا قيم الشمال وآداب سكان الشمال ، ويدل على هذا التقليد للأدب الشمالي ما كان يتمتع به النابغة الذبياني من مكانة لدى ملوك الحيرة ، والخضوع لقيم الشمال في كلام الشعراء الطائيين وشعراء الأوس والخزرج ، وفي مقدمتهم حسان بن ثابت الأنصاري رغم عصبيتهم للقحطانيين .

أسباب الشك في الشعر الجاهلي :

وقد أثار بعض المحدثين[1] من الباحثين في كتاباتهم ، على غرار الكُتَّاب المستشرقين ، الشكوك في صدق الشعر الجاهلي على أساس التشابه بين شعر شعراء اليمن وشعر شعراء الحجاز ونجد ، وقد خفي عليهم أو تجاهلوا لغرض في نفوسهم أن اللهجات الإقليمية كانت للتخاطب ، وأن لغة المحادثة لا تستخدم في التعبير الأدبي ، وأن لغة الأدب لا تسير مع اللهجات المحلية التي تتطوَّر وتتغيَّر سريعاً ، وتكون محدودة الثغور ، وتكون مفهومة في منطقة محدودة كما هو الحال في العالم العربي اليوم حيث تختلف اللهجات ، ولكن لغة الإذاعة والصحافة ، والشعر ، والعلم ، عربية فصحى عالمية ، يستخدمها الأدباء في الهند كما يستخدمها الأدباء في أي بلد عربي .

على أننا لا نقرر أن كل ما وصل إلينا من الآثار الجاهلية منزه عن نقص وضع أو تحريف ، فهناك عوامل تدل على عملية وضع من الرواة ، وإنه قد تأثر بألسنة الرواة ، وحذف منه كثير مما كان لا يلائم الذوق المتغير أو المصلحة السياسية والاجتماعية ، ولكنه قليل ، قد أبان المحققون هذه المواضع ، ولا تقل هذه النصوص أهمية من الناحية الأدبية لأن القسم المصنوع منها مهما كان نوعه ، كان ـ إذا صح ذلك التعبير ـ من صنع رجال

---

(١) منهم الدكتور طه حسين .

كانوا قريبي العهد بالعصر الجاهلي ، وكانوا على إلمام كبير باللغة العربية وآدابها ، فلم يدخروا وسعاً في محاكاة الجاهليين ، وكانوا قادرين عليه ، وما صدر من ألسنتهم يمثل تمثيلاً صادقاً في روحه وعبارته وأسلوبه للغة الأدب الجاهلي.

ولا يستبعد أن يكون بعض ضعاف الرواة أو الواضعين للشعر لأغراض متعددة مندسِّين بين الرواة ، ولكن رواية الشعر الجاهلي الذي كان عليه الاعتماد في شرح اللغة ووضع القواعد ، مرت بمرحلة طويلة من الجرح والتعديل والبحث عن الرواة ، بأيدي رجال كانوا كالصيارفة يميزون بين الزائف والصحيح ، كابن العلاء الحضرمي ، والمفضل الضبي ، وعلماء ثقات متورعين ، وقد نقلت كتب التاريخ عن تورُّع الخليل بن أحمد ، وخلف الأحمر ، والأصمعي وحذرهم في النقل والرواية وقوة ذاكرتهم ، وما تحملوا من شدائد ومكاره في جمع الشعر واللغة ، ومكابدتهم وتكريسهم ما لا يتصوره الذهن في هذا العصر ، وقد كشف عن بعض المزالق ، أو محاولات الدس التي وقعت ، علماءُ الشعر في عصر التدوين الأول كابن سلام الجمحي ، وآراؤهم معروفة ، ولكن نقدهم يدور حول بعض الأشعار ونسبتها ، ولم يكن الشعر الجاهلي بمجموعه موضع الشك لديهم.

أصبح الشك في الشعر الجاهلي مذهباً ، كان من رواده الدكتور طه حسين ، الذي شك في الشعر الجاهلي بناء على منهجه العلمي المأخوذ من مذهب ديكارت للشك ، واتجاهه الطبيعي إلى الطعن في التراث والسلف ومآخذ الفكر العربي ، ثم استفاد من رسالة مرغليوث في الشعر الجاهلي[1] ، وتصدى لهذا المذهب كبار علماء العربية ، وظهرت مؤلفات قيمة في الرد على هذا الفكر الذي كان يُقصد به هدم اللغة العربية الفصحى وفتح باب للرأي في القرآن الكريم والحديث الشريف ، وفي مقدمتهم الشيخ محمد

---

(١) راجع للتفصيل مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد ، ورسالة في أصول الشعر الجاهلي لمرغليوث ، تعريب وتحقيق الدكتور يحيى الجبوري.

خضر حسين والدكتور علي جمعة ، ومما يدل على أن هذه الحركة كانت مقصودة أن حركة أخرى رافقت هذه الحركة وهي حركة استبدال الفصحى بالعامية ، وكان من روادها سلامة موسى والحصري ، ونفخ روح هذه الحركة بعض رجال السياسة البريطانيين الذين لم يخفوا نواياهم ليجعلوا العربية الفصحى لغة مهجورة .

ويكفي أن نورد هنا ما كتبه العلامة السيد سليمان الندوي عن مرغليوث الذي فُتِن به الكتّاب العرب المعاصرون :

«كان مرغليوث يهودياً ثم اعتنق المسيحية ، ويكفي ذلك دليلاً على أن عداءه للإسلام وذات الرسول ﷺ كان مضاعفاً ، فصرف حياته كلها في الإغارة على تراث الإسلام علمياً وثقافياً ، ولذلك لم يكن ينظر إليه وحتى في الدوائر الجدية في أوربة باحترام ، وأهم كتبه سيرة محمد ﷺ وهذا هو الكتاب الذي أثار حفيظة العلامة شبلي النعماني ، فوضع خطة لعرض السيرة النبوية ، التي كانت بحمد الله نواة للكتابة في السيرة في هذه البلاد»[1] .

وأكبر ديوان للشعر العربي هو جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي وهو يشتمل على تسع وأربعين قصيدة ، ويعتبر أصح الشعر العربي القديم رواية وأصدقه تمثيلاً لأسلوبه ومنهاجه ، وأبعد هذه القصائد مدى من الرواية ، وأوفرها حظاً من العناية والحفظ ، المذهبات ، وهي المعلقات أو السموط كما يسميها الأدباء .

طبقـات الشعـراء :

للناس في تفضيل الشعراء مذاهب شتى ، وهي حسب أذواقهم وانتمائهم للقبيلة واعتبارهم للأقدمية ، فتختلف الآراء في أسبق الشعراء ، إلا أن أكثر العلماء يتفقون على أن المهلهل بن ربيعة أسبق إلى تطويل الشعر ، وذكر الوقائع ، وأن امرأ القيس أسبق إلى ذكر أشياء استحسنها الشعراء واتبعوه.

---

(١) يادرفلكان .

فيها ، وهو أول من لطف المعاني ، واستوقف على الطلول ، ووصف النساء بالظباء ، والمها ، والبيض ، ووصف الخيل ، وفرق بين النسيب وما سواه من القصيدة.

ومن المقدمين من الشعراء امرؤ القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، والنابغة الذبياني ، والأعشى.

تحليل الشعر الجاهلي:

تدل دراسة القصائد الطويلة التي تعتبر أجود شعر الجاهلية ، على شبه إجماع بين الشعراء ، على استهلالها بالنسيب والحنين إلى الحبيبة النائية الذي يعتريه عند رؤية أطلالها الداثرة ، وهو راكب في القفار ، باستثناء بعض الشعراء الذين بكوا على الشباب الزائل ، أو شكوا الأقارب والأصدقاء وهم قلائل ، ثم يتحول الشاعر من موطن حبيبته السابق ووصف رسوم ديارها وأيامه السعيدة التي قضاها فيها ، إلى وصف مسيره في المفاوز ، ويذكر أسماء المواضع ، وموقعها وطبيعة الحياة فيها ، ثم ينتقل ذهنه إلى راحلته التي يقطع بها المفاوز أو يمضي بها همه ، ويشبهها ببعض الحيوانات الوحشية ، ثم يتطرق إلى بعض تجاربه في الحياة ، ويذكر طبائع الناس ، وسلوكه معهم وتحمله الصعاب ، وسماحته في الحياة ، ويتجه الشاعر في آخر القصيدة إلى التعبير عن حقيقة قصده ، ويعرب عن أفكاره وتصوره عن الحياة ، وتدور القصائد من الشعر الجاهلي بصفة عامة حول وصف الرجولة ، والمروءة والإباء والنجدة في مواجهة الحياة.

المعلقات:

يتفق العلماء على أن أجود نماذج الشعر الجاهلي هي المعلقات أو ما يسمى بالقصائد المختارة أو السموط ، وينتمي شعراؤها إلى قبائل مختلفة ، وهي صورة شعرية عن الحياة الاجتماعية والثقافية لذلك العصر ، وتسجل بعض الوقائع الفردية والقَبَلية.

كان من عادة العرب أنهم إذا استجادوا شيئاً أو اهتموا بأمر كتبوه وعلَّقوه

بأستار الكعبة ، فيرى بعضُ رواة الشعر أن هذه القصائد الطوال عُلِّقت بأستار الكعبة لجودتها ، وتختلف آراء المؤرخين في التعليق ، كما يشكون في الرواية لأن حماداً الراوية الذي نقل هذه المجموعة الشعرية ، كان موضع شك لدى بعض المؤرخين، فأثيرت شكوك في صحة نسبة بعض الأشعار التي رواها حماد، وتختلف الأقوال في عدد القصائد المعلقة ، وشعرائها أيضاً .

أما القول المعروف والمرجح فهو التعليق بالكعبة ، لأنه كان من عادة العرب أن يعلقوا بالكعبة كل ما كانوا يريدون بقاءه والاحتفاظ به ، وكانت تكتب القصائد الجيدة وتعلق في خزائن الملوك ، وتحفظ أيضاً ، ولا يوجد تعارض بين القولين.

قال أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب: «القول عندنا ما قاله أبو عبيدة: امرؤ القيس وزهير والنابغة والأعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم وطرفة ، وإليه يذهب المفضل الضبي ، فقال: هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط ، ومن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة» .

وذكر أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني شارح المعلقات السبع الترتيب الآتي: امرؤ القيس، طرفة، زهير ، لبيد ، عمرو بن كلثوم ، عنترة، الحارث بن حلزة.

وأضاف بعض رواة الشعر قصيدة عبيد بن الأبرص ، فصار عدد القصائد التي اعتبرها الرواة المعلقات عشر قصائد ، وشرح التبريزي هذه القصائد العشر بكاملها.

كانت البادية بيئة الشعر الجاهلي ، فتناول الشعر قضايا حياة البادية ، وتصور رجال البادية عن الحياة ، وقد نبغ في المدن شعراء ، واشتمل شعرهم على آراء متحضرة ، ومنقحة ، وتعبيرات لم تكن مألوفة في البادية لرحلاتهم إلى بلاط الملوك ، وأسر الأغنياء في الحاضرة ، وتظهر آثار العلم في شعرهم ، لكن الرواة شغفوا بشعر البادية أكثر واعتمدوا عليه وشرحوا

لغاته ، وصنف بعض الأدباء الشعراء إلى شعراء الوبر ، وشعراء المدر ، وجعلوهما اتجاهين مختلفين ، ومن الشعراء الذين عدهم المؤرخون من شعراء أهل المدر: النابغة ، والأعشى ، وحسان بن ثابت الأنصاري ، وأمية بن أبي الصلت . . . .

وهم الشعراء الذين في شعرهم الأفكار العالية وتعبير مثقف ، لاختلاطهم بالأسر العالية ، ويوجد في شعر هؤلاء المتحضرين نوع من الصنعة وسمو الفكر والقيم العليا ، أما شعر البادية فهو شعر الصدق ، والواقع ، وتوجد فيه الوجدانية والبساطة .

١ ـ الشعراء العشرة وقبائلهم :

امرؤ القيس بن حجر	كندة ، اليمانية .
طرفة بن عمرو بن العبد البكري	بكر ـ ربيعة .
زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح	مزينة (مضر) .
لبيد بن ربيعة العامري	مضر .
عنترة بن شداد العبسي	عبس ـ مضر .
عمرو بن كلثوم الجشمي التغلبي	تغلب (ربيعة) .
الحارث بن حلزة اليشكري	بكر (ربيعة) .
النابغة ـ زياد بن معاوية الذبياني	ذبيان (مضر) .
الأعشى ، ميمون بن قيس بن ثعلبة	ربيعة (مضر) .
عبيد بن الأبرص الأسدي	أسد (مضر) .

٢ ـ ومن الشعراء المقدمين بعد شعراء المعلقات :

المتلمس خال طرفة بن العبد ـ المرقش الأكبر ـ المرقش الأصغر ـ عمرو ابن معديكرب ـ تأبط شراً الفهمي ـ الشنفرى الأزدي ـ حاتم الطائي ـ أوس بن حجر التميمي ـ علقمة بن الفحل التميمي ـ أمية بن أبي الصلت الثقفي ـ

قيس بن خطيم ـ المثقب العبدي ـ الأفوه الأودي ـ عامر بن الطفيل ـ عمرو بن قميئة ـ بشر بن خازم الأسدي ـ أبو دؤاد الإيادي ـ الممزق العبدي ـ السموءل ابن عاديا ـ عروة بن الورد ـ الأخنس بن شريق .

ومما يدل على كثرة الشعر ، ما ذكرت كتب الآداب ، أن أبا تمام وهو من المحدثين بالنسبة للأصمعي وأبي عبيدة ، ورواة الشعر الأولين كحماد الراوية ، وخلف الأحمر ، والضبي ، كان يحفظ من الشعر الجاهلي ١٤ ألف أرجوزة غير القصائد والمقاطيع ، أما حماد الراوية فكان يحفظ ٢٧ ألف قصيدة ، وعلى كل حرف من حروف الهجاء ألف قصيدة ، والأصمعي كان يحفظ ١٦ ألف أرجوزة ، وأبو ضمضم كان يحفظ أشعاراً لمئة شاعر كل منهم اسمه عمرو ، وقال أبو عمرو بن العلاء : «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير»[١] .

* * *

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ، لجرجي زيدان/ ج/ ١ .

نماذج من الشعر الجاهلي

قال امرؤ القيس (٥٦٥) في الغزل:

أفاطمَ مَهْلاً بعضَ هذا التَّدلُّلِ … وإنْ كنتِ قد أَزمعتِ صَرْمي فأَجْملي

أَغَرَّكِ منّي أنَّ حُبَّكِ قاتِلي … وأنَّكِ مَهْما تأْمُري القلبَ يَفعَلِ

وإن كنتِ قد ساءتْكِ مني خَليقةٌ … فسُلّي ثيابي مِن ثيابِكِ تَنْسُلِ

وما ذَرَفَتْ عيناكِ إلا لتضربي … بسَهْمَيْكِ في أَعْشارِ قلبٍ مُقتَّلِ

مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ غيرُ مُفَاضَةٍ … ترائِبُها مَصْقُولةٌ كالسَّجَنْجَلِ

كَبِكْرِ المُقَاناةِ البياضِ بصُفْرةٍ … غذاها نَميرُ الماءِ غيرَ المُحَلَّلِ

تَصُدُّ وتُبْدِي عن أَسيلٍ وتَتَّقي … بناظرةٍ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ

وجيدٍ كجيدِ الرِّئْمِ ليس بفاحشٍ … إذا هِيَ نَصَّتْهُ ولا بِمُعَطَّلِ

وفَرْعٍ يَزِينُ المَتْنَ أَسْوَدَ فاحِمٍ … أثيثٍ كقِنْوِ النَّخْلةِ المُتَعَثْكِلِ

غدائرُهُ مُسْتَشْزِراتٌ إلى العُلَى … تضلُّ العقاصَ في مُثَنًّى ومُرْسَلِ

وتُضْحِي فَتيتُ المِسْكِ فوقَ فِراشِها … نؤُومُ الضُّحَى لم تَنْتَطِقْ عن تَفضُّلِ

وتَعْطُو بِرَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنَّه … أساريعُ ظَبْيٍ أو مَساوِيكُ إسْحِلِ

تُضِيءُ الظَّلام بالعِشاءِ كأنَّها … منَارةُ مُمْسَى راهبٍ مُتَبَتِّلِ

ويقول في وصف الليل:

وليلٍ كموجِ البحرِ أَرْخَى سُدُولَهُ … علَيَّ بأنواعِ الهُمُومِ ليَبْتَلي

فقلتُ لهُ لمَّا تَمطَّى بِصُلْبِهِ … وأَرْدَفَ أَعْجازاً وناءَ بِكَلْكَلِ

أَلَا أيُّها الليلُ الطَّويلُ أَلَا انْجَلي بصبحٍ وما الإصباحُ فيكَ بأمثلِ
فيا لَكَ من ليلٍ كأنَّ نُجُومَهُ بكُلِّ مُغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

ويقول في وصف الخيل:

وقد أَغْتدي والطَّيرُ في وُكُناتِها بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هَيْكَلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً كجُلْمُودِ صخرٍ حَطَّه السَّيلُ من عَلِ
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حَالِ مَتْنِه كمَا زَلَّتِ الصَّفْواءُ بالمُتَنَزَّلِ
على العَقْبِ جَيَّاشٍ كأنَّ اهتزامَه إذا جاشَ فيه حَمْيُهُ غَلْيُ مِرجَلِ
مِسَحٍّ إذا ما السَّابحاتُ على الوَنَى أثَرْنَ الغُبارَ بالكَديدِ المُرَكَّلِ
يزلُّ الغلامَ الخِفَّ عَنْ صَهَواتِهِ ويُلْوِي بأَثْوابِ العَنِيفِ المُثَقَّلِ
دَريرٍ كَخُذْرُوفِ الوليدِ أَمَرَّهُ تَتَابُعُ كَفَّيْهِ بِخَيْطٍ مُوَصلِ
له أيْطلا ظَبْيٍ وسَاقَا نَعَامَةٍ وإرْخاءُ سِرْحَانٍ وتَقْرِيبُ تَتْفُلِ
كأنَّ دِماءَ الهادياتِ بِنَحْرِهِ عصَارَةُ حِنَّاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ

وقال:

كأنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً ويَابِساً لدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البَالي
فلو أنَّ ما أَسْعَى لأَدْنَى مَعِيشَةٍ كفَاني ولم أَطْلُبْ قليلٌ من المالِ
ولكنَّما أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ وقد يُدْرِكُ المَجْدَ المُؤَثَّلَ أَمْثَالي
وما المَرْءُ ما دامَتْ حُشاشَةُ نَفْسِه بمُدْرِكِ أطرافِ الخُطُوبِ ولا آلِ

وقال علقمة بن عبدة التميمي المعروف بعلقمة الفحل وهو معاصر لامرىء القيس:

طَحَا بك قلبٌ في الحِسانِ طروبُ بُعَيْدَ الشَّبابِ عصرَ حانَ مَشِيبُ
تُكلِّفُني ليلى وقد شَطَّ وَلْيُها وعادتْ عَوادٍ بَيْنَنَا وخُطُوبُ
مُنَعَّمَةٌ، ما يُستطاعُ كَلامُها على بابِها مِنْ أنْ تُزارَ رَقِيبُ
إذا غابَ عنها البَعْلُ لم تُفْشِ سِرَّهُ وتُرْضِي إيابَ البَعْلِ حينَ يَؤُوبُ

وطرفة بن العبد يقول في وصف الناقة:

وإِنِّي لأُمْضِي الهَمَّ عند احتضارِهِ ... بعَوْجاءَ مِرقالٍ تَرُوحُ وتَغْتَدي

أمونٍ كألواحِ الإرانِ نسأتُها ... على لاحبٍ كأنَّه ظَهْرُ بُرْجُدِ

جُمالِيَّةٍ وَجْناءَ تَرْدي كأنَّها ... سَفَنَّجَةٌ تَبْري لأَزْعَرَ أربدِ

تباري عِتاقاً نَاجياتٍ وأَتبعَتْ ... وظِيفاً فوقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ

كأنَّ جَنَاحَيْ مَضْرَحِيٍّ تكنَّفَا ... حفافيه شُكَّا في العَسِيبِ بِمسردِ

لها فَخذانِ أُكْمِلَ النَّحْضُ فيهما ... كأنَّهما بابُ مُنيفٍ مُمَرَّدِ

لها مِرْفَقانِ أفتلان كأنَّها ... تمُرُّ بِسَلْمَيْ دالجٍ مُتَشَدِّدِ

صُهابِيَّةُ العُثْنُونِ مُوجَدَةُ القَرا ... بعيدةُ وَخْدِ الرِّجْلِ مَوَّارةُ اليدِ

وخدٌّ كقِرطاسِ الشَّآميِّ ومِشْفَرٌ ... كسِبتِ اليمانيّ قِدُّه لم يُحَرَّدِ

وعَيْنانِ كالمَاويتينِ استكنَّتا ... بكهفيْ حَجَاجيْ صخرةٍ قَلْتِ مَوْرِدِ

عَلَى مِثْلِها أمضي إذا قال صاحبي ... ألاَ ليتني أَفْديكَ منها وأفتدي

ويقول وهو يبين تصوره للحياة:

ولَوْلاَ ثلاثٌ هُنَّ من عيشةِ الفَتى ... وجَدِّكَ لم أَحْفِلْ متى قام عُوَّدي

فَمِنهُنَّ سَبْقي العَاذِلاتِ بشَرْبَةٍ ... كُمَيتٍ متى ما تُعلَ بالماءِ تُزْبِدِ

وكَرِّي إذا نادى المُضَافُ مُحَنَّباً ... كسِيدِ الغَضَى نَبَّهْتَهُ المُتَورِّدِ

وَتقْصِيرُ يوم الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ ... ببَهْكَنَةٍ تَحْتَ الطِّرافِ المُعَمَّدِ

أرى قَبْرَ نَحَّام بَخيلٍ بمالِهِ ... كقَبْرِ غَوِيٍّ في البَطَالةِ مُفْسِدِ

أرى الموتَ يَعْتامُ الكِرامَ ويَصْطَفي ... عقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

أرى العيشَ كنزاً ناقِصاً كلَّ ليلةٍ ... وما تَنْقُصِ الأيامُ والدَّهْرُ يَنْفَدِ

لَعَمْرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطأَ الفَتى ... لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ باليَدِ

ويقول وهو يصف نفسه:

أنا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الذي تَعْرِفُونَهُ ... خشَاشٌ كَرأْسِ الحيَّةِ المُتَوَقِّدِ

فآليتُ لا يَنْفَكُّ كَشحي بِطانَةً ... لعَضْبٍ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ

حُسَامٌ إذا ما قُمْتُ مُنتصراً به ... كفَى العَوْدَ منه البَدْءُ ليس بِمُعْضَدِ

أَخِي ثِقَـةٍ لا يَنْثَني عـن ضَريبـةٍ　　إذا قِيـلَ مَهْلاً قـال حـاجِـزُهُ قَـدِي
إذا ابْتَدَرَ القومُ السِّلاحَ وَجَدْتني　　منِيعـاً إذا بَلَّـتْ بقـائِمِـه يـدي

وقال عبيد بن الأبرص يصف الغيث :

سَقَـى الـرَّبـابَ مُجَلْجِـلُ الأكْـ　　ـنـافِ لَمَّـاحٌ بُـرُوقُـهْ
جَـوْنٌ تُكَفْكِفُـهُ الصَّبَـا　　وهْنـاً وتَمْـريـه خَـرِيقُـهْ
مَـرْيَ العَسِيـفِ عِشَـارَهُ　　حتَّـى إذا دَرَّتْ عُـرُوقُـهْ
وَدَنَـا يُضِـيءُ رَبَـابُـهُ　　غـابـاً يُضَـرِّمُـهُ حَـرِيقُـهْ
حتَّـى إذا مـا ذَرْعُـهُ　　بـالمَـاءِ ضَـاقَ فيمـا يُطِيقُـهْ
هَبَّـتْ لـهُ مِـنْ خَلْفِـهِ　　ريـحٌ شـآمِيَّـةٌ تَسُـوقُـهْ
حَلَّـتْ عَـزَالِيَـهُ الجَنـو　　ب فَثَـجَّ واهِيَـةً خُـرُوقُـهْ

وقال لبيد بن ربيعة العامري في وصف بقرة وحشية مات ولدها وهي تبحث عنه :

خَنساءُ ضَيَّعَتِ الفَريرَ فلم يَرِمْ　　عُرْضَ الشَّقَائقِ طَوْفُها وبُغَامُها
لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تَنَازعَ شِلْوَهُ　　غُبْسٌ كواسِبُ لا يُمَنُّ طَعَامُها
صَادَفْنَ منها غِرَّةً فَأَصَبْنَها　　إنَّ المنايا لا تطيشُ سِهامُها
باتَتْ وأَسْبَلَ واكِفٌ من ديمةٍ　　يُرْوِي الخَمائلَ دائماً تَسْجَامُها
يَعْلُو طريقةَ مَتْنِها مُتَواتِرٌ　　في ليلةٍ كَفَرَ النُّجومَ غَمَامُها
تَجْتَافُ أَصْلاً قَالِصاً مُتَنَبِّذاً　　بعُجُوبِ أنْقَاءٍ يَمِيلُ هُيَامُها
وتُضِيءُ في وَجْهِ الظَّلام مُنِيرَةً　　كجُمَانَةِ البحريِّ سُلَّ نِظامُها
حتَّى إذا انحسرَ الظَّلامُ وأَسْفَرَتْ　　بكَرَتْ تزلُّ عن الثَّرى أَزْلَامُها
عَلِهَتْ تَرَدَّدُ في نِهاءِ صَعَائِدٍ　　سبْعاً تُؤاماً كامِلاً أَيَّامها

ويقول وهو يفتخر :

إنَّا إذا التقتِ المجامعُ لم يَزَلْ　　منَّا لِزَازُ عظيمةٍ جَشَّامُها
وَمُقَسِّمٌ يُعْطِي العَشيرةَ حَقَّها　　ومُغَذْمِرٌ لحقوقِها هَضَّامُها

فَضْلاً وذو كَرَم يُعِينُ على النَّدى		سَمْحٌ كَسُوبُ رَغَائِبٍ غَنَّامها
مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لهم آباؤهمْ		ولِكُلِّ قوم سُنَّةٌ وإمامُها
وإذا الأمانةُ قُسِّمَتْ في مَعْشَرٍ		أوْفَى بأَوْفرِ حَظِّنا قَسَّامُها
فَبَنَى لنا بيتاً رَفِيعاً سَمْكُهُ		فسَمَا إليه كَهْلُها وغُلامُها

وقال زهير بن أبي سُلْمى المزني وهو يمدح هرم بن سنان المري :

وأبيضَ فَيَّاضٍ يَدَاهُ غَمَامةٌ		على مُعْتَفِيهِ ما تُغِبُّ فَواضِلُهْ
أَخِي ثِقةٍ لا تُهْلِكُ الخمرُ مالَهُ		ولكنَّه قد يُهْلِكُ المالَ نائِلُهْ
تَراهُ إذا ما جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً		كأنَّك تُعْطِيه الذي أنتَ سائِلُهْ

وقال في المدح :

وفيهم مَقَاماتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهم		وأَنْدِيةٌ يَنْتَابُها القولُ والفِعْلُ
وإنْ جِئْتَهُمْ أَلْفيتَ حولَ بُيُوتِهم		مَجَالسَ قد يُشْفَى بأحلامِها الجَهْلُ
على مُكْثِريهمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهمُ		وعند المُقِلِّينَ السَّماحةُ والبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُم قومٌ لكي يُدْرِكُوهُم		فلم يَفْعَلُوا ولم يُلامُوا ولم يَأْلُوا

وقال الأعشى بن قيس في مدح المُحَلَّق :

لَعَمْرِي لقدْ لاحَتْ عُيونٌ كَثِيرةٌ		إلى ضَوْءِ نارٍ باليَفَاعِ تُحَرَّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرُورينَ يَصْطَلِيانِها		وباتَ على النَّارِ النَّدى والمُحَلَّقُ
رَضِيعَيْ لِبانِ ثَدْيٍ أم تَقَاسَما		بأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لا نَتَفَرَّقُ
تَرَى الجُودَ يجري ظاهراً فوق وَجْهه		كما زَانَ مَتْنَ الهِنْدُوانيِّ رَوْنَقُ
يَدَاهُ يَدَا صِدْقٍ فَكَفٌّ مُبِيدةٌ		وكَفٌّ إذا ما ضُنَّ بالمالِ تُنْفِقُ

وقال تأبط شراً يمدح ابن عم له يذكر في مدحه الصفات التي كانت محمودة لدى الجاهليين :

قَلِيلُ التَّشكِّي لِلْمُهِمِّ يُصِيبُه		كثيرُ الهَوَى شَتَّى النَّوى والمَسَالِكِ
يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ ويُمْسِي بِغَيْرِها		جَحِيشاً ويَعْرَوْري ظُهُورَ المَهَالِكِ
ويَسْبِقُ وَفْدَ الرِّيحِ من حيثُ يَنْتَحِي		بِمُنْخَرِقٍ مِنْ شَدِّهِ المُتَدارِكِ
إذا خاط عَيْنَيْهِ كرى النَّومِ لم يَزَلْ		له كالىءٌ من قَلْبِ شَيْحَانَ فَاتِكِ

ويَجْعَـــلُ عينيــه رَبيئــةَ قلبِــه　　إلى سَلَّـةٍ مـن حَـدِّ أخضرَ بَـاتِكِ

ويقول عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته وهو يفتخر :

أَلاَ هُبِّـي بِصَحْنِـكِ فـاصْبَحِيْنـا　　ولا تُبْقِـي خُمُـورَ الأَنْـدَرِينـا
مُشَعْشَعَــةً كــأنَّ الحُـصَّ فيهـا　　إذا مـا المـاءُ خـالطَهَـا سَخِيْنـا
صَبَنْـتِ الكَـأْسَ عَنَّـا أمَّ عَمْـرو　　وكـان الكـأسُ مَجْـراهـا اليَمِيْنـا
أبـا هِنْـدٍ فـلا تَعْجَـلْ علينـا　　وأَنْظِـرْنـا نُخَبِّـرْكَ اليَقِينـا
بـأنَّـا نُـورِدُ الـرَّايـاتِ بِيْضـاً　　ونُصْـدِرُهُـنَّ حُمْـراً قـد رَوِينـا
وأيـام لنـا غُـرٍّ طِـوالٍ　　عَصَيْنـا المَلْـكَ فيهـا أَنْ نَـدِينـا
مَتَـى نَنْقُـلْ إلـى قَـوْم رَحَـانـا　　يكُـونُـوا فـي اللِّقـاءِ لهـا طَحِينـا
كـأنَّ جَمَـاجِـمَ الأبطـالِ فيهـا　　وُسُـوقـاً بـالأَمَـاعِـزِ يَـرْتَمِينـا
نشـقُّ بهـا رؤوسَ القـوم شَقّـاً　　ونُخْلِيهـا الـرِّقـابَ فَتَخْتَلينـا
وَرِثْنـا المَجْـدَ قَـدْ عَلِمَـتْ مَعَـدٌّ　　نُطَـاعِـنُ دونـه حتَّـى يَبينـا
أَلاَ لا يَجْهَلَـنْ أحـدٌ علينـا　　فنَجْهَـلَ فـوقَ جَهْـلِ الجَاهلينـا
إذا مـا المَلْـكُ سـامَ النَّـاسَ خَسْفـاً　　أبَيْنَـا أنْ نُقِـرَّ الـذُّلَّ فينـا
مـلأْنـا البَـرَّ حتَّـى ضـاقَ عنَّـا　　ومـاء البَحْـر نَمْلَـؤُه سَفِيْنـا
إذا بَلَـغَ الفِطـامَ لَنَـا صَبِـيٌّ　　تخِـرُّ لـه الجَبَـابِـرُ سَـاجِـدِينـا

عنترة بن شداد العبسي يقول وهو يذكر أحد أيامه :

يَـدْعُـونَ عَنْتَـرَ والـرِّمـاحُ كـأنَّهـا　　أشْطَـانُ بِئْـرٍ فـي لَبَـانِ الأَدْهَـمِ
مـا زِلْـتُ أَرْمِيهـم بثُغْـرةِ نَحْـرِه　　ولَبـانِـه حتـى تَسَـرْبَـلَ بـالـدَّمِ
فـازْوَرَّ مـن وَقْـعِ القَنَـا بِلَبَـانِـه　　وشَكَـا إلـيَّ بِعَبْـرةٍ وتَحَمْحُـمِ
ولقدْ شَفَى نفسي وأذهبَ سُقْمَها　　قِيلُ الفَـوارِسِ: وَيْـكَ عَنْتَـرَ أَقْـدِمِ
والخيلُ تَقْتَحِمُ الغُبارَ عَـوابسـاً　　مـن بيـن شَيْظَمـةٍ وأَجْـرَدَ شَيْظَـمِ
ولقد خشيتُ بأنْ أموتَ ولم تكنْ　　للحربِ دائرةٌ على ابْنَيْ ضَمْضَمِ

وقال المُتَلَمِّس :

وكُنَّـا إذا الجَبَّـارُ صَعَّـرَ خَـدَّهُ　　أقَمْنَـا لـه مِـنْ مَيْلِـهِ فَتَقَـوَّمـا

لِذي الحِلْمِ قبلَ اليوم ما تُقْرَعُ العَصَا ... وما عُلِّمَ الإنسانُ إلا لِيَعْلَما

ولو غَيْرُ أخوالي أرادوا نَقِيصَتي ... جَعَلْتُ لهم فوقَ العَرَانِينِ مِيْسَمَا

وما كُنتُ إلاّ مِثْلَ قاطِعِ كَفِّهِ ... بكَفٍّ لهُ أُخْرى فأَصْبَحَ أَجْذَما

فلمّا استقادَ الكَفَّ بالكفِّ لم يَجِدْ ... له دَرَكاً في أنْ تَبِينَا فأَحْجَما

يَدَاهُ أصابَتْ هذه حَتْفَ هذه ... فلمْ تَجِدِ الأُخْرى عليها مُقَدَّما

فأَطْرَقَ إِطْراقَ الشُّجاعِ ولو يَرَىٰ ... مَسَاغاً لِنابَيْهِ الشُّجاعُ لَصَمَّما

قال دريد بن الصمة: وهو يذكر إقدامه والدفاع عن قبيلته بعد أن رفضت نصيحته ، ويرثي أخاه الذي قُتِل:

نصحتُ لعارضٍ وأصحابِ عارضٍ ... ورَهْطِ بني السَّوداءِ والقومُ شُهَّدي

فقلتُ لهم ظنّوا بألفي مُدَجَّجٍ ... سَرَاتُهُمُ في الفارِسيِّ المُسَرَّدِ

فلمَّا عَصَوْني كنتُ منهم وقَدْ أرَى ... غَوَايَتَهُمْ وأنَّني غيرُ مُهْتَدِي

أَمَرْتُهم أمري بِمُنْعَرجِ اللِّوى ... فلم يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إلاَّ ضُحى الغدِ

وهل أنا إلاَّ من غَزِيَّةَ إن غَوَتْ ... غوَيْتُ وإن ترشدْ غزيةُ أَرْشُدِ

تَنَادَوْا فقالُوا أَرْدَتِ الخيلُ فارساً ... فقلتُ أَعَبْدُ اللهِ ذَلِكُمُ الرَّدي

فجئتُ إليهِ والرِّماحُ تَنُوشُهُ ... كوَقْعِ الصَّياصِي في النَّسِيجِ المُمَدَّدِ

وكنتُ كذاتِ البَوِّ رِيْعَتْ فَأَقْبَلَتْ ... إلى جَلَدٍ من مَسْكِ سَقْبٍ مُقَدَّدِ

فَطَاعَنْتُ عنه الخيلَ حتى تَبَدَّدتْ ... وحتى عَلَانِي حالكُ اللونِ أسودِ

فإنْ يَكُ عبدُ اللهِ خَلَّى مكانَهُ ... فما كان وَقَّافاً ولا طائِشَ اليدِ

قليلُ التَّشكِّي للمصيباتِ حافِظٌ ... منَ اليومِ أعقابَ الأحاديثِ في غَدِ

تَراهُ خَمِيصَ البَطْنِ والزَّادُ حاضِرٌ ... عتيدٌ ويَغْدُو في القَمِيصِ المُقَدَّدِ

وإنْ مَسَّهُ الإقواءُ والجَهْدُ زَادَهُ ... سماحاً وإتْلافاً لِما كان في اليدِ

صَبَا ما صَبَا حتى علا الشيبُ رأسَه ... فلمَّا علاهُ قال للباطلِ ابْعَدِ

وطيبَ نفسي أنَّني لم أقلْ لهُ ... كَذَبْتَ ولم أَبْخَلْ بما مَلَكَتْ يدي

وقال المهلهل بن ربيعة وهو يرثي أخاه كليباً:

كليب لا خيرَ في الدُّنيا ومَنْ فيها ... إن أنتَ خلَّيتها فيمن يخليها

كليـب أيُّ فتـى عِـزٍّ ومكـرمـةٍ تحتَ السَّفاسِفِ إذ يعلوكَ ساقيها
نعى النُّعاةُ كليباً لي فقلتُ لهم مادتْ بنا الأرضُ أم مادتْ رواسيها؟!
ليتَ السَّماءَ على مَنْ تحتها وقعتْ وحالتِ الأرضُ فانجابتْ بِمَنْ فيها

قال عمرو بن معد يكرب وهو يهجو جَرْماً ويصف نفسه:

فلمَّـا رأيـتُ الخيـلَ زُوراً كـأنَّهـا جَـداولُ زَرْعٍ خليـتْ فـاسْبَطَـرَّتِ
فَجَـاشَـتْ إلـى النَّفْسِ أوّلَ مَـرَّةٍ ورُدَّتْ علـى مكـروههـا فـاسْتقـرَّتِ
عَلامَ تقولُ الرُّمْحُ يُثْقِلُ عاتِقي إذا أنـا لـم أطْعُنْ إذا الخيـلُ كَـرَّتِ
لحـا اللهُ جَـرْمـاً كلَّمـا ذَرَّ شـارِقٌ وُجـوه كِـلابٍ هـارَشَـتْ فـازْبَـأَرَّتِ
فلـم تُغْنِ جَـرْمٌ نَهْدَهـا إذ تَـلاقتـا ولكـنَّ جَـرْمـاً فـي اللِّقـاءِ ابْـذَعَـرَّتِ
ظَلِلْـتُ كـأنِّـي للـرِّمـاحِ دَرِيئَـةً أُقـاتِـلُ عــن أبنـاءِ جَـرْمٍ وفَـرَّتِ
فلـو أنَّ قَـوْمي أنطقتْني رِماحُهم نطَقْـتُ ولكـنَّ الـرمـاحَ أجَـرَّتِ

وقال عروة بن الورد المعروف بعروة الصعاليك وهو يستنكر حياة الذل، ويحث على طلب المعالي، والمخاطرة في الحياة:

لَحَـى اللهُ صُعْلُـوكـاً إذا جَـنَّ ليلُـه مُصـافِـي المشـاشِ آلِفـاً كُـلَّ مجـزَرِ
يَعُـدُّ الغِنـى مـن دَهْـرِه قُـوتَ ليلـةٍ أصـابَ قِـراهـا مـن خَليـلٍ مُيَسَّـرِ
ينـامُ عِشـاءً ثـم يُصْبِـحُ نـاعِسـاً يحُـتُّ الحَصَـى عـن جَنْبِـه المُتَعفِّـرِ
ولله صعلـوك صَحِيفَـةُ وَجْهِـهِ كضَـوْءِ شِهـابِ القـابِسِ المُتَنَـوِّرِ
مُطِـلاًّ علـى أعـدائِـه يَـزْجُـرُونَـهُ بسـاحَتِهـم زَجْـرَ المَنِيـحِ المُشَهَّـرِ
إذا بَعُـدُوا لا يـأمَنُـونَ اقْتِـرَابَـهُ تشَـوُّفَ أهـلِ الغـائِـبِ المُتَنَظِّـرِ
فـذلـكَ إن يلـقَ المنيـةَ يَلْقَهـا حمِيـداً وإن يَسْتَغْـنِ يـومـاً فَـأجْـدِرِ

وقال أبو كبير الهذلي في وصف صعلوك وهو تأبط شراً:

ولقد سَرَيْتُ على الظَّلامِ بِمَغْشَمٍ جلْـدٍ مــن الفِتيـانِ غَيْـرِ مُهَبَّـلِ
مِمَّـن حَمَلْـنَ بـه وهُـنَّ عَـوَاقِـدٌ حُبُـكَ النِّطـاقِ فَشَبَّ غيـرَ مُثَقَّـلِ
ومُبَـرَّأً مــن كُـلِّ غُبَّـرِ حَيْضَـةٍ وفسـادِ مُـرْضعـةٍ وداءٍ مُعْضِـلِ
فـأتَـتْ بـه حُـوشَ الفُـؤادِ مُبَطَّنـاً سُهُـداً إذا مـا نـامَ لَيْـلُ الهَـوْجَـلِ

وإذا نبذتَ له الحَصاةَ رأيْتَهُ ... فزعاً لِوَقْعَتِها طُمُورَ الأَخْيَلِ
ما إنْ يَمَسُّ الأرْضَ إلا جانبٌ ... منه وحَرْفُ السَّاقِ طَيَّ المِحْمَلِ
وإذا رَمَيْتَ به الفِجَاجَ رَأَيْتَهُ ... يهْوي مَخَارِمَها هُوِيَّ الأَجْدَلِ
وإذا نَظَرْتَ إلى أَسِرَّةِ وَجْهِهِ ... بَرَقَتْ كَبَرْقِ العارضِ المُتَهَلِّلِ

وقال الشنفرى في قصيدته المعروفة بلامية العرب :

أَقِيمُوا بَنِي عَمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُم ... فإنِّي إلى قَوْمٍ سِواكُم لأَمْيَلُ
فقد حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقْمِرٌ ... وشُدَّتْ لِطيَّاتٍ مطايا وأَرْجُلُ
ولي دُونكم أَهْلُون سِيْدٌ عَمَلَّسٌ ... وأَرْقَطُ زُهْلولٌ وعَرْفاءُ جَيْأَلُ
هُمُ الأهلُ لا مستودعَ السِّر ذائعٌ ... لديهم ولا الجاني بما جَرَّ يُخْذَلُ
وكلٌّ أبي باسلٌ غير أنَّني ... إذا اعترضت أولى الطَّرائدِ أبسلُ
وإن مُدّتِ الأيدي إلى الزَّادِ لم أكنْ ... بأعجلهم إذ أجشع القومِ أعجلُ

قال أُحَيْحَةُ[1] بنُ الجُلاح اليثربي :

لَهَوْتُ عن الصِّبا واللهوُ غُولُ ... ونفسُ المرءِ آونةً قَتولُ
ولَوْ أنِّي أشاُ لَنَعِمْتُ بالاً ... وباكَرني صَبُوحٌ أو نَشيلُ
ولاعَبَني على الأَنْماطِ لُعْسٌ ... على أَفْواهِهِنَّ الزَّنْجَبيلُ
ولكِنِّي جَعَلْتُ إزاءَ مالي ... فأُقْلِلُ بعدَ ذلكَ ، أو أُنيلُ
فَمَنْ ذا كاهِنٌ ، أو ذو إلَهٍ ... إذا ما حانَ من رَبٍّ أُفُولُ؟
يُراهِنُني فَيَرْهَنُني بَنِيهِ ... وأَرْهَنه بَنِيَّ بما أَقُولُ ؟
وما يَدْري الفقيرُ متى غِناهُ ... ولا يَدْري الغَنِيُّ مَتَى يَعِيلُ
وما تَدْري وإن أَلْقَحْتَ شَوْلاً ... أتَلْقَحُ بعدَ ذلكَ أم تَحِيلُ

---

(١) أحيحة : سيد الأوس كانت عنده سلمى بنت عمرو إحدى نساء بني عدي بن النجار ، وكانت امرأة شريفة لا تنكح الرجال إلا وأمرها بيدها ، خلف عليها بعد أحيحة هاشم فولدت له عبد المطلب بن هاشم ، وأحيحة يقول هذه القصيدة بعدما تركته سلمى ولحقت بقومها ، وكان أحيحة ينوي الإغارة عليهم ، فأنذرتهم ، وعد صاحب الجمهرة هذه القصيدة من المذهبات .

وما تَـدْري وإن أَنْتَجْـتَ سَقْبـاً لغيـرِكَ أو يكـونُ لـكَ الفَصِيـلُ

وما تَـدْري وإن أَجْمَعْـتَ أمـراً بـأَيِّ الأرضِ يُـدْرِكُـكَ المَقِيـلُ

لَعَمْـرُ أبيـكَ مـا يُغْنِـي مَقامـي مـنَ الفِتيـانِ أَنْجِيـةٌ جَهُـولُ

وقال عدي بن زيد العبادي :

أيُّهـا الشَّـامِـتُ المُعَيـرُ بـالـدَّهـ ـرِ أأنـتَ المُبَـرَّأُ المَـوْفُـورُ؟

أم لَـدَيْـكَ العَهْـدُ الـوثيـقُ مـن الـ أيـام أم أنـتَ جـاهـلٌ مَغْـرُورُ؟

مَـنْ رأيـتَ المَنُـونَ خَلَّـدْنَ أم مـنْ ذا عليـه مِـنْ أنْ يُضَـامَ خَفِيـرُ؟

أينَ كِسْرى ، كِسْرى الملوكِ أَبُو ساسـانَ ، أم أيـنَ قَبْلَـهُ سَـابـورُ؟

وأخـو الحَضْـرِ إذْ بنـاه وإذْ دجْـ ـلـة تُجْبَـى إليـه والخَـابـورُ

شـادَهُ مَـرْمَـراً وجَلَّلـهُ كِلْـ ـسـاً فلِلطَّيـرِ فـي ذُرَاهُ وُكُـورُ

وَتَبيَّـنْ ربَّ الخَـورْنَـقِ إذْ أشْـ ـرفَ يـومـاً ولِلهُـدَى تَفْكِيـرُ

سَـرَّهُ حـالُـه وكَثْـرَةُ مـا يَمْـ ـلِكُ والبَحْـرُ مُعْـرِضـاً والسَّـدِيـرُ

فـارْعَـوَىٰ قَلْبُـهُ فقـال ومـا غِبْـ ـطَـة حَـيٍّ إلـى المَمَـاتِ يَصِيـرُ

ثـم أَضْحَـوْا كـأنَّهُـمْ حـدقٌ جَـ ـفٌ فـأَلْـوَتْ بـه الصَّبا والـدَّبُـورُ

وقال لبيد بن ربيعة في رثاء النعمان :

أَلَا تَسْـأَلانِ المـرءَ مـاذا يُحـاوِلُ أَنَحْبٌ فَيُقْضَى أم ضَلالٌ وباطِلُ؟

وكُـلُّ أُنـاسٍ سوف تَـدْخُـلُ بينهـمْ دُوَيْهِيَـةٌ تَصْفَـرُّ منهـا الأنـامِـلُ

وكُـلُّ امرىءٍ يومـاً سَيَعْلَـمُ سَعْيَـهُ إذا حُصِّلَـتْ عنـد الإلـهِ الحَصَـائِـلُ

* * *

تراجم الشعراء

يبلغ عدد الشعراء الجاهليين المعروفين حوالي ١٥٠ شاعراً ، أو أكثر ، إلا أن الشعراء الذين نالوا الشهرة والاعتراف العام ، وتناول الأدباء والشراح شعرهم بالبحث ، واستجادوا كلامهم ، عددهم قليل ، ينقسمون إلى طبقات باعتبار خصائصهم الشخصية والأدبية .

والواقع أن للناس في تفضيل الشعراء آراء واتجاهات مختلفة متعارضة ، وقد اختلف في ذلك المتقدِّمون والمتأخرون ، كما يختلف الأدباء في المفاضلة بين رجال الطبقة الأولى ، فمنهم من يفضل امرأ القيس ، ومنهم من يفضل النابغة أو زهيراً ، وذلك باعتبار الأذواق والطبائع ، وهي تختلف باختلاف الناس ، إلا أن أغلب الآراء تذهب إلى تفضيل امرىء القيس لابتكاراته وتنوع كلامه ومكانته .

وسنترجم بإيجاز لشعراء المعلقات العشر ، ونخبة من فحول شعراء الجاهلية المعروفين بإجادتهم في صنف من أصناف الشعر .

شعراء المعلقات :

الطبقة الأولى

١ ـ امرؤ القيس بن حجر الكندي :

الملك الضليل ذو القروح ، جندح بن حجر ، من كندة ، أبوه سليل الملوك ، وأمه أخت كليب والمهلهل ابني ربيعة .

نشأ نشأة الفتيان الغواة ، سلك مسلك الصعاليك ، يَغِير وينهب ، يعاقر الخمر ، ويغازل النساء ويلهو ويلعب ، بدأ يقول الشعر في طفولته ، كان يأنف منه الملوك فطرده والده ، فغوى وظل سادراً.

أتاه نعي والده الذي قتله بنو أسد غيلة ، فأراد أن يأخذ الثأر ، وآلى أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ، حتى يقتل من بني أسد مئة ويجز نواصي مئة ، وظل يستنجد ويطلب النصر للانتقام من بني أسد إلى أن مات مسموماً.

شعره:

امرؤ القيس: جزل الألفاظ ، كثير الغريب ، جيد السبك ، سريع الخاطر ، بديع الخيال ، بليغ التشبيه ، وقد ساعدته أسفاره وتنقلاته الكثيرة على استنباط المعاني الجديدة ، فاستحدث في الشعر العربي معاني لم تكن مألوفة لدى الشعراء ، فقلده فيها الشعراء المتأخرون ، ومن مستحدثاته الوقوف على الأطلال ، والبكاء عليها ، وتشبيه النساء بالمها ، والظباء ، والبيض ، وقد أجاد في وصف الليل والخيل ، وشعره صورة صادقة لنفسه لا لمجتمعه ، ويخلو شعره من ذكر الخصال التي يفتخر بها عادة الشعراء العرب من الفروسية والرجولة والمخاطرة ، وخير ما أثر عنه معلقته ، وهو زعيم الشعراء ، ومعلقته تقدم صورة صادقة للشعر في العهد البدائي مفككة الأجزاء تنقصها فكرة مركزية ، وشعره كشعر طرفة ، يمثل أخيلة فتى شارد خليع ، لا يرتبط بقيم في الحياة.

٢ ـ زهير بن أبي سُلْمى المزني:

أحد الشعراء المقدمين الثلاثة (٥٢٠ ـ ٦١٠ م) من الطبقة الأولى ، وهو شاعر عُرف بشعر منقح ، وقول عفيف ، وجيز اللفظ ، غزير المعنى والحكمة ، نشأ في غطفان ، فمدح هرم بن سنان المري سيد ذبيان. من بيت جل أهله من الشعراء ، وبقي على ذروة الشعر إلى العهد الإسلامي ، عني بتربيته أوس بن حجر زوج أمه ، وكان شاعر مضر في زمانه ، فروى عنه

الشعر ، فلما ظهر زهير ، أخمل أوساً ، قال في مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف على الصلح بين عبس وذبيان قصيدة رائعة تشتمل على أفكاره وتجاربه ، وهي من المعلقات السبع المعروفة .

كان زهير متورعاً ، مؤمناً بالبعث والحساب ، قال في معلقته :

فَلاَ تَكْتُمَنَّ اللهَ ما في نُفُوسِكُم لِيَخْفَى ، ومَهْما يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ

كان زهير يهذب شعره ولا يظهره إلا بعد حول ، فسُمِّي بعض شعره بالحوليات ، ويتضمن شعره الصدق ، وعدم المبالغة ، وسهولة العبارة والبعد عن غريب الكلمات ، لا يمدح إلا ما عرف من فضائل ، ومن مزاياه الإكثار من الأمثال والحكم ، وتجارب الحياة ، وهو يصور الحياة وينقدها .

وكان عمر رضي الله عنه يفضله على الشعراء لتعففه .

٣ ـ النابغة الذبياني :

أبو أمامة زياد بن معاوية بن سعد الذبياني أحد فحول شعراء الجاهلية وحَكَمُهم بعكاظ ، وأحسنهم ديباجة لفظ ، وجلاء معنى ، ولطف اعتذار ، كان من أشراف ذبيان ، لازم صحبة الملوك ، وطالت صحبته للنعمان بن المنذر أبي قابوس ، وله مدائح كثيرة وقصيدة استعطاف معروفة ، وقد وشي به عند النعمان ، فهرب إلى ملوك غسان ، ومدحهم ثم اعتذر إلى النعمان فعفا عنه فعاد إلى صلته القديمة به ، وتوفي النابغة في عام ٦٠٤ م وكان من المعمَّرين .

يعتقد من يميل إلى وضوح المعنى ، ورقة التعبير ، والمعاني الحضرية ، أنه أشعر شعراء الجاهلية .

ومن غرر قصائده ، قصيدة مطلعها :

عُوجُوا فَحَيُّوا لِنُعْمٍ دِمْنَةَ الدَّارِ مَاذَا تُحَيُّونَ مِنْ نُوْيٍ وأَحْجَارِ

وله قصيدة رائعة في مدح عمرو بن الحارث الغساني يستهلها بوصف طول الليل :

كِلِيني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ   ولَيْلٍ أُقاسِيهِ بَطِيءِ الكَواكِبِ

وله قصيدة معروفة في وصف المتجردة.

ومن جيد قوله في الاعتذار إلى النعمان، ومدحه، وتبرير زيارته لبلاط الغساسنة:

أَتَانِي أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لُمْتَنِي   وتِلْكَ الَّتي أَهْتَمُّ منها وأَنْصَبُ

فَبِتُّ كأَنَّ العَائِداتِ فَرَشْنَ لي   هَرَاساً به يُعْلَى فِراشِي ويُقْشَبُ

إلى أن قال:

فلا تَتْرُكَنِّي بالوَعِيدِ كَأَنَّني   إلى النَّاسِ مَطْلِيٌّ به القَارُ أَجْرَبُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَاكَ سُورةً   تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَها يَتَذَبْذَبُ

فإِنَّكَ شَمْسٌ والمُلُوكُ كَواكِبٌ   إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخاً لا تَلُمُّهُ   على شَعَثٍ، أَيُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ

فإِنْ أَكُ مَظْلُوماً فَعَبْدٌ ظَلَمْتَهُ   وإنْ تَكُ ذا عُتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ

وكان النابغة يُقْوِي[1] في شعره كقوله:

أَمِنْ آلِ مَيَّةَ رائِحٌ أو مُغْتَدِ   عَجْلانَ ذا زَادٍ وغَيْرَ مُزَوَّدِ

زَعمَ البَوارِحُ أَنَّ رِحْلَتَنا غَدٌ   وبِذَلِكَ خَبَّرَنا الغُرَابُ الأَسْوَدُ

كان النابغة رغم اتصاله بالملوك ومدحه إياهم أبيَّ النفس، فيتجلى سموه الذاتي وعزة نفسه في شعره، وشعره رقيق، منسق الخيال، ويمتاز عن صاحبيه ببديع كنايته، ودقيق إشارته، وصفاء ديباجته، وقلة تكلفه، وموافقة شعره لمجتمعه، فغنى الناس بشعره، وشغلوا أنفسهم به في الجاهلية والإسلام، ومما يدل على مكانته السامية، أن العرب كانوا يقيمون

---

(١) الإقواء: هو الإكفاء، مهموز، وهو اختلاف إعراب القوافي فتكون قافية مرفوعة وأخرى غير مرفوعة، وهو في شعر الأعراب كثير وفي شعر من دون الفحول، ولا يجوز للمولد لأنه عرف عيبه.

له خيمة من أدم في عكاظ ، وكان يحتكم إليه الشعراء والأدباء في الخصومات الأدبية .

٤ ـ أعشى ميمون :

أبو بصير الأعشى ، هو ميمون بن قيس بن جندل من بكر بن وائل (ربيعة) من فحول الشعراء ، وأمدحهم للملوك ، وأوصفهم للخمر ، كان من أهل اليمامة ولذلك عُدَّ من شعراء الحضر ، وهو أول من تكسب بشعره وسأل ، وسُمِّي لطلاوة شعره ، وقوة طبعه صناجة العرب ، قيل عنه : «ما مدح أحداً إلا رفعه ، ولا ذم أحداً إلا وضعه» وقصته مع المحلِّق مشهورة ، وعدّه بعض محبيه من أصحاب المعلقات .

ومن جيد شعره ما قاله في مدح النبي ﷺ ، ولم يوفق في زيارته ، وتشتمل قصيدته على أربعة وعشرين بيتاً ، مطلعها :

أَلَـمْ تَغْتَمِـضْ عَيْنـاكَ ليلـةَ أَرْمَـدَا ... وَعَـادَكَ مـا عـادَ السَّليـمَ المُسَهَّـدا
فَـآليتُ لا أَرْثِي لَهَـا مِـنْ كَـلاَلَـةٍ ... ولا مِـنْ حَفًـى حتَّـى تَـزُورَ مُحَمَّـدا

وقال في مدح المحلِّق قصيدة مطلعها :

أَرِقْـتُ ومـا هَـذَا السُّهـادُ المُـؤَرِّقُ ... وما بِيَ من سُقْمٍ وما بيَ مَعْشَقُ

ومن الناس من يجعل الأعشى أحد الفحول الأربعة ، وأفضلهم إذا طرب ، ولذلك كانوا يتسابقون إلى استضافته ، ولكلامه وقع وروعة لا يُمحى أثرها ، ومن جيد شعره قصيدته الطويلة ، يعدها بعض محبيه من المعلقات ، مطلعها :

وَدِّعْ هُرَيْـرَةَ[١] إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ ... وهـل تُطِيـقُ وَدَاعـاً أيُّهـا الـرَّجُـلُ
غَـرَّاءُ فَـرْعَـاءُ مَصْقُـولٌ عَـوارِضُهـا ... تَمْشِي الهُوَيْنا كما يَمْشِي الوَجِي الوَحِلُ
كـأنَّ مِشْيَتَهـا مِـنْ بَيـتِ جَـارَتِهـا ... مَـرُّ السَّحَـابَـةِ لا رَيْـثٌ ولا عَجَـلُ
مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ ... خَضْـرَاءُ جـادَ عليهـا مُسْبِـلٌ هَطِـلُ

---

(١) هريرة : مولاة حسن بن عمرو بن مرثد .

يُضَاحِكُ الشَّمسَ منها كَوْكَبٌ شَرِقٌ   مُـؤَزَّرٌ بِعَمِيـمِ النَّبْـتِ مُكْتَهِـلُ
يَـوْمـاً بـأطْيَبَ منهـا نَشْرَ رائِحَـةٍ   ولا بِـأَحْسَـنَ منهـا إذْ دَنَـا الأُصُـلُ
ألسـتَ مُنْتَهيـاً عـن نَحْـتِ أَثْلَتِنـا   ولَسْـتَ ضَـائِرَهـا مـا أَطَّـتِ الإِبِـلُ
كَنَـاطِـحٍ صَخْـرةً يـومـاً لِيُـوْهِنَهـا   فَلَمْ يَضِرْها وأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

والأعشى أول من سأل بشعره ، ولعله يرجع إلى سوء بصره فجعل شعره وسيلة للتكسب بمدح الملوك والأغنياء ، وذكر الخمر ، والتغزل بالنساء ، ليشيع شعره في الشباب ، وأجود شعره في المدح ، وله هجاء مؤلم وغزل صريح أيضاً ، واستعمل الأعشى في كلامه بعض الألفاظ الفارسية ، واستعمل أيضاً بعض الألفاظ الإسلامية لأنه وُجِدَ في عصر الرسول ﷺ.

٥ ـ طرفة بن العبد البكري :

نشأ طرفة يتيماً ، فعاش شارداً ، حائراً لإغفال بني أعمامه ، فشب شاكياً ناقماً بخشونة بدوية وبطالة مفسدة ، وكان متوقد الذهن حاد البادرة ، فعد من فحول الشعراء ، وهو دون العشرين ، وفي الناس من يعتقد أنه لو عاش لكان قد أخمل امرأ القيس ، كما أخمل زهير أوس بن حجر .

وشعر طرفة معقد التركيب ، غريب اللفظ ، بدوي الفكر ، ضيق الموضوع ، وقد عرف بمعلقته ، ولم يرو الرواة غيرها من شعره ، وشعره يدل على حرمانه في الحياة وقدره المنحط في مجتمعه ، لفقره وإدمان الخمر والإسراف والمجون .

وتمتاز معلقته بدقة وصفه لأعضاء الناقة ، بحيث يحار القارىء هل هو يشبب بغانية أم يصف ناقة ، وقد تجاوز في ذلك إلى حد أنه يبدو في أبيات بيطاراً ، وفي آخر المعلقة ينضج فكره ، وينتقل إلى حقائق الحياة ، ويسلك مسلك الحكماء ، ومما يميز معلقته عن معلقة امرىء القيس ، أن أجزاء معلقته مرتبطة منسقة ، وتخلو من التناقض إلا أنه أكثر من استعمال الألفاظ الغريبة .

مطلع معلقته:

لِخَـوْلَـةَ أَطْـلاَلٌ بِبُـرْقَـةِ ثَهْمَـدِ تَلُوحُ كباقي الوَشْمِ في ظَاهِرِ الْيَدِ
وُقُـوفاً بِهـا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُـمْ يَقُـولُـونَ لا تَهْلِـكْ أَسَـىً وَتَجَلَّـدِ

٦ ـ عمرو بن كلثوم التغلبي:

شب عمرو بن كلثوم وأمه بنت المهلهل بن ربيعة، عزيز النفس أبيَّ الضيم، وساد قبيلته وهو دون العشرين، وكان عهده عهد اشتداد الخصومة والنزاع بين بكر وتغلب من جراء حرب البسوس، وقد أنهكت الحرب القبيلتين، وبدأت محاولات الوساطة بين الفريقين المتحاربين عن طريق عمرو بن هند.

وعُرف عمرو بمعلقته المشهورة التي مطلعها:

أَلاَ هُبِّـي بِصَحْنِـكِ فَـاصْبَحِيْنـا ولا تُبْقِـي خُمُـوْرَ الأَنْـدَرِينـا
مُشَعْشَعَـةً كَـأَنَّ الحُـصَّ فيهـا إذا مـا المَـاءُ خَـالَطَهـا سَخِينـا
صَبَنْـتِ الكَـأْسَ عَنَّـا أُمَّ عَمْـرٍو وكـانَ الكـأسُ مَجْـراهـا اليَمِيْنـا

ولم يرو شيء غير معلقته، والمعلقة صادرة عن حادثة شخصية وقعت له أمام عمرو بن هند، واختلف الرواة في سبب إنشادها، وتغلب على معلقته الارتجالية، وهي سريعة الخطى، حادة تخضع لطبيعة التهور والتزمُّت وعاطفة الانتقام، على غرار قصائد المرقش، والسموءل بن عاديا، وقد شغلت معلقته أذهان رجال قبيلته دهراً.

٧ ـ الحارث بن حلزة:

أبو الظليم الحارث بن حلزة اليشكري البكري، كان في بني بكر مكان عمرو بن كلثوم في بني تغلب، واشتهر بمعلقته التي ارتجلها في حضرة الملك عمرو بن هند عفو الساعة نال بها عطفه، ونصح فيها قومه، وشكا فيها بني تغلب وذكر أيام العرب، ويعتقد بعض الأدباء أن الحارث بن حلزة لم يكن في منزلة فحول الشعراء، وإنما تعصب بنو بكر فأدخلوه في صف

الفحول ، ويقال : إن معلقته وميل الملك عمرو بن هند إليه أثارت حفيظة عمرو بن كلثوم فأنشد معلقته ، ورأي آخر يقول إن عمراً أنشد قصيدته بعد قتل عمرو بن هند انتقاماً من إساءته إلى أمه . نموذج من معلقته ويقول فيها :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِها أَسْمَاءُ ... رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ
آذَنَتْنَا بِعَهْدِها ثُمَّ وَلَّتْ ... ليتَ شِعْري مَتَى يكونُ اللِّقَاءُ
إِنَّ إِخْوانَنا الأَراقِمَ يَغْلُو ... نَ علينا في قِيلِهِمْ إِحْفَاءُ
يَخْلِطُونَ البريءَ مِنَّا بِذِي الذَّنْـ ... ـبِ ولا يَنْفَعُ الخَلِيَّ الخَلاَءُ

٨ ـ لبيد بن ربيعة العامري :

أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامري ، نشأ في ظل النعيم وذكر الندى والبأس ، أبوه ربيعة المقترين ، وعمه ملاعب الأسنة فارس مضر ، قال الشعر وعمره لم يبلغ عشر سنين .

كان لبيد جواداً ، كريم النفس سخياً ، يشف شعره عن معان رفيعة ، وهو منسق العبارة ، فخم الأسلوب ، تغلبه الغنائية ، قليل الحشو ، والمبالغة ، وتغلب المروءة والنبل وكرم النفس على النخوة ، والإباء الزائد الذي تعود عليه الشعراء في عصره ، صادق التصوير .

أسلم لبيد وعاش في الإسلام ثمانين سنة ، لم يقل بعد الإسلام شعراً .

نموذج من معلقته :

عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا ... بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجَامُهَا
فَمدافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُهَا ... خَلَقاً كَمَا ضَمِنَ الوُحِيَّ سَلاَمُهَا

ومن جيد قوله في رثاء أخيه :

بَلِينا وما تَبْلَى النُّجُومُ الطَّوالِعُ ... وتَبْقَى الدِّيارُ بَعْدَنا والمَصَانِعُ
وَقَدْ كُنْتُ في أَكْنافِ جارِ مَضِنَّةٍ ... فَفَارَقَني جارٌ بأَرْبَدَ نَافِعُ
وما النَّاسُ إلاَّ كالدِّيارِ وأَهْلها ... بها يَوْمَ حَلُّوها وغَدواً بَلاقِعُ
وما المرءُ إلاَّ كالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ ... يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إذْ هُوَ سَاطِعُ

وما المالُ والأَهْلُونَ إلاَّ وَدِيعةٌ ولا بُدَّ يوماً أَنْ تُرَدَّ الوَدَائِعُ
وما النَّاسُ إلا عامِلانِ فَعَامِلٌ يُتَبِّرُ ما يَبْنِي وآخرُ رافِعُ

٩ ـ عنترة بن شداد العبسي:

عنترة بن عمرو بن شداد العبسي نشأ في حجر شداد، فنسب إليه دون أبيه، أمه حبشية، وهو من هجناء العرب وأغربتهم، برع في الطراد والفروسية حتى أصبح قائد كتيبة، وقد أغارت بعض أحياء العرب على عبس، وجرى القتال فقال له أبوه «كر يا عنترة» فقال: «العبد لا يحسن الكر وإنما يحسن الحلب والصر» فقال: «كر وأنت حر» فقاتل قتالاً شديداً حتى هزم المغيرين فادعاه أبوه بعد ذلك وألحق به نسبه.

صار عنترة مضرب المثل في الإقدام والجراءة، وألفت باسمه مسرحيات وأناشيد، وللناس فيه آراء متضاربة، وقد نسب إليه من الشعر وأضيف إلى معلقته، ويجمع عنترة في شعره بين حلاوة الغزل ومتانة الفخر، وهو في وصف القتال والفخر أشعر.

نموذج من معلقته: .

هَلْ غَادَرَ الشُّعَراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ
يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالْجِوَاءِ تَكَلَّمِي وعِمِي صَبَاحاً دَارَ عَبْلَةَ واسْلَمِي

١٠ ـ عبيد بن الأبرص الأسدي:

وهو عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم، ويكنى أبا زياد، واسم أمه أمامة، نادم ملوك الحيرة مع النابغة الذبياني، وشعر عبيد من أصدق الشعر الجاهلي الحافل بسورة الفخر الجريء مع جد في تناول الحياة وإشراق في الوصف والعتاب، وهو من فحول شعراء الجاهلية، جعله ابن سلام في الطبقة الرابعة من فحول الشعراء، وقرن به طرفة وعلقمة بن عبدة، وهو من المعمَّرين، قتله المنذر بن امرىء القيس اللخمي، ومن أجود شعره قصيدته التي يقول فيها:

أَقْفَـرَ مِـنْ أَهْلِـه مَلْحُـوبُ فَـالقُطَّبِيَّـاتُ فـالـذَّنُـوبُ[1]
فَـرَاكِـسٌ فَثُعَيْلِبَـاتٌ فَـذَاتُ فَـرْقَيْـنِ فَـالْقَلِيـبُ[2]
فَعَـرْدةٌ فَقَفَـا حِبِـرٍّ لَيـس بهـا مِنْهُـمْ غَـرِيْـبُ[3]

ويقول فيها:

مَـنْ يَسْـأَلِ النَّـاسَ يَحْـرِمُـوهُ وسَـائِـلُ اللهِ لا يَخِيـبُ
بِـاللهِ يُـدْرَكُ كُـلُّ خَيْـرٍ والقَـوْل فـي بَعْضِـهِ تَلْغِيْـبُ
واللهُ لَيـسَ لَـهُ شَـرِيـكٌ عَـلَّامُ مـا أَخْفَـتِ القُلُـوبُ

* * *

(١) ملحوب: ماء لبني أسد بن خزيمة. القطبيات والذنوب: موضعان.
(٢) راكس ثعيلبات ذات فرقين: أسماء مواضع، القليب: البئر.
(٣) عردة: هضبة وهو ماء لكعب بن أبي بكر، حِبـرّ: جبل في ديار سليم.

شعراء آخرون

الشعراء الأقدمون

١ ـ المهلهل بن ربيعة :

أبو ليلى عدي بن ربيعة من بني جشم من بني تغلب ، وهو من أقدم الشعراء الذين وصلت إلينا أخبارهم ، وهو خال امرىء القيس ، وجدّ عمرو بن كلثوم التغلبي لأمّه ، ويعتقد الرواة أنه أول الشعراء ، قال الفرزدق :

.... وَمُهَلْهِــــلُ الشُّعَـــراءِ ذَاكَ الأَوَّلُ

والحقيقة أنه أول من قصد القصيد ، وأطال فيه ذكر الوقائع. وكان المهلهل يعيش حياة لهو ومجون ، وكان أخوه كليب (وائل بن ربيعة) يعيره ويدعوه بزير النساء ، وقتل جساس بن مرة الشيباني كليباً ، انتقاماً من قتل ناقة كانت لأحد ضيوف جساس ، وكانت الناقة ترعى مع إبل كليب في مكان واحد ، فثار المهلهل على قتل أخيه ، وأقسم أن ينتقم فنشبت حرب عرفت بحرب البسوس ، دامت أربعين سنة ، وتفتحت قريحة المهلهل في الحزن على كليب ، فجادت بقصيدة في الرثاء ، وقصائد رثاء المهلهل وجدانية ومثيرة ، وهو مجيد في الرثاء ، وله شعر جيد في الحماسة أيضاً ، وعدّه صاحب جمهرة أشعار العرب من أصحاب المنتقيات .

ومن مراثيه المشهورة :

أَجبنـــي يـــا كُليـــبُ خَـــلاَك ذَمّ   لَقَـــد فُجِعَـــتْ بفـــارِسِهـــا نِـــزَارُ

وإنَّـكَ كنـتَ تحلـمُ عـن رجـالٍ وتَعْفُـو عنهـم ولـكَ اقْتِـدَارُ
فـلا تبعـدْ فَكُـلٌّ سـوف يلقـى شعُـوبـاً يَسْتَـدِيـرُ بهـا المَـدَارُ
كـأنّـي إذ نعـى النَّـاعـي كُليبـاً تطـايـرَ بيـن جنبـي الشَّـرَارُ
فـدرتُ وقـد عشـا بَصَـري عليـه كمـا دارتْ بشـارِبهـا العقـارُ

٢ ـ عمرو بن قَميئة (٥٤٠ م) :

عمرو بن قَميئة من بكر بن وائل ، وهو ابن أخي المرقش الأكبر ، وعم المرقش الأصغر ، وعم والد طرفة بن العبد ، وهو شاعر فحل لكنه مقل ، وأكثر شعره في مدح عمه مرثد بن سعد ، وقد كان عمرو شاباً جميلاً فأحبته زوجة عمه ، فأبى فشكت إلى زوجها أن عمراً ابتغاها ، فخاف عمرو عمه فهرب إلى المنذر بن ماء السماء ، وجعل ينظم الشعر في مدح عمه والتبرؤ عما نسبته امرأة عمه إليه .

رافق عمرو بن قميئة امرأ القيس في رحلته إلى الروم ، لأنه كان في خدمة والده حجر بن الحارث ، وكان قد بلغ تسعين سنة من عمره ، فأرهقه السفر وتوفي في أثناء الرحلة ، فسماه العرب عمراً الضائع ، وتدَّعي بكر لعمرو بن قميئة بالتقدم في الشعر .

ومن مختار كلامه :

رَمَتْنِي بَنَاتُ الدَّهْرِ مِنْ حيثُ لا أَرَى فكيـف بِمَـنْ يُـرْمَـى وليـس بِـرَامِ
وَأَهْلَكَني تَأْمِيلُ ما لستُ مُدْرِكاً وتَـأْمِيـلُ عـامٍ بعـد ذاكَ وعـامِ
إذا ما رآني الناسُ قالُوا : ألم تَكُنْ جَلِيـداً حَـدِيـثَ السِّـنِّ غَيْـرَ كَهَـامِ
فلـو أنَّ مـا أُرْمَـى بِنَبْـلٍ رَمَيْتُهـا ولكنَّنـي أُرْمَـى بغيـرِ سِهـامِ
على الرَّاحَتَيْنِ مرةً وعلى العَصَا أَنُـوءُ ثـلاثـاً بَعْـدَهُـنَّ قيـامـي
كَأَنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسعينَ حِجَّةً خَلَعْـتُ بهـا عَنِّـي عـذارَ لِجَـامِـي

وقد أشار إليه امرؤ القيس في قصيدة مطلعها :

أَرَىٰ أُمَّ عَمْـرو دَمْعُهـا قـد تَحَـدَّرا بُكاءً على عَمْرو ، وما كان أَصْبَرا

وقال فيها :

بَكَىٰ صَاحِبِي لَمَّا رأى الدَّرْبَ دُونَه   وأَيْقَنَ أنَّا لاَحِقانِ بِقَيْصَرا
فَقُلْتُ لَهُ: لا تَبْكِ عَيْنُكَ ، إنَّما   نُحَاوِلُ مُلْكاً أو نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

٣ ـ المرقش الأكبر (٥٥٢ م):

عوف بن سعد ، وقيل عمرو ، من بكر بن وائل ، ولد في اليمن ، ثم نشأ في العراق ، وتعلم القراءة والخط ، وفي عام ٥٢٤ م اتصل بالحارث بن أبي شمر الغساني ، ونادمه ومدحه ، فاتخذه الحارث كاتباً.

واشترك المرقش في حرب البسوس ، وأبلى فيها بلاءً حسناً . كان المرقش الأكبر من العشاق العرب المشهورين ، ولذلك أحسن شعره هو الغزل ، وله شعر في الحماسة والفخر ، ووصف الإبل ، ويُعدُّ من رجال الطبقة الأولى ، وشعره جميل في أسماء حبيبته ، ومن قوله فيها:

أَمِنْ آلِ أَسْماءَ الطُّلُولُ الدَّوارِسُ   يخَطِّطُ فيها الطَّيْرُ قَفْرٌ بَسَابِسُ
ذَكَرْتُ بِها أَسماءَ لو أَنْ وَلْيَها   قَرِيبٌ ولكِنْ حَبَسَتْنِي الحَوَابِسُ

ومن خيار كلامه :

سَرَىٰ لَيْلاً خَيالٌ مِنْ سُلَيْمى   فَأَرَّقَنِي وأَصْحابِي هُجُودُ
فَبِتُّ أُدِيرُ أَمْرِي كلَّ حالٍ   وأَرْقُبُ أَهْلَها وهُمُ بعيدُ

٤ ـ المرقش الأصغر (٥٧٠ م):

هو ربيعة بن سفيان بن سعد ، ابن أخي المرقش الأكبر ، كان كعمه من سادة قومه ، وكان ممن اشتركوا في حرب البسوس ، وأبلوا فيها بلاءً حسناً ، وكان جميلاً ، وهو من عشاق العرب المعروفين ، وكان مغامراً ، وله مغامرات في الحب والغرام ، وشعر جيد فيه ، وهو حسن الشعر.

وبعض الناس يفضلونه على عمه ، برع في الغزل ، والخمر ، والحماسة ، وله أبيات في الحكمة والصداقة ، وصاحبته فاطمة بنت

والأصمعيات. من مختار كلامه في الغزل:

وما قَهْوَةٌ صَهْباءُ كالمِسْكِ ريحُها تُعَلَّى على النَّاجُودِ طَوْراً وتُقْدَحُ
ثَوَتْ في سِباءِ الدِّنِّ عشرينَ حِجَّةً يُطـانُ عليهـا قَـرْمَـدٌ وتُـرَوَّحُ
سَبَاها رجالٌ من يَهُودَ تَبَاعَدُوا لِجيلانَ يُدْنِيها من السُّوق مُرْبِحُ
بِأَطْيَبَ مِنْ فِيها إذا جِئْتُ طارِقاً مِنَ اللَّيْلِ بَلْ فُوها أَلَذُّ وأَنْصَحُ

٥ ـ أوس بن حجر:

أوس بن حجر من بني تميم، أصله من البحرين، قام برحلات في نجد والعراق، وعاش في بلاط الحيرة، وهو الذي حضَّ عمرو بن هند على الأخذ بثأر أبيه المنذر بن ماء السماء، وكان أوس قد تزوج أم زهير بن أبي سُلْمى، مات قبل الإسلام.

أوس من فحول شعراء الجاهلية، وهو شاعر غزل، واشتهر أيضاً بالطرد (وصف الصيد ووصف السلاح) ويجيد وصف القوس، وله شعر في الحكمة، كان زهير راوية لأوس بن حجر، وتقدم تميم أوساً على سائر الشعراء.

* * *

الشعراء الفرسان

١ ـ دريد بن الصمة (٦٠٣ م):

هو أبو عمرو معاوية بن الحارث بن معاوية بن بكر بن علقمة بن غزية بن جشم من هوازن ، فارس شجاع شاعر فحل ، سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم ، كانت أمه بنت معديكرب ، أدرك الإسلام ، ولم يسلم ، وخرج يوم حنين للمشركين ، ولا فضل فيه للحرب وإنما أخرجوه تيمناً به والاقتباس من رأيه ، فقتل دريد يومئذ ، وكان له إخوة منهم عبد الله الذي قتله غطفان ، فحزن عليه ورثاه في قصيدة له رائعة ، وكانت امرأته أم معبد لما رأته شديد الجزع على أخيه عاتبته وصغرت شأن أخيه فطلَّقها ، وقال فيها قصيدته التي مطلعها:

أَرَثَّ جَـدِيـدُ الحَبْلِ مِـنْ أُمِّ مَعْبَدِ بِعـاقِبَـةٍ قـد أَخْلَفَـتْ كُـلَّ مَـوْعِـدِ

كان دريد شاعراً مكثراً ، ومعظم شعره في الحماسة والرثاء.

وخطب دريد الخنساء بنت تماضر فرفضت فهجاها.

٢ ـ علقمة الفحل (٦٢٥ م):

علقمة بن عبدة بن النعمان التميمي ، شاعر من الشعراء الفحول ، معاصر لامرىء القيس ، قال حماد: كانت العرب تعرض أشعارها على قريش فما قبلوا منها كان مقبولاً وما ردوا منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة فأنشدهم:

هل ما علمتَ وما استُودِعتَ مَكْتُومْ ... أم حَبْلُهـا إذْ نَـأَتْـكَ اليـومَ مَصْـرُومُ

فقالوا: هذا سمط الدهر، وفي العام المقبل أنشد:

طَحَا بِكَ قلبٌ في الحِسانِ طَرُوبُ ... بُعَيْـدَ الشَّبـابِ عَصْـرَ حَـانَ مَشِيـبُ

قالوا: هاتان سمطا الدهر.

ويعرف علقمة بن عبدة بعلقمة الفحل، تمييزاً له من رجل من قومه يلقب بعلقمة الخصي، اسمه علقمة بن سهل، وعلقمة الفحل شاعر بدوي، اشتهر بالطرد، ووصف الفرس والنعامة، وله شيء من المدح والغزل.

٣ ـ زهير بن جناب الكلبي (٥٦٠ م):

هو زهير بن جناب من بني قضاعة من كلب من اليمن، كان أميراً وسيداً وفارساً شجاعاً كثير الغزو ومظفراً، وأقام ملوك اليمن زهيراً عاملاً على بكر وتغلب لجمع الإتاوة، وكان زهير عاتياً فاعتدى عليه رجل من بني تيم اللات، وطعنه طعنة غير بالغة، فلما شفي زهير سار بجموع من قومه على بكر وتغلب قبل حرب البسوس، وأكثر منهم القتل وأسر جماعة من رؤسائهم وفرسانهم فيهم كليب والمهلهل، ثم أغار عليهم بنو ربيعة وانتصروا في يوم خزازى.

ومن شعر زهير المشهور:

المَـوْتُ خَيْـرٌ لِلْفَتـى ... فَلْيَهْلِكَـنْ وبـه بَقِيَّـة

مِـنْ أنْ يُـرَى الشَّيْـخُ الكبيـرُ ... يُقـادُ يُهْـدَى بـالعَشِيَّـة

وقوله:

إذا قـالَـتْ خَـذَامِ فَصَـدِّقُـوهـا ... فـإنَّ القَـوْلَ مـا قَـالَـتْ خَـذَامِ

٤ ـ الأخنس بن شهاب بن شريق التغلبي:

من شعراء حرب البسوس، وهو من شعراء الطبقة الثالثة، له قصيدة رائعة يذكر فيها فضل قومه، وفضل القبائل الساكنة في نجد ومنازلها، مطلعها:

فَمَنْ يَكُ أمسى في بِلاد مَقَامة يُسـائِـل أَطْـلالاً بهـا لا تُجـاوِبُ
لابنـةِ حِطّـانَ بـنِ عـوفٍ مَنَـازلٌ كما نَمَّقَ العنوانَ في الرِّقِّ كاتبُ
تَمْشِـي بـه حـول النّعـام كـأنّهـا إمـاءٌ تُـزَجّـى بـالعَشِـيِّ حَـواطِـبُ
وقفـتُ بهـا أبكـي وأشْعـرُ سُخْنَـةً كما اعتادَ محموماً بخيبرَ صالبُ

٥ ـ عامر بن الطفيل :

عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر من بني عامر بن صعصعة وهو ابن عم لبيد ، ولد في ٥٥٥ م ونشأ فارساً شجاعاً وساد قومه ، وكان قائدهم ، وخاض معارك في الجاهلية ، وعدا عامر على جماعة من المسلمين أرسلهم النبي ﷺ لغرض الإسلام عندما وفد عامر في عام ٦٢٩ م إلى المدينة فقال : أتجعل لي نصف ثمار المدينة وتجعلني ولي الأمر من بعد ، فقال ﷺ : اللهم اكفني عامراً واهد بني عامر ، فطعن (أصابه الطاعون) في طريقه فمات .

عامر شاعر فحل مجيد ، برع في الحماسة والفخر ، ووقعت بين عامر والنابغة الذبياني منافرة .

٦ ـ طفيل الغنوي :

أبو قران طفيل بن عوف ، من بني غني بن أعصر ، شاعر شجاع فارس ، يتعهد تربية الخيل ، وتضميرها لأهلها بأجر ، كان أسن من النابغة ، توفي قبل الإسلام ، وهو من الشعراء الفحول المعدودين ، تبعه في فنون الشعر النابغة ، وزهير ، وقال الأصمعي : طفيل عندي في بعض فنون الشعر أشعر من امرىء القيس .

يجيد طفيل وصف الخيل ، وله شعر في الفخر ، والمدح ، والرثاء ، والوصف ، والغزل .

٧ ـ بشر بن أبي خازم الأسدي :

كان بشر فارساً وبطلاً شجاعاً ، شهد الحرب بين بني أسد وبين بني طي ،

وهو من كبار شعراء بني أسد ومشاهيرهم ، وشعره متين السبك بدوي المنحى ، وله شعر جيد في الحماسة والفخر والوصف ، وهو من شعراء المجمهرات في جمهرة أشعار العرب ، واختار من كلامه المفضل الضبي أيضاً في المفضليات ، وكان في شعره إقواء كقوله :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ طُولَ الدَّهْرِ يُسْلِي ويُنْسِي مِثْلَ ما نُسِيَتْ جُذَامُ

إلى قوله :

وكانُوا قَوْمَنا فَبَغَوا عَلَيْنا فَسُقْنَاهم إلى البلدِ الشَّآمِ

* * *

الشعراء الصعاليك

١ ـ عروة بن الورد العبسي (م٦١٥ م) :

عروة بن الورد ، أو عروة الصعاليك ، شاعر فارس ، من بني عبس ، وصعلوك من صعاليك العرب المعدودين ، والأجواد ، ولقب بعروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا عجزوا عن الإغارة ، ولم يكف لهم معاش ، وهو جواد ، ويكثر في شعره من ذكر الكرم والسماحة والحماسة ، وقد فضله بعض الأدباء على حاتم في الكرم .

ومن جيد شعره قوله :

إِنِّي امْرؤٌ عافي إنائيَ شِرْكَةٌ ... وأنتَ امْرُؤٌ عافي إنائِكَ واحدُ
أَتَهزَأُ مِنِّي أن سَمِنْتَ وأن ترى ... بوجهي شُحُوبَ الحَقِّ والحَقُّ جاهِدُ
أُقَسِّمُ جسمي في جُسُومٍ كثيرةٍ ... وأَحْسُو قراحَ المَاءِ والمَاءُ بارِدُ

٢ ـ تأبط شراً (م٥٣٠ م) :

ثابت بن جابر الفهمي من قيس ، كان من أغربة العرب أسود ، لأن أمه كانت حبشية زنجية .

وتأبط شراً شاعر من الصعاليك ، حاد البصر والسمع ، عداء يلحق بالخيل والظباء ، ويغزو على رجليه وحده ، وتزوجت أمه أبا كبير الهذلي ، وحاول أبو كبير قتله مراراً ولكن تأبط شراً كان يقظاً جداً ، فأفلت من القتل .

ويشك الجاحظ في كثير من شعره ، ويوجد تداخل في شعره وشعر خاله

الشنفـرى ، ولـه شعـر فـي الأصمعيـات ، والمفضليـات ، والأغـانـي ، والحماسة .

٣ ـ الشنفرى :

الشنفرى يمني الأصل من الأزد ، وهو شاعر صعلوك من العدائين الفُتَّاك الرَّجِلين ، كان يضرب به المثل في سرعة الركض ، ومدى القفز ، قيل : كانت الخيل لا تلحقه ، وقد وقع الشنفرى في أسر بني سلامان من بني فهم ، وهو صغير ، فلما عرف حقيقة أمره أقسم أن يقتل مئة منهم لأنهم استعبدوه ، فقتل تسعة وتسعين ثم قتل .

الشنفرى من الشعراء الصعاليك المعروفين ، وله شعر في الحماسة والفخر ، وله لامية العرب ، وبعض الأخباريين يشكُّون في نسبتها إليه ، وقد نالت هذه القصيدة القبول ، وكثر شرحها .

٤ ـ السليك ابن السلكة السعدي :

سليك بن عمرو أحد بني مقاعس والسلكة أمه ، وهي أمة سوداء ، والده عمرو بن يثربي بن كعب بن سعد التميمي ، والسليك أحد صعاليك العرب العدائين الأربعة الذين كانوا لا يلحقون ، ولا يلحق بهم الخيل إذا عدوا ، وكان يعرف الطرق ولا يضل ، فقيل فيه : أهدى من قطا ، وكان لا يغير على مضر وإنما كان يُغير على اليمنيين ، وإذا لم يتيسر ذلك أغار على ربيعة ، وهو أشد رجال العرب ، وأذكرهم وأشعرهم .

* * *

الشعراء الحكماء

١ ـ أمية بن أبي الصلت:

هو أمية بن أبي الصلت من بكر بن هوازن ، وأمه رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف ، كان أميَّة تاجراً من أهل الطائف ينتقل بين الشام واليمن ، وقد مال منذ صباه إلى التحنف ، وكان يقرأ الكتب الدينية المتقدمة ، فهجر عبادة الأوثان ، وترك شرب الخمر ، وكان يقول إن نبياً سيبعث وقد أظل زمانه ، ولما جاء الإسلام كاد يسلم ولكن قومه من ثقيف عادوا الإسلام والرسول ﷺ فلم يسلم ، وسمع الرسول ﷺ شعره فقال: آمن لسانه وكفر قلبه ، وكان أمية يحرِّض قومه على قتال المسلمين ، ورثى أمية القتلى من المشركين في غزوة بدر.

وقد ضاع القسم الأكبر من شعره ، وشعره كثير التكلُّف ضعيف البناء ، وفيه من الألفاظ والتعابير ما هو غير مألوف لدى العرب ، ولذلك لا يحتج اللغويون بشعره.

وأكثر شعره في الزهد وكلام الله والآخرة ، والحكمة[١].

٢ ـ الأفوه الأودي:

هو صَلاءة بن عمرو بن مالك بن عوف من سعد العشيرة ، من بني مذحج

---

(١) تاريخ الأدب العربي: عمر فروخ.

من اليمن ، ويقال أيضاً الأفوه الأودي وكان يكنى أبا ربيعة ، وكان سيد قومه وقائدهم ، وهو من مشاهير الشعراء القدماء في الجاهلية ، وكان نحل الشعر لشهرته ، وأكثر شعره في الحكمة ، وهو معدود في الحكماء ، ومن أبياته المشهورة في الحكمة:

والبيتُ لا يُبْتَنَى إلاَّ لَهُ عَمَدٌ ... ولا عِمادَ إذا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ

فإن تُجَمَّعْ أوتادٌ وأَعْمِدَةٌ ... وساكنٌ بلغوا الأمرَ الذي كادُوا

لا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لا سَرَاةَ لَهُمْ ... ولا سَراةَ إذا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

تُهدى الأمورُ بأهل الرأي ما صَلَحَتْ ... فإنْ تَوَلَّوْا فبالأَشْرَارِ تَنْقَادُ

* * *

الشعراء الأجواد

١ ـ حاتم الطائي (م٦٠٧) :

حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي ، أمه عتبة بنت عفيف ، نشأ حاتم كريماً ، وورث الكرم إلى حد الإسراف من والدته التي كانت غنية وكريمة مبذرة ، وكان والده ممسكاً ، قال أبو عبيدة : أجواد العرب ثلاثة ، كعب بن أمامة ، وحاتم طيء ، وهرم بن سنان .

تزوج حاتم مرتين : النوار ، وكانت تلوم حاتماً على كرمه ، ثم تزوج ماوية بنت عفزر من بنات ملوك اليمن ، وكانت هي تحب الكرم ، وخلف ثلاثة أولاد : عبد الله ، وعدياً ، وسفانة ، وقد غطى ذكر الكرم والإنفاق على شعر حاتم وحياته .

شعراء اليهود والنصارى :

أشهر شعراء اليهود : السموءل بن عاديا ، كان يسكن القصر الأبلق من تيماء ، وشهرته بالشعر أقل من شهرته بالوفاء ، لما لقي في سبيله من رزء ولده لوفائه مع امرىء القيس ، وتنسب إليه قصيدة :

إذا المرءُ لَمْ يدنسْ مِنَ اللُّؤمِ عِرْضُهُ   فَكُـلُّ رِداءٍ يَـرْتَـدِيـهِ جَمِيـلُ

والحق إنها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، ولا توجد للسموءل بن عاديا إلا مقطوعات قليلة من الشعر ، وكان في المدينة شعراء اليهود ، ولكن دورهم في الشعر العربي لم يكن ملحوظاً .

الشعراء النصرانيون:

كان العرب على اتصال دائم بالنصرانية ، فقد كان الغسانيون قد تنصروا في دمشق واللخميون في الحيرة ، والنصرانية كانت منتشرة في اليمن ، إلا أن الشعراء العرب المعروفين لم يكونوا نصرانيين ، ولكنهم احتراماً لدين ممدوحيهم من ملوك الحيرة وغسان أشاروا إلى بعض الأفكار النصرانية كما أشاروا إلى بعض الأفكار المجوسية ، أما دينهم الغالب فكان الوثنية .

وكان أشهر شعراء النصرانية عدي بن زيد ، وينتمي عدي إلى بيت من البيوتات القديمة في الحيرة ، وتأدب أبوه في قصور ملوك فارس ، وتأدب أبوه في قصور ملوك فارس ، وتأدب عدي على طريقة نبلاء فارس ، ثم عاش في بلاط الملوك بالمدائن ، وكان سفيراً لكسرى بن هرمز (خسرو الثاني برويز) وانتقل إلى دمشق ، وهناك قال أول شعره ، ثم رجع إلى الحيرة ، وقضى حياته في التنقل بين الحيرة والمدائن في الصيف للاصطياف .

اشتهر عدي في الخمريات ، وله شعر في المعاتبات والتفكير في الفناء والموت الذي يدل على شقائه في آخر أيامه لغضب النعمان عليه[١] ، ويقول ابن قتيبة: «علماؤنا لا يرون شعره حجة ، وقال الأصمعي: العرب لا تروي شعر أبي دؤاد الإيادي وعدي بن زيد لأن ألفاظهما ليست بنجدية[٢] .

وقد يجد دارس الشعر أفكار النصرانية في شعر شعراء آخرين كالنابغة ، وزهير ، ولبيد ، لاتصالهم بالملوك النصرانيين أو لتعرفهم على الأفكار النصرانية ، ولكن لا يدل ذلك على أنهم قبلوا النصرانية كدين ، فإنهم كانوا على دين آبائهم العرب ، ومن ثم كان خطأً تاماً ما زعمه لويس شيخو حيث ادعى أن جميع شعراء الجاهلية تقريباً من شعراء النصرانية[٣] .

---

(١) الأغاني .

(٢) الشعر والشعراء .

(٣) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج ١ .

نقد كتاب شعراء النصرانية :

ويقول الأستاذ كارلو نالينو في المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية ١٩١٠ ـ ١٩١١ م في الرد على كتاب شعراء النصرانية للأب شيخو: «إن الأب لويس شيخو بما له من اليد الطولى في الآداب العربية نشر سنة ١٨٩١ م في بيروت القسم الأول من كتابه المسمى بشعراء النصرانية ، وهو عبارة عن مجلد ضخم جمع فيه من عدة كتب جملة وافرة من أشعار عهد الجاهلية زاعماً أن أصحابها كانوا يدينون بدين النصارى ، ولكنه بالغ في ظنه هذا أي مبالغة كأنه زعم نصرانياً كل شاعر جاهلي لم يوصف صريحاً باليهودية ، وورد في شعره شيء مما يتقرب من اعتقاد وحدانية الله أو من التأملات والاعتبارات الدينية ، فعدَّ من النصارى امرأ القيس والنابغة وطرفة وغيرهم من شعراء الصنف الأول والثاني الذين لا شك لكل منصف في أنهم من أصحاب الوثنية ، أما المؤكد المثبت فإنما هو أن دين النصرانية ذاع في القرن السابق للهجرة في شمالي جزيرة العرب فاعتنقه بعض القبائل مثل بني تغلب وقسم غير صغير من بني تميم فضلاً عن أكثر المقيمين بمملكة بني غسان وأكثر سكان مدينة الحيرة ، وسميت نصارى الحيرة بالعباد ، ولعل المقصود بعباد الله أو عباد المسيح ونصرانيتهم (وهي على مذهب النسطورية) قديمة لأننا نعرف أسماء أساقفة الحيرة من سنة ٤٠٠ م تقريباً إلى نحو سنة ٦٠٤ م ، ومن أقدم شعراء النصارى الذين وصل إلينا شيء من أشعارهم أبو دؤاد الإيادي وقد ولاه المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة (نحو ٥٠٦ ـ ٥٥٤ م) على خيله «فكان وصافاً للخيل ، وأكثر أشعاره في وصفه ، وله في غير ذلك إلا أن شعره في وصف الفرس أكثر» ولانت ألفاظه لقربه من حضارة ريف الفرات ، وبعد شعره عن أساليب عرب البادية ، وأشهر منه عدي بن زيد العبادي من عائلة قديمة بالحيرة ، تعلم الفارسية وتولى الأمور العربية بديوان كسرى أبرويز (٥٩٠ ـ ٦٢٨ م) من ملوك بني ساسان بالمدائن ، فأرسله مرة كسرى إلى ملك الروم بهدية من طرفه ، ثم استدعاه النعمان بن المنذر (نحو

٥٨٠ ـ ٦٠٢ م) من المدائن إلى الحيرة وولاه على جميع أمور المملكة إلى أن قتله لما وشت إليه به الحساد ، وشعره أقرب إلينا من شعر أهل البادية وأسهل فهماً ، فلذلك لم يعدَّه علماء اللغة العربية من الفحول «وكان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان: عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضهما ولا يجري معهما مجراهما «وعلى قول الأصمعي» كانت الرواة لا تروي شعر أبي دؤاد ولا عدي بن زيد لمخالفتهما مذاهب الشعراء» أو كما قيل: «لأن ألفاظه ليست بنجدية»[١].

* * *

(١) تاريخ الآداب العربية ، طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٤ م ، وقد نشرت مجلة الضياء الصادرة من ندوة العلماء سلسلة مقالات للأستاذ سعيد الأنصاري في عام ١٩٣٢ م للرد على كتاب شعراء النصرانية فند فيها الكاتب منهج الأب شيخو الشمولي الذي أدخل به معظم الشعراء الجاهليين في النصارى.




البابُ الثالثُ

- رواية الشعر العربي
- شرح الشعر
- الخط العربي ، الكتابة
- كتابة الشعر
- مواد الكتابة




رواية الشعر العربي

إن الكتابة مهما توسعت وانتشرت ، لا تستطيع أن تشمل جميع طبقات الشعب وحتى في عصور الرقي العلمي ، فكيف يمكن أن تكون عامة في العصور البدائية ، والعرب الذين كانت الأمية فاشية فيهم ، وكانت مهنة الكتابة والقراءة مقتصرة على أفراد من الناس متميزين عن عامتهم ، كان جل اعتمادهم على ذاكرتهم ، والرواية الشفهية للشعر ، والأحاديث والحكايات ، والخطب والوصايا ، وقد وهبهم الله ذاكرة حادة وذهناً وقَّاداً تميزهم عن سائر الأمم في العالم ، وكان التذوق بالشعر ، والملكة اللسانية الفائقة قد سهَّلت الاحتفاظ بالتراث الأدبي للعرب ، وإذا درسنا طريق حفظ الشعر ، وجدنا نظاماً طبعياً متبعاً لتخليد هذا التراث العظيم ، ونقله وعناية كل شاعر بكلامه ، والاهتمام بشيوعه ، وعكوف أشخاص متذوقين بالشعر على نقل الشعر وروايته وحفظه وإشاعته.

كانت رواية الشعر في بداية الأمر تقتصر على الشعراء الذين كانوا ينشدون أشعارهم في المجالس والمحافل والمسامرات ، يسمعها الناس من رجال قبيلتهم ويحفظونها ، وينقلونها إلى من لم يحضر هذه المجالس ، وخاصة إذا كان الشاعر من الفحول ، كما قال شاعر :

أَلَمْ تَرَ أنَّ شِعْري سار عَنِّي   وشِعْرك حَوْلَ بيتكَ لا يَسِير

وفي سرعة انتشار الشعر ، وروايته يكمن تأثير الشعر وأهميته ، فقد قيل عن الأعشى أنه ما مدح أحداً إلا رفعه ولا ذم أحداً إلا وضعه ، وإن قصته مع المحلِّق وقصيدة عمرو بن كلثوم التغلبي التي شاعت وانتشرت ، تدل على سرعة انتشار الشعر في أرجاء الجزيرة العربية ، واهتمام العامة والخاصة به ، كما تدل قصة جرير مع الراعي ووصول قصيدته في هجائه إلى بني نمير قبل وصول الراعي إليهم ، وقد قام برواية الشعر عدد من الشعراء الذين رووا شعر غيرهم من الشعراء ، إما لقرابة أو لصلة أخرى معهم ، وعرف هؤلاء الشعراء الذين كانوا رواة بالشعراء الرواة ، وهم من فحول الشعراء ، منهم زهير بن أبي سلمى ، وكان راوية لأوس بن حجر ، وكعب بن زهير والحطيئة ، راويتا زهير ، وأبو ذؤيب الهذلي ، الذي كان راوية للمرقش الأكبر ، وطرفة راوية عمه المرقش الأصغر ، وامرؤ القيس راوية خاله المهلهل وأبي دؤاد الإيادي ، وآخرهم كثير راوية جميل.

والقسم الثاني من الرواة هم الذين يسمعون شعر أكثر من شاعر ، ويتتلمذون عليهم فينشدون أشعارهم ، منهم الطِّرِمَّاح ، والكُمَيْت ، ورُؤْبة بن العجاج وذو الرُّمَّة ، فقد كان لهؤلاء الشعراء علم بالشعر الجاهلي ولم يقصروا جهدهم على شاعر واحد ، ومنهم أخذ الرواة ، وكان جرير والفرزدق أيضاً ممن تعلموا ورووا الشعر عن أجدادهما ، قال الجاحظ : إن الفرزدق راوية الناس وشاعر وصاحب أخبارهم ، وقال يونس بن حبيب : لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس.

وكان الفرزدق يروي عن جده ، وكان جده شيخاً كبيراً ، ويقول ابن قتيبة : إن شرحبيل بن الحارث عم امرىء القيس كان قد لحق ببني دارم رهط الفرزدق ، وكان امرؤ القيس قد صحب عمه قبل يوم كلاب ، وقد روى الفرزدق شعر امرىء القيس وأخباره ، وإليه يشير الفرزدق وهو يفتخر بذلك في شعره :

وهَبَ القَصَائِدَ لي النَّوابغَ[1] إذْ مَضَوْا وأبو يزيدَ[2] وذُو القُرُوحِ[3] وجَرْوَلُ[4]

والفَحْلُ عَلْقَمَةُ الذي كانتْ لَهُ حُلَلُ المُلُوكِ ، كلامُه لا يُنْحَلُ

وَأَخُو بني قَيْسٍ[5] وهُنَّ قَتَلْنَهُ وَمُهَلْهِلُ الشُّعَراءِ ذاكَ الأَوَّلُ

والأَعْشَيَانِ كِلاهُما ومُرَقِّش وأَخُو قُضاعَةَ[6] قَوْلُهُ يُتَمَثَّلُ

وكان اهتمام كل قبيلة بشعر شعرائها وروايته أمراً تكاد تجمع عليه الروايات ، لأن الشاعر كان يسجل مآثر القبيلة ومفاخرها وآدابها وأنسابها ، وذكر ابن رشيق : «كان إذا نبغ شاعر في قبيلة كانت تصنع له وليمة تجتمع النساء يلعبن بالمزاهر وتأتي القبائل وتهنئها» .

وكان الشعراء يفتخرون بكثرة رواتهم ، فقد قال شاعر يخاطب شاعراً آخر :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ شِعْري سارَ عنِّي وشِعْرُكَ حَوْلَ بيتكَ لا يَسِيرُ

وقال بعض شعراء بكر بن وائل :

أَلْهَى بني تَغْلِبَ عن كُلِّ مَكْرُمَةٍ قَصِيدَةٌ قالها عَمْرُو بنُ كُلْثُومِ

يَرْوُونها أبداً مُذْ كان أَوَّلُهم يا للرِّجالِ لشعرٍ غير مَسْؤومِ

وقد أدرك كثير من الشعراء وأبناء الشعراء الجاهليين العصر الإسلامي ، وبعضهم عمروا طويلاً ، وانتقلوا إلى المدن والحواضر ، فأخذ الناس شعرهم وشعراء قبيلتهم .

---

(١) شعراء عرفوا بالنابغة الذبياني ، والجعدي ، والشيباني .
(٢) المخبل السعدي .
(٣) امرؤ القيس .
(٤) الحطيئة .
(٥) طرفة .
(٦) أبو الطمحان القيسي .

عاش عدي بن حاتم مئة وثمانين سنة ، ونقل علماء الآداب والأخبار عنه أخبار طيء ، وشعر شعرائها ، وعاش حسان بن ثابت الأنصاري طويلاً بعد الإسلام ، وقد توفي في عام ٥٤ هـ ، وروي عنه الكثير من الشعر ، وعاش لبيد بن ربيعة ثمانين سنة في الإسلام ، وتوفي الحطيئة في عام ٥٩ هـ وهو حافظ لشعر زهير بن أبي سُلْمى ، كما أخذ الناس من أبي دؤاد ومن إبراهيم بن متمم بن نويرة شعر ابن نويرة ، وقد لقيه أبو عبيدة وكان ممن أخذوا عنه .

وكانت هذه المجهودات فردية تقوم على الذوق بحيث يحفظ الرواة شعر شعراء أحبوهم وأعجبوا بشعرهم ، ورواة يحفظون شعر شعراء قبيلتهم بآبائهم وأجدادهم ، وكانوا أصحاب ذاكرة حادة وقوة حفظ وتمييز ونقد ، كما كان فيهم من الثقات المتورعين المتشددين في الرواية .

وفي منتصف القرن الثاني بذل مجهود لجمع الشعر ، فقامت جماعة من العلماء ونقلت هذا التراث من البادية ومن ثروة القبائل المحفوظة ، وعانت في جمعه ما عانت ، ومنهم أبو عمرو بن العلاء المتوفى ١٥٣ هـ ، وحماد الراوية المتوفى في سنة ١٥٤ هـ. يقول ابن سلام: أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، ومن حماد الراوية نقل خلف الأحمر وهو أول من أحدث السماع بالبصرة بعد أن سمع من حماد .

ومن أبي عمرو بن العلاء وحماد الراوية ، أخذ سائر شيوخ العلم والرواية منهم خلف الأحمر والمفضل الضبي ، والأصمعي وأبو عبيدة وأبو عمرو الشيباني .

وأخذ عن هؤلاء الشيوخ ابن الأعرابي ، ومحمد بن حبيب وأبو حاتم السجستاني ، ومنهم أخذ السكري وثعلب ، ومن عصرهم بدأ تدوين الشعر

تدويناً عملياً ، ومؤلفاتهم ورواياتهم هي مصادر المدونات في القرنين الثالث والرابع وأضرابهما[١] .

يصف ابن سلام الجمحي أبا عبيدة والأصمعي بأنهما من أهل العلم ، وكذلك المفضل[٢] .

* * *

(١) مصادر الشعر الجاهلي .

(٢) مصادر الشعر الجاهلي .

شرح الشعر

كان أبو عمرو بن العلاء يجمع طوال حياته أشعار العرب القدماء وكذلك معاصروه ، أمثال حماد الراوية والمفضل الضبي وخلف الأحمر ، وكانوا يدونون إشارات سريعة من تفسير لغريب وشرح لمعنى .

وجاء الجيل الثاني أمثال الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد والأخفش الأوسط ، وأبي عمرو الشيباني ، وابن الأعرابي ، فأضافوا إلى تفسير كلمات الشعر والأنساب من جهودهم ثروة غنية من التفسير والشرح والنقد ، وبهم اتسع ميدان الشرح والنقد .

كان اهتمام الجيل الأول بجمع الشعر وحفظه من الضياع ، فانصبت جهود رجالها على روايته وتدوينه ، أما ما ضموه إليه من تعليقات فقد كان عنصراً ثانوياً ، فكانوا رواة للشعر أكثر من كونهم رجال لغة ومعان ، أما تلاميذهم فقد كانوا رواة ورجال لغة وتفسير ونقد[١] .

وعلى ثروات هؤلاء الرواة يعتمد ابن قتيبة في كتابه «الشعر والشعراء» والجاحظ في مؤلفاته ، والأصفهاني في أغانيه ، والنويري في «نهاية الأرب» وابن عبد ربه في «العقد الفريد» وياقوت الحموي في «معجم الأدباء» وغيرهم من المؤلفين القدامى وأصحاب الأمالي والنوادر .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، فخر الدين قباوة .

واختلفت وجهة نظر رواة الشعر والأيام واللغة في تلك المصادر ، فبعضهم حصر جهده في المصادر العربية مثل الأصمعي ، وبعضهم اختار ما للعرب ولغير العرب مثل أبي عبيدة ، واختلفت ميولهم كذلك ، فمنهم من كان متصلباً في عروبته وآخر شعوبياً متصلباً في شعوبيته.

وزاد في حماس الدراسات الأدبية ما كان من منافسة بين مدرسة الكوفة ، ومن أعلامها حماد الراوية وبين مدرسة البصرة وعلى رأسها أبو عمرو بن العلاء ، ولكن كليهما كان يحترم الآخر كل احترام ، فروى صاحب الأغاني عن أبي عمرو الشيباني أنه قال: لم أسأل أبا عمرو بن العلاء عن حماد إلا وقدمه على نفسه ، وكذلك لم أسأل حماداً عن أبي عمرو إلا وقدمه على نفسه ، وكان هذا التنافس بين المدرستين تنافساً علمياً ، وكان بينهما تبادل وجهات النظر.

كان هذا التراث الذي يرجع فضل جمعه إلى حماد الكوفي وأبي عمرو بن العلاء البصري موضع شك عند القدماء ، منهم ابن سلام الجمحي (٢٤٢ هـ) وهو أول من شك في صحة بعض الروايات ، ولكن نقده وشكّه كان على معيار القبول والرد في القرن الثالث ، ومن المتأخرين الذين شكّوا في صحة هذه الروايات المستشرقين ومن تتلمذ عليهم كطه حسين ، ولكن شكّهم إما يرجع إلى سوء فهم لتلك الظروف وإما لتطبيق المقاييس العصرية للقبول والرد على ظروف البادية ، كما حمل على الشك ضعف الذاكرة في هذا العصر ، فاستبعد الباحثون تلك القوة الجارفة لحفظ العرب وحدّة ذاكرتهم ، وقد رد هذه الشبهات المفروضة علماء العربية ، وألفوا كتباً في تحقيق الشعر الجاهلي ومصادره[1].

---

(١) راجع للتفصيل مصادر الشعر الجاهلي ، للدكتور ناصر الدين الأسد.

الخط العربي

إن الكتابة لا تنشأ ولا تعم إلا في ظل مدنية ، وكان اتصال العرب في الشمال بالمدنية عندما عرفوا نوعاً من الاستقرار ، وكثر اتصالهم بالأمم المجاورة للتجارة والأمور السياسية ، وكان أكثر هذه الطوائف اتصالاً بالمدنية ، الطوائف المستقرة على حدود سورية لاحتكاكها بالروم ، وقد نزلت قبائل من الأعراب في المنطقة الممتدة من شمال الحجاز وخليج العقبة ، وتكونت لهم وحدة جغرافية وثقافة بعيدة عن ثقافة العرب الجنوبيين ، وأسس هؤلاء العرب مملكة باسم النبط بعاصمتها في البتراء.

ابتدع هؤلاء لأنفسهم خطاً اشتقوه من الخط الآرامي ، وكانت الكتابة الآرامية مربعة الحروف ، ثم تحولت بعد كونها خطاً نبطياً إلى الخط المستدير ، بنزوع إلى التربيع ، وهو أصل خط النسخ الحالي[1].

ويقول فريق من العلماء: إن رجالاً من طيٍّ وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة ، اجتمعوا بالقرب من الأنبار ، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية ، فتعلم منهم قوم من الأنبار ومنهم أهل الحيرة ، ومن أهل الحيرة تعلم بِشْر بن عبد الملك أخو أكيدر صاحب دومة الجندل ، وأتى مكة لبعض شأنه فتعلم منه سفيان بن أمية وأبو قيس بن عبد مناف ومنهما تعلم أهل الطائف ، وانتشر الخط العربي في الشام[2].

---

(١) إبراهيم جمعة (الثقافة) والمجمع العلمي.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.

ويجمع العرب على أن الخط العربي مأخوذ من الخط الحميري الأنباري ، وهو مأخوذ من النبطي الكندي ، وهو مأخوذ من خط المسند الحميري ، أما قدامى العرب فيقولون : إن الخط العربي توقيفي مثل اللغة العربية .

ويظهر من أقوال العلماء وأصحاب الأخبار أن القلم المسند كان مستعملاً قبل مدة طويلة من الإسلام ، لرواجه في اليمن في عهد ازدهاره ، وهو قلم يباين القلم الذي يكتب به الآن ، ثم انتقل العرب إلى قلم آخر ، وهو أسهل وألين في الكتابة من قلم المسند ، أخذوه من القلم النبطي المتأخر ، وذلك قبيل الإسلام ، وقد كان القلم الآرامي والنبطي عاماً في العراق والشام ، إلا أن القلم المسند ظل مستعملاً في الشمال كذلك بجانب القلم النبطي الذي اختاره أهل الحجاز ، فلما جاء الإسلام وعمَّ استعمال القلم الحجازي ، حكم على المسند بالموت فنسيه العرب(١) .

والعرب قد تسمي الكتاب العربي «الجزم» لأنه جزم من المسند أي قطع منه .

كان الخط الكوفي للكتابة المزخرفة ، والنقوش ، والنحت ، أما النسخ الحجازي فكان للكتابة العادية السريعة ، ويمكن أن يكون القلمان مستعملين في عهد واحد .

كان الخط العربي غير منقوط ولا مشكَّل ، فأدخل عليه نظام الإعجام في القرن السابع الميلادي للتمييز بين الحروف المتحدة الصورة والمختلفة النطق ، ثم أدخل نظام الحركات ، فاستخدمت أولاً النقط ، ثم استخدمت حروف أو أجزاء حروف ، ويقول المؤرخون العرب : إن أبا الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ هو مخترع هذه الطريقة ، والأصح أنه وضح النقط ، أما التحسينات الأخرى فترجع إلى تلميذيه نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر

---

(١) جواد علي : العرب قبل الإسلام ج ٨ .

العدواني ، وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي قد أبدل النقط برموز هي الفتحة والكسرة والضمة[١].

وكان ترتيب حروف الهجاء على طريق أبجد هوز ، وهو طريق الآراميين والنبط والعراقيين ، ثم جمع نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر العدواني في زمن عبد الملك بن مروان الحروف المتشابهة في الشكل ، وهو الترتيب المتبع الآن.

* * *

(١) جواد علي: العرب قبل الإسلام.

الكتابة

تدل الروايات على أن الخط العربي كان قد تم تطوره ، وتعلم الكتابة فيه العرب في شمالي جزيرة العرب قبل الإسلام بأكثر من مئة سنة ، وكان اختراعه قبل أكثر من مئة سنة ، وصارت الكتابة العربية متعارفة بين العرب ، وكان يجري التعامل بها في التجارة، وتقييد الصفقات والعهود والمكاتبات[١] .

أما الكتابة في الجنوب فكانت شائعة قبل ذلك بزمن طويل ، ولكنها كانت شائعة في بعض مناطق الشمال ، وكان أكثر اعتماد العرب على الذاكرة لعدم شيوع الكتابة .

ومما يدل على وجود الكتابة ، وكونها متعارفة بين العرب ، وجود كلمات كثيرة في اللغة العربية لتأدية معنى الكتابة ، وأدوات الكتابة ، وتوجد عدة أمثال في الشعر العربي الجاهلي ، والقرآن الكريم ، وإشارات واضحة إليه في الحديث النبوي الشريف ، وكتب السيرة والمغازي ، ومن هذه الكلمات التي وردت في القرآن الكريم : سطر ، خط ، كتاب ، قلم ، رق ، أملي ، اكتتب ، قرأ ، مداد ، وقد أجمع علماء اللغة والبلاغة على أن القرآن

---

(١) تطور الخط النبطي من الخط الآرامي في وقت ما في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد ، ولم يأخذ طابعه المميز إلا في النصف الأخير من القرن الأول قبل الميلاد .
وقد تحسن الخط وتطور بتطور الكتابة وانتشار المدنية كما ذكره نقش محمد بن مقلة ، واستمر تطور الخط ، وتعتبر الفترة ما بين منتصف القرنين الرابع والسادس الميلاديين مرحلة تطور وابتكار لبعض الحروف النبطية .

الكريم لم يأت بكلمة غريبة على ذهن العرب ، وقد أشار القرآن الكريم إلى وجود الكتابة في العرب في فجر الإسلام بحيث إنه أمر بالكتابة في مواضع شتى .

وفي الحديث الشريف إشارات كثيرة إلى كتابة العهود والمواثيق ، وذكر ابن هشام في السيرة النبوية في قصة هجرة النبي ﷺ إذ تابعه سراقة بن جعشم ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه : قل ما تبتغي منا ؟ قال : فقال ذلك أبو بكر ، قال : فقلت : تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك ، فقال النبي ﷺ : اكتب له يا أبا بكر ، قال : فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة أو في خرقة[١] .

ويزخر الشعر العربي بذكر الكتابة ، وإن تشبيه رسوم الديار بالكتابة دليل على شيوعها ، لأن حكم المشبه به أن يكون أعم من المشبه ، ونورد هنا بعض ما ورد في الشعر الجاهلي من إشارات الكتابة ، قال لبيد :

فَمَدافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُها ... خَلَقاً كَمَا ضَمِنَ الوحِيَّ[٢] سِلاَمُهَا

قال حسان بن ثابت الأنصاري :

عَرَفْتُ دِيارَ زَيْنَبَ بالْكَثِيبِ ... كَخَطِّ الوَحْيِ في الوَرَقِ القَشِيبِ

قال الأخنس بن شريق :

لابنةِ حِطَّانَ بنِ عَوْفٍ مَنَازِلٌ ... كَمَا نَمَّقَ العُنْوَانَ في الرَّقِّ كاتِبُ

قال المرقش الأكبر :

الدَّارُ قَفْرٌ والرُّسُومُ كَأنَّها ... رَقَّشَ في ظَهْرِ الأَدِيمِ قَلَمْ

قال زهير :

لِمَنِ الدِّيارُ غَشِيْتُهَا بالفَدْفَدِ ... كالوَحْيِ في حَجَرِ المَسِيلِ المُخْلِدِ

قال لقيط بن يعمر الإيادي :

---

(١) السيرة النبوية ، الكامل ، وأسد الغابة .

(٢) قال التبريزي : الوَحِيّ : جمع وحي وهو الكتاب .

سَـلامٌ فـي الصَّحِيفَـةِ مـن لَقِيـطٍ   إلـى مَـنْ بـالجـزيـرةِ مِـنْ إيـادِ

ذكر ابن عبد ربه أسماء سبعة عشر كاتباً في قريش في فجر الإسلام ، منهم عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو بكر الصديق ، وكان عدد كبير من الأنصار يعرفون الكتابة[١] .

وقد كان من عادة العرب في الجاهلية والإسلام تدوين أحلافهم في صحف ، توكيداً للعهد ، فلما قاطعت قريش بني هاشم وبني المطلب كتبت بذلك كتاباً ، وكتب النبي ﷺ كتاباً في صلح الحديبية ، وكتاباً بعد وصوله إلى المدينة المنورة للموادعة بين المسلمين واليهود ، وبعث برسائل إلى الملوك والرؤساء في آخر أيام حياته ، وكتب رسالة رداً على رسالة مسيلمة الكذاب (السيرة النبوية) وكذلك كان الشعراء يكتبون ما جادت به القرائح من شعرهم ، ويعلقون بأستار الكعبة ، وعرفت هذه القصائد بالمعلقات .

* * *

(١) العقد الفريد.

كتابة الشعر

أما كتابة الشعر ، فتدل عدة روايات على وجود اتجاه في العرب لكتابة الشعر وحفظه رغم ترجيحهم حفظ الشعر وروايته شفهياً صيانة له؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الرواية الشفهية أكثر صوناً له من التحريف والنحل.

كان عند النعمان بن المنذر من الشعر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك إلى بني مروان أو صار منه[١] .

وقد عرف أهل اليمن الكتابة قبل مدة كبيرة من الإسلام ، يقول بروكلمان في «تاريخ الأدب العربي»: «كان أهل اليمن يعرفون الكتابة ويستعملونها في نقش الآثار الدينية والقانونية على الحجارة ، منذ ألف عام على الأقل قبل الميلاد ، والجنوب غني بالآثار».

فلا عجب إذاً أن تكون هناك أبيات كتبت داخل الجزيرة العربية على عهد محمد ﷺ ، ومن ثم يُعدُّ خطأً ما قاله مرغليوث ، وطه حسين ، فإنهما أنكرا استعمال الكتابة في شمال الجزيرة العربية قبل الإسلام بالكلية ، ورتبا على ذلك ما ذهبا إليه من أن جميع الأشعار المروية لشعراء جاهليين مصنوعة ومنحولة لأسمائهم[٢] .

---

(١) طبقات فحول الشعراء للجمحي.

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ج ١ .

وقد اعترف عدد من المستشرقين بوجود الكتابة في الجاهلية ، أمثال ميوروكرنكو ، وذكر البلاذري عن الواقدي أنه كان الكُتَّاب في الأوس والخزرج ، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية وكان يعلمه بعض الصبيان بالمدينة وإن التعليم قد عم حتى شمل النساء الجاهليات ، حيث كان بعض نساء الجاهليات يقرأن ويكتبن.

وذكر الطبري في تاريخه انتشار الكتابة والقراءة في الأنبار ، حيث وجد خالد بن الوليد أهلها يكتبون العربية ويتعلمونها. ويرى درمتغم وجود تعليم واسع ومنظم في العصر الجاهلي ، وهو قول مبالغ فيه ، إلا أن القراءة والكتابة في الجاهلية كانت شائعة في إمارة المناذرة في العراق ، وفي إمارة الغساسنة في الشام ، وفي مملكة التبابعة في اليمن.

وكان عدد لابأس به يعرف الكتابة في الطائف ومكة والمدينة ، إلا أنها كانت نادرة في بعض أنحاء جزيرة العرب. ومن أدلة وجود الكتابة والقراءة في الجزيرة العربية ، ووجود كتّاب وقرّاء الخطوط التي ظهرت على صخور الجزيرة وجبالها. ومن المدوّنات التي عرفها المحققون في التاريخ العربي مكتبات حمير في الجنوب ، وذخائر الحيرة في الشمال ، وأسفار اليهود في منازل اليهود[١].

وذكر جواد علي: «ثبت علمياً أن الخط المسند كان معروفاً قبل الإسلام في كل الجزيرة العربية»[٢].

وذهبت فئة منهم إلى أن الشاعر الجاهلي كان يعرف أن يمسك بالقلم بيده ، واستدلوا على ذلك ببعض الصور والتشبيهات التي وردت في شعرهم الجاهلي ، فليس الأمر الغريب في رأيهم أن يكون بعض الشعراء المقيمين

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ١٤٣.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ج ١ ص١٩٤.

بمكة أو بالطائف أو بالحيرة يلقون الخطوط الأولى من قصائدهم على الورق[1].

وتفيد رواية أن المرقش الأكبر كتب على مؤخر الرحل هذه الأبيات إلى حرملة وهو مريض:

يـا صـاحِبَـيَّ تَلَبَّثَـا لا تَعْجَـلا ... إنَّ الـرَّواحَ رَهِيـنُ أَنْ لا تَغْفـلا
فَلَعَـلَّ لُبْثَكُمَـا يُفَـرِّطُ سَيِّئـاً ... أو يَسْبِـقُ الإِسْـراعُ سَيْبـاً مُقْبِـلا

كان عدد من الشعراء يكتبون ويقرؤون ، وكان منهم من إذا نظم شعراً دونه ، ثم ظل يعمل في إصلاحه وتنقيحه وتحكيك ما نظمه إلى أن يرضى عنه ، فينشده الناس ، وممن كان يكتب ويقرأ سويد بن الصامت الأوسي صاحب مجلة «لقمان» والزبرقان بن بدر ، وكعب بن زهير ، وكعب بن مالك الأنصاري ، والربيع بن زياد العبسي ، وكان هو وإخوته من الكملة ، وقد كتب إلى النعمان بن المنذر شعراً يعتذر إليه[2].

* * *

(١) شفيق جبري مجلة المجمع العلمي ٢/ ٤٦.
(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي/ ج ٨.

مواد الكتابة

وكان من المواد المستعملة للكتابة ، الجلد : ومنه الرق والأديم ، والقضيم ، والقماش ، وكانوا يطلقون على الصحف القماشية كلمة المهرق ، فكان يستخدم لأمر جليل .

والنبات : ومن أقسامه العسيب ، والكرناقة ، والخشب ، والعظام ، كما كان الحجر يستعمل للكتابة .

أما الكتابة على الورق ففيها اختلاف بين المؤرخين ، وقد كان الورق نادراً ، وعم استعماله في القرن الثاني للهجرة(١) .

* * *

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد .

فهرس الموضوعات

الباب الأول

الفصل الأول

العرب أصلهم وموطنهم

الفصل الثاني

اللغة العربية ، نشأتها ، وتهذيبها ، وخصائصها

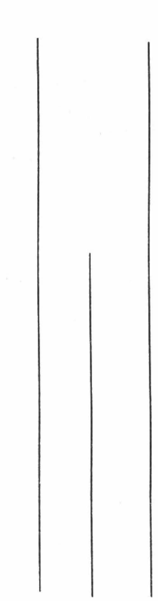
الفصل الثالث

الأدب ، تعريفه ، وأقسامه ، وصلته بالعلم والدين

الباب الثاني
الأدب العربي في العصر الجاهلي
الفصل الأول
الحالة الاجتماعية والدينية والثقافية للعرب قبل الإسلام

الفصل الثاني
النثر في العهد الجاهلي وأعلامه

الفصل الثالث
الشعر




تاريخ الأدب العربي
العصر الإسلامي



الطبعة الثانية

1430 هـ ـ 2009 م

دار ابن كثير

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

ردمك : 978-9953-520-20-9

الموضوع : أدب

العنوان : تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي و العصر الإسلامي

التأليف : الأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي و الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي

الورق : أبيض

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 316

القياس : 17×24

التجليد : غلاف

الوزن : 460 غ

التنفيذ الطباعي : مطبعة بشار الحلبي- دمشق

التجليد : مؤسسة القصيباتي للتجليد - دمشق



دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي

ص.ب : 311 ـ صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450

مكتب تلفاكس: 2243502 - 2458541

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



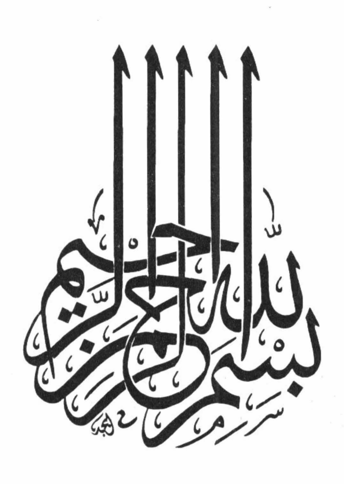


تأليف

الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي






بسم الله الرحمن الرحيم



كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد!

فهذا هو الجزء الثاني من كتاب تاريخ الأدب العربي وهو جزء يحيط بشطري العهد الإسلامي (صدر الإسلام وعصر بني أمية) كان تأليفه من مسؤوليتي ، وهو يلي الجزء الأول الذي هو في العصر الجاهلي ، وقد قام بتأليفه الأخ الأستاذ واضح رشيد الندوي ، وصدر قبل هذا.

لقد قمنا بتأليف هذا الكتاب بإيعاز من فضيلة أستاذنا الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ حفظه الله ـ وعلى المنهج الذي اختطه لنا ، والكتاب سلسلة لأجزاء تخص العصور المختلفة ، استأثر منها الأخ الأستاذ واضح رشيد الندوي العصر الجاهلي والعصرين العباسي والمتوسط ، وترك لي العصر الإسلامي ، والعصرالحديث.

لقد صدر الجزء الأول المفتتح للكتاب حاملاً لكلمات تقديمية تلقي ضوءاً على ضرورة تأليف هذا الكتاب ، والفكرة التي يقوم عليها والحاجة التي تقتضيه من بين كتب تاريخ الأدب العربي الأخرى.

وأهم هذه الكلمات التقديمية كلمة شيخنا سماحة الأستاذ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ حفظه الله ـ وهي التي أبدى فيها سماحته

الاستحسان لتأليف هذا الكتاب ، وذكر الأهمية التي رآها فيه ، والضرورة التي كانت تقتضي تأليفه ، فجاءت كلمته كعطاء فكري ، وتوضيح للخط المفيد لتاريخ الأدب العربي ، وهي بذلك جديرة بألا تقرأ كمجرد تقديم للكتاب ، بل كجزء من الموضوع ، وكفصل من فصول الكتاب ، كما يحمل الجزء الأول كلمة لي أيضَاً ، ثم كان علي أن أعد الجزء الثاني في أدب العصر الإسلامي ، فقمت بإعداده بما تيسر لي من البحث والدراسة ، وبما حصل لي من توفيق الله سبحانه وتعالى .

ولقد اعتنيت في هذا الجزء من تاريخ الأدب بمدى استجابة الأدب للنظرة الإسلامية للشعر والبيان ، وأثر ذلك على فنيتهما .

ومما لا شك فيه أن طبيعة الشعر والبيان تنبع من الوجدان الإنساني ، وهو موهبة من الله تعالى لغالبية أفراد البشر ، فهو يوجد فيهم ، ولا يزول بتغير المبادىء أو تغير مسالك الحياة ، بل إنما يقوم بأداء عمله في قوالب جديدة وفي صور مختلفة ، وهي إذا لم تكن تعجب بعض الناس بسبب اختلاف نظرتهم وبسبب ذوقهم الخاص ، فلا يصح الحكم برداءتها على هذا الأساس ، بل إنما يحكم بمدى قيمتها الأدبية ، بناءً على أسسها الفنية غير المنحازة .

على كلٍّ فإني نظرت في بعض هذه الجوانب ، فإن أصبت فهو من توفيق الله وفضله ، وإن أخطات فذلك من تقصيري ، والله هو المسؤول بتسديد الخطى وبالتوفيق للصواب ، وله المنة والفضل وله الحمد أولاً وآخراً .

محمد الرابع الحسني الندوي

دارالعلوم ـ ندوة العلماء ـ لكهنؤ **١/ جمادى الأولى سنة ١٤١٠هـ**




القسم الأوّل

صدر الإسلام




المدخل إلى العهد الجديد
الحياة العربية قبل ظهور الإسلام

الوضع الاجتماعي:

لقد كانت طبيعة الحياة الجاهلية قبل الإسلام طبيعة بدوية، وكانت في وضعها الاجتماعي على صورة نظامية سطحية، كانت لها التزامات يتمسك بها الرجل العربي في نطاق قبيلته، وهي التي كان توصل إليها العرب بممارساتهم العملية ونقاليدهم المتوارثة، فقد عرفوا أن مجتمعهم القبلي أو العائلي لا يمكن أن يبقى ويستمر بدون الالتزام بالوفاق القبلي، وبدون محافظتهم على التعاون والتضامن فيما بينهم في نطاق الأسرة، وهذا التعاون كان يقوم على مبدأ «انصر أخاك ظالماً كان أو مظلوماً» ويتجلى في قول شاعرهم:

لا يَسْأَلُونَ أخاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُم   في النَّائباتِ على ما قالَ بُرْهَانا

وكان يلتزم كل فرد من أفراد القبيلة أو الأسرة بما يتعهد به أخوه على أساس القبيلة والأسرة، وكان يعد كرامته كرامة نفسه ومهانته مهانة نفسه، وبذلك كانوا يتبادلون فيما بينهم التضامن والتعاضد، ويستعينون به في مخاصماتهم ومحارباتهم فيما بين جماعاتهم القبلية والأسرية.

الإطار الجمهوري:

فنشأت فيهم بتأثير هذا النظام إطارات مشابهة لنظام جمهوري محدود، كان شريف القبيلة فيها وسيدها يحتل محل رئيس الجماعة، وكان أصحاب

الحزم والحلم يحتلون محل أعضاء مجلس الشورى ، أما عامة أفراد القبيلة والأسرة فكانوا بمثابة الجمهور ، وكانوا يحملون عند الحاجة مسؤولية أفراد الجيش والمقاتلين ، وكل ذلك كان على أساس العصبية العنصرية والقبلية وبدون مقابل مادي .

الأمية مع البراعة اللغوية والأدبية :

ولكنهم مع نظامهم السياسي هذا كانوا أميين لا يقرؤون ولا يكتبون ، ولم يكسبوا معرفة جادة لنظم مجتمعات البشرية الراقية فيما حولهم ، كما أنهم لم يكونوا يرون أميتهم عيباً ، لأن أميتهم لم تكن تحول دون تحقيق مقتضيات حياتهم البسيطة ، وهي التي كانت طبيعة البداوة غالبة فيها ، يقول الشاعر وهو القطامي :

ومَـنْ تَكُـنِ الحَضَـارةُ أَعْجَبَتْـهُ	فـأيَّ رجـالِ بـاديـةٍ تَـرَانـا
ومَـنْ رَبَـطَ الجِحـاشَ فـإنَّ فينـا	قَنـاً سُلْبـاً وأفـراسـاً حِسـانـا
وكُـنَّ إذا أَغَـرْنَ علـى جَنـابٍ	وأَعْـوَزَهُـنَّ نهـبٌ حيـثُ كـانـا
أَغَرْنَ مـن الضَّبـابِ على حَـلالٍ	وضبَّـةَ إنَّـهُ مَـنْ حـانَ حـانـا
وأحيـانـاً علـى بَكْـرٍ أخِينـا	إذا مـا لـم نَجِـدْ إلاَّ أَخَـانـا

ولكنهم كانوا يتمتعون رغم أميتهم بصلاحيات النظر الفاحص والشعور الحاد والهمة للعمل ، وكانت حدة شعورهم هذه دافعة لهم إلى الأعمال الانفعالية والسلوك العاطفي وإلى اختيارهم في سبيله لأسلوب معبر للكلام لنقل مشاعرهم وأحاسيسهم في صورة من اللفظ القوي والعبارة المناسبة ، واتخذوا الشعر أوسع مجال لهم في ذلك ، وبه ترقّى الشعر فيهم وتقدم ، وعكف عليه أهل الطبائع الأدبية متخذين إياه أقوى أداة لتبادل مشاعرهم وأحاسيسهم الطبيعية فيما بينهم ، فظهرت فيه آثار تعبيرية رائقة ، وانتشر الشعر فيهم ، فقليلاً ما كان رجل منهم لا يتذوق الشعر ولا يقوله ، وتوسع الناس في استخدام هذه الأداة التعبيرية ، واعتمدوا عليها في كثير من شؤونهم التي كانت تفتقر إلى النقل المؤثر من واحد إلى آخر أو منه إلى رهط وجماعة .

واستغلوه للوصول إلى مطامحهم العاطفية ومطالبهم الشعورية والعقلية ، فيرفعون به إذا مدحوا مكانة قبيلة أو شخصية في نفوس السامعين، ويحطون به إذا هجوا مكانة قبيلة أو شخصية في أنظار الناس ، ويكون تأثيره بقدر قوته في التعبير، واختيار الشاعر فيه للألفاظ المؤثرة وبقدر عرضه المعنى عرضاً رشيقاً لطيفاً أو جزلاً فخماً حسب براعة الشاعر، وبه كان ينال قبولاً وانتشاراً في الناس.

وكان الشاعر يفتخر بانتشار شعره في الناس ، ويعد ذلك سبباً لقبوله وتأثيره ، فقد قال شاعر مشيراً إلى ذلك:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ شِعْـري سـار عنّـي ... وشِعْـركَ حـولَ بيتـكَ لا يَسِيـر

ونظراً إلى ذلك أصبح الشعراء يستخدمون وسيلتهم هذه لدعم عزة ومجد لشخص أو قبيلة ، ولحط مكانة الشرف والكرامة من شخص أو قبيلة أخرى.

فقد مدح الشاعر الجاهلي المشهور الأعشى رجلاً اسمه المحلّق شاكراً له على هداياه ، فكان سبباً لانتشار صيته واشتهار كرامته وشرفه لدى الناس ، استطاع المحلّق به تزويج بناته بسهولة ، وكن قبل ذلك جالسات بدون الزواج تحت الفقر والشعور بالحرمان منذ مدة ، وقرض عمرو بن كلثوم التغلبي قصيدة رائعة في الفخر بقبيلته ، فكانت سبب إعزاز لقبيلته في النفوس لمدة مديدة من الزمن حتى قال قائل:

ألهى بني تَغْلِبَ عن كُلِّ مَكْرُمةٍ ... قصيـدةٌ قـالهـا عَمْـرُو بـنُ كُلْثُـومِ

وجاء العصر الإسلامي في هذه الحال ولم يكن زال عن الشعر هذا التأثير ، فاستخدم المسلمون أيضاً هذه الوسيلة ، واستعملها الشعراء لأغراضهم المختلفة.

استخدم شاعر العهد الإسلامي المعروف الحطيئة هذه الوسيلة منتقداً لصحابي كريم اسمه الزبرقان بن بدر فجرح كرامته بشعره ، وذلك في قصيدة له يقول فيها مخاطباً الزبرقان بن بدر:

دَعِ المكـارمَ لا تَـرْحَـلْ لِبُغْيَتِهـا ... واقْعُـدْ فإنَّـكَ أنـتَ الطَّـاعِمُ الكاسِي

وعدّ ذلك الزبرقان بن بدر هتكاً شديداً لعرضه ، فرفع قضيته إلى حاكم المسلمين ، فصدر رأي الحاكم بمعاقبة الشاعر على جريمة هتك العرض.

وكان الحطيئة هذا قد قام بإزاحة تصور شنيع لحق باسم قبيلة بني أنف الناقة كان نظر الناس قد ساء عنه ، وذلك ببيت في شعره:

قومٌ هُم الأنفُ والأذنابُ غَيْرُهُم ومن يسوي بأنفِ النَّاقةِ الذَّنبا؟

فصار أبناء القبيلة بعد ذلك إذا سئلوا من هم رفعوا رؤوسهم ، وقالوا مفتخرين: نحن بنو أنف الناقة.

وغضب شاعر العصر الأموي الكبير جرير على قبيلة بني نمير ، فقرض قصيدة في هجائها ، فكان بيت منها أشد إهانة للقبيلة وإهداراً لكرامتها ، صار أبناء القبيلة بسببه يتهربون من وجوه الناس لئلا يطعنوهم بهذا البيت ، وهو:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلاَ كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلابا

وقد روي في هذا الصدد أن غلاماً أبله كان يخدم أسرة من الأسر العربية ، فكان يأتي إلى السوق لاشتراء طلباتها ، وكان رجل من الباعة ينتهز بلاهة الولد ويمزح به ، ويزعجه بذلك ، فشكا الولد إلى سيده فسأله عن صفة التاجر فعلم أنه نميري ، فقال لغلامه: إذا مزح بك منذ الآن فأنشد أمامه بيتًا: «فغض الطرف إنك من نمير» فأراد الغلام ذلك ولكنه نسي بعض الكلام فقال: خفض طرفك وإلا جئت بما يسوءك ، فتغير وجه التاجر بذلك ، وسكت ظانًا أنه يريد البيت المعروف من الشعر: فغض الطرف إنك من نمير إلخ...

فأدى الشعر بذلك وبغيره من الموضوعات دوراً ثقافياً ونفسياً كبيراً ، ولم يزل يؤديه إلى العصر الإسلامي ، ولعل ذلك هو الذى حمل النبي ﷺ عندما أنشد الشاعر الإسلامي شعراً في الاعتزاز بالإسلام ودحضه الكفر ، واعترض عليه صحابي جليل بقوله: أفي حضرة الرسول ﷺ وفي مناسبة الجهاد؟ فقال رسول الله ﷺ: دعوه فإنه أشد عليهم (على الكفار) من النبل.

وحصلت بذلك عند العرب نخبة حسنة رائعة من الشعر ، وكانت على

مراتب ودرجات من الجودة والحسن سميت طبقاتها بالسموط أو المعلَّقات ، ثم بالمجمهرات ، ثم بالمنتقيات ثم بالمذهبات ، وغيرها ثم بغيرها من الأسماء ، وخدم شعرهم حاجات نفوسهم العاطفية والخيالية في مجال الخصومات وفي شؤون الاجتماع وشؤون الأسرة والعائلة وفي أحوال الحب والسخط والرضا والغضب والإعجاب والمقت ، والفرح والرثاء ، حتى زعم العرب بسبب إعجابهم بتقدمهم في هذا المجال أن اسمهم العرب هو عنوان لبراعتهم في بلاغة القول وفصاحة اللفظ ، وأن غيرهم هم العجم لحرمانهم من ذلك ، أما النثر فكان استخدامهم له ، للأغراض الأدبية قليلاً ، باستثناء الخطابة فقد كان لها موضع حسن في حياتهم ، و كانت تستخدم للتأثير على المخاطبين وكانوا يستفيدون منها أيضاً .

التمتع بالهوى والرغبات والنظرة إلى المرأة وطلب الشهرة:

ومع وجود هذه الميزة فيهم مما يشير إلى صور من حياة التضامن المحدود والذوق الأدبي كانت سيرتهم الذاتية أو ممارساتهم الفردية في الحياة حرة تائهة ، متسمة في كثير من الأحيان بالإباحية والخلاعة ، قد كان فيها إدمان في شرب الخمر ، وإمعان في لعب الميسر ، وإسراف في قضاء مطالب النفس والهوى وفي المكابرة والتعاظم ، وبجنب ذلك كانوا يحبون حسن الذكر والاشتهار بالعزة والكرامة ، يريدون أن يوصفوا بها ، وكانوا يقومون له بأعمال الكرامة والإنسانية ، وكانوا يعتقدون أن لا حياة بعد الحياة الدنيا ولم يكونوا يؤمنون بالآخرة وقالوا: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٩] فعكفوا على التمتع بهذه الدنيا بالقدر المستطاع ، وظنوا في الحرمان من متعها خسارة أي خسارة ، وطلبوا حسن الذكر والشهرة ليثبت بذلك عزهم في نفوس الآخرين ، وأرادوا تخليد هذه الشهرة ، وكانوا يسعون لكل ذلك ويبذلون له مالهم وجهدهم ، وكانوا ينظرون إلى المرأة كذريعة للاستمتاع واللهو ، ويرون ولادتها في بيوت أنفسهم مسؤولية غير مرغوب فيها ، فكانت طائفة من قبائلهم تئدها في مهدها ، وكان الشباب منهم بصورة

خاصة يرون إلى الاستمتاع بملاذ الحياة بعين الرغبة الشديدة والاهتمام ، أما التمتع بالهوى والرغبات فيقول الشاعر الجاهلي سلمى بن ربيعة عنه :

إنَّ شِـــوَاءً ونَشْـــوَةً ... وخَبَـــبَ البَـــازِلِ الأَمُـــونِ
يُجْشِمُهـا المَـرْءُ فـي الهَـوى ... مَسَـافَـةَ الغَـائِـطِ البَطِيـنِ
والبيـضَ يَـرْفُلْـنَ كـالـدُّمَـى ... فـي الـرَّيْـطِ والمُـذْهَـبِ المَصُونِ
والكُثْـرَ والخَفْـضَ آمِنـاً ... وشِـرَعَ المِـزْهَـرِ الحَنُـونِ
مِـن لَـذَّةِ العيـشِ والفتـى ... للـدَّهْـرِ والـدَّهْـرُ ذو فُنُـونِ
والعُسـر كـاليُسْـر والغِنَـىٰ ... كـالعُـدْمِ والحَـيُّ لِلْمَنُـونِ
أهلكـنْ طَسْمـاً وبعـدَه ... غـذّى بهـم وذا جـدُونِ
وأَهْـل جـاشٍ ومـأربٍ ... وحـي لقمـانَ والتَّقـونِ

ويقول طرفة بن العبد :

نَـداماي بِيـضٌ كـالنُّجـوم وقَيْنَـةٌ ... تَـرُوحُ علينـا بيـن بُـرْدٍ ومُجْسَـدِ
رَحِيبٌ قِطَابُ الجَيْبِ منها رَفِيقَةٌ ... بِجَسِّ النَّـدامـى بَضَّـةُ المُتَجَـرَّدِ
وما زالَ تَشْرابِي الخُمُورَ ولَذَّتِي ... وبَيْعِي وإنْفَاقِي طَرِيفي ومُتْلَدي
إلـى أَنْ تَحَامَتْنِي العَشِيرةُ كُلُّهـا ... وأُفْـرِدْتُ إفْـرَادَ البَعِيـرِ المُعَبَّـدِ
أَلَا أَيُّهذا اللاَّئِمي أَحْضُرُ الوَغَىٰ ... وأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هل أنتَ مُخْلِدِي
فـإنْ كنـتَ لا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي ... فَـدَعْنِي أُبَادِرْهـا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي
ولولا ثَلاثٌ هُنَّ مِن عِيْشَةِ الفتى ... وَجَدِّكَ لمْ أَحْفِلْ متى قامَ عُوَّدِي
فَمِنْهُـنَّ سَبْقـي العـاذِلاتِ بِشَـرْبَـةٍ ... كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ
وكَـرِّي إذا نـادى المُضَـافُ مُحَنَّبـاً ... كَسِيـدِ الغَضَـا نَبَّهْتَـهُ المُتَـوَرِّدِ
وتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ ... بِبَهْكَنَـةٍ تَحْـتَ الطِّـرافِ المُمَـدَّدِ

السخاء والشجاعة :

أما طلبهم السمعة الطيبة والكرامة فقد كان باختيار السخاء والضيافة وبأعمال الشجاعة والبسالة أو بادعائها لأنفسهم بها أو بالرغبة إلى الشعراء بأن يمدحوهم بها ، وكانوا يعطونهم على مديحهم جوائز حتى كان بعض الشعراء

يتكسبون بذلك ويتخذونه ذريعة لمعاشهم ، ومن نماذج المديح بالسخاء شعر الأعشى في المحلِّق حيث يقول :

لَعَمْرِي لَقَدْ لاحَتْ عُيُونٌ كَثِيرةٌ ... على ضوءِ نارٍ باليَفاعِ تُحَرَّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيانِها ... وباتَ على النَّارِ النَّدَى والمُحَلَّقُ
رَضِيعَيْ لِبانٍ ثَدْيَ أُمٍّ تَقاسَما ... بِأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لا نَتَفَرَّقُ
تَرَى الجُودَ يَجْرِي ظاهِراً فوقَ وَجْهِهِ ... كما زانَ مَتْنَ الهِنْدُوانِيِّ رَوْنَقُ
يَدَاهُ يدا صِدْقٍ فَكَفٌّ مُفِيدَةٌ ... وكَفٌّ إذا ما ضُنَّ بالمالِ تُنْفِقُ

وأما ادعاء الشجاعة والبسالة وبيان أعمالها فمثاله قول عنترة بن شداد العبسي في معلقته :

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقِيعَةَ أَنَّني ... أَغْشَى الوَغَىٰ وأَعِفُّ عندَ المَغْنَمِ
ومُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُماةُ نِزالَهُ ... لا مُمْعِنٍ هَرَباً ولا مُسْتَسْلِمِ
جادَتْ لَهُ كَفِّي بِعاجِلِ طَعْنَةٍ ... بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الكُعُوبِ مُقَوَّمِ
فَشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيابَهُ ... ليس الكريمُ على القَنا بِمُحَرَّمِ
فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَهُ ... ما بينَ قُلَّةِ رأسِهِ والمِعْصَمِ
لَمَّا رأيتُ القومَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ ... يَتَذَامَرُونَ كَرَرْتُ غيرَ مُذَمَّمِ
يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرِّماحُ كأنَّها ... أَشْطانُ بِئْرٍ في لَبانِ الأَدْهَمِ
ما زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِثُغْرَةِ نَحْرِهِ ... ولَبانِهِ حتَّى تَسَرْبَلَ بالدَّمِ
فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القنا بِلَبَانِهِ ... وشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ
ولقد شَفَىٰ نَفْسِي وأذهبَ سُقْمَها ... قِيلُ الفوارسِ وَيْكَ عَنْتَرَ أَقْدِمِ

طلب الثأر وإغاثة الملهوف :

وكان الثأر مما يحمل العربي على القيام بما يسعه من بذل جهد في طلبه وشجاعة في سبيله ، وكان يُعَدُّ التهاون فيه من أسباب المهانة والذلة . ومثاله قول قيس بن الخطيم متحدثاً عن انتقامه من خصمه :

طَعَنْتُ ابنَ عبدِ القَيْسِ طعنةَ ثائرٍ ... لها نَفَذٌ لولا الشُّعاعُ أَضاءَها
مَلَكْتُ بها كَفِّي فأَنْهَرْتُ فَتْقَها ... يَرَىٰ قائماً من دُونها ما وَراءَها

يَهُونُ عليَّ أن تَرُدَّ جِراحُهُ عُيُونَ الأَواسِي إذْ حَمِدْتُ بَلاءها
وساعدني فيها ابنُ عمروِ بنِ عامر خِداشٌ فأدَّى نِعْمَةً وأَفَاءها
وكنتُ امرأً لا أسمعُ الدهرَ سُبَّةً أُسَبُّ بها إلاَّ كَشَفْتُ غِطاءها
فإنِّي في الحربِ الضَّرُوسِ مُوَكَّلٌ بإقدامِ نَفْسٍ ما أُرِيدُ بَقَاءها
إذا ما اصْطَبَحْتُ أربعاً خَطَّ مِئْزري وأَتْبَعْتُ دَلْوي في السَّخَاءِ رِشاءها
ثَأَرْتُ عَدِيّاً والخَطِيمَ فلم أُضِعْ وِلايةَ أَشْياءٍ جُعِلْتُ إِزَاءَها

وفي سبيل السمعة الطيبة والكرامة كانوا قد يلجؤون إلى اختيار التبذير الشديد والإسراف الغريب ، وقد يتطلب ذلك منهم تضحيات في الأموال والأرواح ، نجد أمثلة منها في حياة حاتم الطائي وغيره من أجواد الجاهلية ، والشعر الذي قيل في الجود والسخاء ، وكان منه قيام بعضهم بإغاثة الملهوف والافتخار به ، ومثاله قول بعض بني أسد :

يَدَيْتُ عَلَىٰ ابنِ حَسْحَاسِ بنِ وَهْبٍ بِأَسْفَلِ ذِي الجَذَاةِ يَدَ الكَرِيمِ
قَصَرْتُ لهُ مِنَ الحَمَّاءِ لَمَّا شَهِدْتُ وغابَ عَنْ دَارِ الحَمِيمِ
أُنَبِّئُهُ بأَنَّ الجُرْحَ يُشْوِي وأَنَّكَ فوقَ عِجْلِزَةٍ جَمُومِ
ولَوْ أَنِّي أَشَاءُ لكنتُ منه مَكَانَ الفَرْقَدَيْنِ مِنَ النُّجُومِ
ذَكَرْتُ تَعِلَّةَ الفِتْيَانِ يَوْماً وإِلْحَاقَ المَلاَمَةِ بالمُلِيمِ

وكما مرَّ في أحد أبيات طرفة بن العبد .

الحالة الدينية :

أما دينهم فكان من أبسط وأقصر ما يكون ، كان منحصراً في العبادة عندما تشعر نفوسهم بالحاجة إليها ، يؤدون حقها بأي طريق يحسبونه متناسباً مع رغبتهم ، متبعين في ذلك تقاليد آبائهم ، وكانوا يعبدون الأصنام والتماثيل ، ويؤدون طقوساً وعادات ، ويعتقدون بأشياء موهومة ، وربما صنعوا الصنم من السكر والسويق لتحقيق رغبتهم في العبادة خلال سفرهم ، فيعبدونه ، ثم يأكلونه عند الجوع .

ظهور الإسلام وتأثيره:

ولما جاء الإسلام تعارضت رغباتهم واتجاهاتهم عن تعاليمه فخالفوه، وتعصبوا ضده، وآذوا المسلمين، وقام الأقوياء من الكفار بتعذيب الضعفاء من المسلمين، وآذوا الرسول ﷺ أيضاً، واضطروه إلى الهجرة إلى المدينة حتى وصل الأمر إلى القتال فوقعت حروب انهزم فيها الكفار، فحرضوا شعراءهم على هجاء الرسول ﷺ والنيل من شرفه وكرامته، وكان الشعر من أقوى سلاح في ذلك العصر، كانوا يتأثرون ويؤثرون به في النفوس، فلما أشهروه ضد الرسول ﷺ وضد الإسلام أراد كبح جماحه وشره فعابه وانتقده، وكافح المسلمون شر الكفار وكافحوا اتجاهاتهم وتصوراتهم المنحرفة، ورباهم رسول الإسلام محمد ﷺ بأخلاقه وبدعوته وتربيته للنفوس، وقد نجح في صياغة تصوراتهم في قالب جديد، وملأ قلوبهم بطلب رضا الله سبحانه وتعالى مكان رغباتهم إلى اللذة واللهو، وخلع عنهم لباس الهوى والفساد، وأحل محله لباس التقوى، يقول الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

مبادىء دعوة الإسلام:

بدأت الدعوة الإسلامية عملها منذ أن نزل على الرسول ﷺ الوحي من الله تعالى بقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ١ ـ ٨].

وبذلك جمع الإسلام في دعوته بين الإيمان والعلم، إنه دعا إلى تصور جديد لمكارم الأخلاق وإلى إصلاح للحياة، وتحويلها من الفساد إلى الفضيلة، ودعا إلى العلم والقراءة والعبودية لله تعالى، إنه قام بتحويل اتجاه العرب من الاهتمام بمتاع الحياة الدنيا إلى الاهتمام بالفوز والفلاح في الآخرة.

* * *




الباب الأوّل

أصول الأدب الإسلامي

الفصل الأول : تأثير الدين الإسلامي في حياة العرب

الفصل الثاني : دعائم أدب العهد الجديد




الفصل الأوّل

تأثير الدين الإسلامي في حياة العرب

تغيرت الحياة العربية الجاهلية بتأثير الدين الإسلامي الذي دخل فيه العرب قاطبة ، ذلك الدين السماوي الأخير الذي جاء به ـ من الله تعالى ـ رسوله العظيم محمد بن عبد الله القرشي العربي ﷺ ، واصطبغت الحياة العربية بصبغته الجديدة في جميع مناحيها ومجالاتها ، فكان من تأثير ذلك أن خرجت الحياة العربية من حالة التفرد والانعزال القبلي إلى حالة الاجتماع والتضامن الإسلامي ، وخضعت عصبية الدم والنسب لرابطة الأخوة الإسلامية الواسعة ، كان مبدؤهم في ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] وقول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «كلكم من آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى» فحصلت بذلك وحدة إسلامية شاملة ، وزالت فوارق الدم والنسب ، وذكر الصحابي الجليل ربعي بن عامر مبدأ المسلمين في الحياة الجديدة بقوله: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» فتوسعت بذلك آفاقهم العقلية والوجدانية ، واتصفت حياتهم بالنزاهة في السيرة والجد في العمل والسمو في العواطف والرغبات ، وتهذبت مشاعرهم ، وأرهفت أحاسيسهم ، وتفاعل كل ذلك في تكوين طبيعة جديدة ، تختلف في الشعور والنظر عن طبيعة الحياة القديمة ، وخضع لهذه الطبيعة الجديدة اقتباسهم واتباعهم لثقافتهم القديمة ، وحياتهم السابقة ،

واستفادتهم وتلقيهم من أدبهم القديم ، وذلك بالإضافة إلى الزاد الأدبي والسلوكي العظيم الذي وصل إليهم عن طريق القرآن وسنة الرسـول ـ ﷺ ـ ، وقد كان ـ ﷺ ـ نموذجاً للحياة الإنسانية المثالية المتحلية بالصدق والصرامة والعطف والرحابة والسمو الخلقي، وقد قال : «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

نـظـرة الإسـلام إلـى الأدب :

ظهر الرسول ﷺ وكان قد نشأ على بلاغة القول وفصاحة البيان ، لأنه من قريش ومن أكرم فرع منها ، ونزل عليه القرآن الذى اشتمل على الكلام البليغ المؤثر والبيان الزكي الرائع ، تحولت به النفوس من الضلال ومساوىء الآداب إلى الصلاح ومكارم الأخلاق ، وبذلك برز للعرب خط جديد للأدب وهو استخدامه للأغراض الإنسانية النبيلة ، واستخلاصه من الأوحال الدنسة والمتاهات الخليعة ، فأصبح بذلك ما يتجاوز الحدود النزيهة منه محظوراً مرفوضاً ، وما ينحصر فيها ويخدمها جائزاً مقبولاً ، إنه نعىٰ على رجال الشعر غوايتهم ومخالفة قولهم وفعلهم في جانب ، ورضي عن النثر حكمته وبيانه في جانب آخر ، فانقطعت عنه بتأثير ذلك نواحيه التائهة ، ولقد زهد لوقت ما عدد من رجاله حتى في قول الشعر ، إلاَّ إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، وكان لهدف صالح ، فهذا حسان بن ثابت الأنصاري لم يقل الشعر بعد إسلامه إلاَّ فيما يرضي الله ورسوله ، ويخدم الفكرة الإسلامية النبيلة ، وهذا لبيد بن ربيعة صاحب إحدى المعلقات الشعرية زهد بعد إسلامه في قول الشعر ، فلم يقل إلاَّ نادراً ، وكذلك الآخرون من شعراء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لم يقولوا الشعر بعد إسلامهم إلاَّ في أغراض سليمة نافعة ، وبدأت تظهر للشعر معالمه الإسلامية ، وبدأت تتكون طبيعته الإسلامية في كلام الملتزمين بالفكرة الإسلامية للشعر .

الـروح الإسـلامـيـة لـلأدب :

ويشير إلى الروح الإسلامية للأدب والشعر ما حدث لشاعر بعد إسلامه وهو النابغة الجعدي لما قال فيما قاله :

«بَلَغْنـا السَّمـاءَ مَجْدَنـا وجُـدُودَنـا وإنَّـا لَنَـرْجُـو فـوقَ ذلـك مَظْهَـرا»

فلما سمع ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ تغير وجهه الكريم ، وسأل : «إلى أين يا أبا ليلى؟ فقال الشاعر : إلى الجنة يا رسول الله» وبذلك طابت نفس رسول الله ﷺ لأنه عرف من شرح الشاعر لشعره أن المفهوم ليس كما يبدو من ظاهر النص بأن يكون جراءة مع الذات الإلهية ، بل إن مفهومه هو التقرب إليه وطلب مثوبته وجنته ، فبيت واحد من الشعر كان يدخل في حيز الإلحاد والكفر ، إذا كان مضمونه مغايراً للحق والإسلام ، و لكنه يصير بيتًا من الشعر الإسلامي ، عندما يتفق مفهومه مع النظرة الإسلامية الرشيدة إلى الحياة .

ولقد ظهر الاتجاه الأدبي الإسلامي الملتزم لأول مرة في كلام الرسول ﷺ وكان مشتملاً على أنواع وأصناف أدبية مختلفة ، لا على نوع واحد محدود ، وقلده واتبعه فيه صحابته ـ رضي الله عنهم ـ والذين أتوا من بعدهم من أتباعهم ، وبسطوا القول ، ونوعوه ، كل بحسب مواهبه العقلية والخيالية ، ولكن ملتزمين فيه ومحتفظين بالسمة السليمة المقتبسة من المنهج القرآني للبيان الأدبي ، ومن بيان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فوجد بذلك في موضع كل لون من الأدب الجاهلي لون من الأدب الإسلامي ، الخُطب في موضع الخطب ، والعهود في موضع العهود ، والحكم والأمثال في موضع الحكم والأمثال ، بدون أن تنطوي على خلاعة وفساد ، بالإضافة إلى ما تجدد لهم من أنواع أدبية أخرى مثل الرسائل والأحاديث ، وذلك بتأثير تصورات جديدة عن الحياة والإنسان .

أبقى الإسلام من التراث الأدبي الجاهلي ما لم يكن فيه فساد وانحراف أو ما غلب نفعه على ضرره ، إنه لم يعامله معاملة النفي والشطب جزافاً ، بل إنما كانت نظرة الإسلام إليه كنظرته إلى الناس ، فيهم خيار وشرار قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» (صحيح مسلم) وقد أثنى الرسول ﷺ

على الجواد الجاهلي الكريم حاتم الطائي عند كلامه مع ابنه ، فقد قال: «إن أباك كان يحب مكارم الأخلاق» ، واستنشد شعر أمية بن أبي الصلت وقال: «آمن لسانه وكفر قلبه».

هكذا كانت نظرة الإسلام إلى الأدب ورجاله ، فكل ما كان خيراً في الجاهلية عد خيراً في الإسلام.

اعتناء الصحابة بالشعر:

ونجد عند الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ اعتناءً بالشعر الجاهلي استعانوا به في فهم معاني ألفاظ القرآن ، واستفادوا به في مختلف أغراضهم النزيهة ، وقضوا به حاجات نفوسهم الملتزمة ، ويشهد بذلك ما روي عن سيدنا عمر بن الخطاب أنه اجتمع ببعض أولاد هرم بن سنان ممدوح شاعر الجاهلية الكبير زهير بن أبي سُلْمى ، فاستنشده سيدنا عمر بن الخطاب بعض مدائح زهير في مدح أبيهم ، فأنشده ، فعلق عليه سيدنا عمر بقوله: «إن كان ليحسن فيكم القول» قال أولاد هرم: «ونحن والله إن كنا لنحسن له العطاء» فقال: «قد ذهب ما أعطيتموه ، وبقي ما أعطاكم»[1].

وكذلك لما اجتمع بسيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ شاعر الرثاء المعروف متمم بن نويرة ، واستنشده سيدنا عمر بن الخطاب رثاءه في أخيه مالك بن نويرة الذي قتله سيدنا خالد بن الوليد قائد جيوش المسلمين ، فأنشده متمم شعره الذي أوله:

وكُنَّا كَنَدْمَانـي جَـذِيمَـةَ حِقْبَـةً   مِنَ الدَّهْرِ حتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعا

فتأثر به سيدنا عمر ، وقال: ليت مثله قيل لأخي زيد بن الخطاب ، وكان استشهد في القتال للإسلام ، فقال متمم: «لو أن أخي مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته» فقال عمر: «ما عزاني أحد في أخي بمثل ما عزاني به متمم»[2]

(١) مختار الأغاني لابن منظور ج ٥.
(٢) مختار الأغاني ج ٩.

فهذا كله يدل على أن الإسلام لم يشطب الأدب الجاهلي كله ، بل إنما شطب الأدب الفاسق والمنافق منه .

المفهوم الإسلامي للأدب :

فالشعر والأدب إذا تقيدا بحدود النزاهة الإسلامية النابعة من القرآن والسنة ، وأدب الصحابة ، ولم يقعا فيما نهى الإسلام عن الوقوع فيه ، من هتك الأعراض والعيث بالفساد ، فهما مقبولان في نظر الإسلام ، وإلا فهما خارجان من الإطار الإسلامي ، ويبعدان عنه بمدى بعدهما عن الالتزام بروحه وإسلاميته ، على كل ، فإن الإسلام لم يعارض الأدب ، ولم يتخل عن مجال من مجالاته الكثيرة إلا في حدود التزامه بالحق والنزاهة ، ونفيه للانحراف والعدوان ، وبه يتعين المفهوم الإسلامي للأدب ، ويظهر منهجه لمسايرة الحياة وتمثيلها ، ويتبين أيضاً أن الأدب المشتمل على هذا المفهوم لا يعجز عن المعالجة الفنية لأي جانب من جوانب الحياة ، ولا عن تأدية رسالة الأدب الموكولة إليه ، غير أن هدف الأدب الإسلامي المفضل هو التعبير عن الحياة للبناء والإصلاح ، حينما نجد هدف الأدب الجاهلي المفضل هو تحقيق مآرب الحياة التائهة ، ومساعدتها بكل وسائل العربدة والاختباط ، وذلك لأن الإسلام لا يرضى بالحرية والتمتع بملاذها التى تكون متعة ولذة لواحد ، وهتكاً واعتداء على الآخر ، أو إفساداً وهدماً لسلامة الإنسانية وخيرها .

فيدخل الأدب في الإطار الإسلامي ما دام يكون خالياً مما نهى الله ورسوله عنه ، ورضي الرسول ـ عليه السلام ـ بهذا القسم من الأدب ، فقد استمع إلى شعر العهد الجاهلي ونثر العهد الجاهلي بدون أن ينعى عليه ، إنه رضي بشعر كعب بن زهير وأعطاه جائزة عليه ، وتحدث إلى زوجته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بحديث أم زرع ، وقال في آخره: «أنا لك كأبي زرع لأم زرع» وجرى على سنته خلفاؤه ، كما ظهر من استماع سيدنا عمر بن الخطاب لقصيدة رثاء مالك بن نويرة ، ورغبته لكون مثل هذا الرثاء لأخيه زيد أيضاً ، وطلبه من أولاد هرم بن سنان أن ينشدوا شعر زهير في مدح أبيهم وثنائه عليه .

أهمية النثر في العهد الجديد:

أما النثر فقد عظمت أهميته في العهد الجديد، وعظمت الحاجة إليه، وذلك ـ أولاً ـ لنزول كلام الله فيه، وهو في قمة البيان العربي، وقد عظم تأثيره على النفوس والقلوب، وثانياً لعدم مجاوزة الرسول ـ عليه السلام ـ في كلامه من النثر إلى الشعر، وهو أفصح العالمين، وأبلغ العرب بلا جدال، ولقد اقتضت الحياة الجديدة اللجوء إلى النثر أكثر للحاجات الدعوية، فاشتدت عناية المسلمين العرب به، وعظم استخدامهم له في شؤونهم وأعمالهم، فإن فيه صلاحية أعظم ومرونة أكثر لملاءمة مقتضيات الحياة الاجتماعية الجديدة، وقضاء ضرورات الحكم، وسياسة البلاد التي كان العرب قد أصبحوا منذ ظهور الإسلام وانتشاره في حيالها.

وأمر الرسول ـ عليه السلام ـ منذ هاجر إلى المدينة المنورة بتعلم الكتابة، وهي أساس الثقافة والعلم، وذريعة إلى قوة النثر الفني وازدهاره، واستبق المسلمون إلى الكتابة والتعليم، حتى أصبح فيهم كتَّاب (أي متعلمون) في زمن قليل.

* * *

الفصل الثاني

دعائم أدب العهد الجديد

قام أدب العهد الجديد على أربع دعائم وهي :

أ ـ الأدب المأثور من العهد الجاهلي .

ب ـ ظروف الحياة الجديدة ومؤثراتها .

ج ـ القرآن الكريم الذي نزل ، فأثّر على النفوس والقلوب ، وغيَّر طبيعة سامعيه وقارئيه الفكرية والوجدانية والشعورية ، ومنح أصحاب الشعور الأدبي منهم صوراً ونماذج أدبية جديدة وبديعة كثيرة ، فطوَّر وميَّز وأضاف في الطريقة والمنهج .

د ـ حديث الرسول ـ عليه السلام ـ الذي كان أضخم ثروة نثرية للعرب ، وكان على الأسلوب الواضح، الزاخر بنماذج مؤثرة .

الأدب المأثور :

أما الأدب المأثور من العهد الجاهلي فأكثره الشعر الذي قيل في مدة قرن ونصف قرن قبل الإسلام ، وعبر العرب به عن مشاعرهم وعواطفهم وتصوراتهم بأسلوب واقعي مؤثر أخّاذ ، وله نماذج رائعة نقلتها كتب الدواوين والمجموعات الأدبية ، وظهر تأثيره على مشاعر أبناء ذلك العصر وأفكارهم ، وذلك يدل على مدى قوته وبلاغته ، وتعلق قلوب العرب به ،

وأكثره يدور في الشعر الذي قيل في جوانب الحياة العربية الخالصة ، في مختلف مناسباتها من سلم وحرب وتأملات ووجدان ، وأما النثر فكان قليلاً وبسيطاً في عامة الأحوال ، غير أن نماذج خاصة منه امتازت ونالت شيئاً من البقاء والذكر ، وكان مشتملاً على جمل الحكمة والمثل وبعض الخطب والوصايا.

ظروف الحياة الجديدة:

أما ظروف الحياة الجديدة وأحداثها فهي أيضاً دعامة كبيرة من الدعائم الأدبية التي قام الأدب الجديد عليها ، وهي نتيجة التحول الجذري في حياة العرب الذين نحن بصدد أدبهم ، فقد أحدث التحول الديني الذي ساد العرب ، وعمهم ـ فدخلوا في الإسلام كافة ـ تحولاً في شتى المجالات ، من نظرة إلى الحياة ، ومن سيرة فردية ، ومن سلوك اجتماعي ، كما أنه أوجد مجالات جديدة للحياة لم تكن في الجاهلية ، من عمل الدعوة للدين الجديد واختيار نظام جديد للعبادة والعبودية لله في جميع أنحاء الحياة ، ومن اختيار حياة الجد والفضيلة ، ومن بدأ حياة التمدن والحكومة ، وظهور أحوال الفتوح الكثيرة وانفتاح العالم ، فالعربي الذي كان في الجاهلية يتسكع في البطالة والهوى والجهالة ، يلتزم الآن بالجد والفضيلة والعمل ، وكانت حياته قبل الإسلام بدوية متخلفة ضيقة الحدود ، فأصبحت الآن اجتماعية متمدنة خاضعة لسلطان الحق ، وكانت الخصومات القبلية الضيقة تستولي عليه في الماضي ، أما الآن فهو يدخل في مجال الوحدة الكبيرة ويبسط سلطانه على البلدان الواسعة خارج الجزيرة ، فنظرة على تاريخ العرب قبل الإسلام ، وعلى ثقافتهم وأنماط حياتهم في الجاهلية ، تكشف طبيعة ذلك العهد الجاهلية والبدوية الإباحية المتحررة.

القرآن الكريم:

أما القرآن الكريم فهو الدعامة الكبرى من بين الدعائم الأربع المذكورة ، فقد أثر على طبيعة أدب العهد الجديد، وصاغه صياغة جديدة في عناصر

الأسلوب الأدبي كلها ، من عاطفة وفكرة وخيال وصورة لفظية ، واشتمل على نماذج رائعة لصور أدبية قوية نابضة بالحركة والحياة في مختلف مجالات التعبير والتصوير الأدبيين.

وكان أعظم مدد للنثر الفني الجديد ، والمثل الأعلى للمناهج الأدبية الجديدة النقية ، وتلقيناً أيضاً بما يجب أن يؤديه الأدب الإسلامي من دور في العالم، لبناء الحياة الإنسانية الهادفة النبيلة.

نزل القرآن على الرسول محمد ﷺ منجماً في ثلاث وعشرين سنة ، ثلاث عشرة في مكة ، وعشر سنوات في المدينة المنورة ، ولما كانت الحياة في مكة حياة دعوة وتبليغ وفتح طريق بين القلوب المتمردة الجامحة والنفوس المتأبية القاسية ، كانت الآيات القرآنية التي نزلت فيها قصيرات الجمل رائعة الفواصل شبيهة بالسجع ، فالجمل مليئة بالقوة البيانية والتأثير اللفظي طبيعية المعنى وبسيطته، أما في حياة المدينة فكان المسلمون في قوة ووحدة نظام ، ولم يكونوا في حالة ضعف فكانت الآيات المنزلة فيها حافلة بتوجيهات رشيدة ، ومعاني التربية وتنظيم الحياة تنظيماً عادلاً مفيداً ، فقل فيها أسلوب البديع ، وطالت الفِقَر ، وحفلت بالمعنى الغزير ، واشتمل القرآن على مئة وأربع عشرة سورة ، منها كبيرة وصغيرة ، أطولها سورة البقرة ، وهي تشتمل على مئتين وست وثمانين آية ، وأصغرها اشتملت على ثلاث آيات ، وهي في الجزء الأخير من القرآن ، والقرآن ثلاثون جزءاً ، ويشتمل القرآن على معاني الدعوة والإصلاح والتوجيه والتربية والتشريع والتعليم ، وقد ذكر حوادث وقصصاً للأنبياء السابقين ، وكل ذلك يفتح القلوب المغلقة للدين الإسلامي.

أسلوب القرآن:

جمع القرآن بين غزارة المعنى وإحكامه ، ورصانة اللفظ وفصاحته ، واشتمل على نواح فكرية ونفسية مختلفة ، من تشريع وتهذيب ووصف ، في أبلغ الصور البيانية معنى وعبارة ، وأشدها وأسماها تأثيراً ومكانة ، مع عدم

التقيد بقيود الفن المفروضة ، أو طرق أدبية مرسومة ، بل سار على التجديد والابتكار والتنويع والإعجاز.

طـريـقتـه بيـن الـطـريـقتيـن :

وليست طريقته طريقة الشعر الذي يتبع خطة نظم مألوف ، وليس من النثر المطلق الخالي من جمال التعبير ومحسنات اللفظ والإيقاع أيضاً ، بل إنها طريقة بينهما تتقيد بقيود تشبه في بعض خصائصها قيود الشعر الجميلة وتتحرر في أخرى بحيث تشبه النثر الفني الجميل ، ولكنها تفوق طريقتي الشعر والنثر كلتيهما على كل حال ، وتحمل تأثيراً أعظم من تأثيرهما ، وفائدة أوسع من فائدتهما ، وجمالاً أسحر ، ومعنى أغزر منهما جميعاً.

جـمـال الـعبـارة وعـذوبـة الـصـوت :

فحيناً يمتلىء أسلوبه بجمال العبارة وتأثير اللفظ مع جزالة المعنى وقوته فتحمل تأثيراً أشد من تأثير الشعر ، وعذوبة أشد من عذوبته ، وتحمل أواخر آياته مع تحررها من قيود النظم المقررة جرساً شعرياً مؤثراً ، وهي تسمى «بالفواصل» عوضاً عن القافية والرديف ، فهي لا تجري على مجرى صوتي أو وزني واحد ، وأسلوبها ليس على أسلوب السجع أيضاً بالمعنى الدقيق للسجع ، ويراعي القرآن هذه الفواصل فيؤثر بذلك أثراً بليغاً ، وينوعها، فلا يلتزم دائماً بتساوي الفقرتين، بل قد تكون إحداهما قصيرة، وأخراهما طويلة، وأحياناً لا تتحد الحروف الختامية ولكنها لا تخلو من التناغم الجميل.

مـوافـقتـه لـلـنفسيـة والـوضـع وتـنـوع عـباراتـه حسـب المقتضى والمعنى :

وأصل أسلوبه هو اتباعه للأغراض الفاضلة التي أنزل لأجلها ، مع موافقة كاملة بارعة للنفسية التي يملكها مخاطبوه ، وللأجواء الذهنية والوجدانية التي يسبحون فيها ، ولذلك تنوعت أساليب القول فيه بتنوع الحالة والموضوع ، وباختلاف مستوى الوعي الوجداني والنفسي للمخاطبين ، وكل ذلك في تناسق دقيق وانسجام لطيف.

كما تتنوع بين الشدة واللين ، والترغيب والترهيب ، والوعيد أيضاً بقدر ما يحتاج إليه الوضع ، وتقتضيه حكمة الدعوة ، فحينًا تشتمل الآيات على تشريع أحكام وتوجيه وإرشادات ، وحيناً تشتمل على تفصيل صور الجزاء والعقاب ، أو بيان قصص الدعوة وحياة الأنبياء ، وفي كل ذلك تنسجم بتراكيبها وأصواتها وأصنافها مع الجو والموضوع والنفسية .

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم : ٣٠ ـ ٤٠].

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ [ن : ١ ـ ٢٠].

الفخامة والرقة :

وقد تتجلى في الآيات حيناً فخامة المعنى وجلالة الموضوع ، كما في سورة الحج وسورة المؤمن ، وحيناً تتجلى منها الرأفة الظاهرة واللطف الأنيس، كما في سورة مريم وسورة الأنبياء .

الجمال الصوتي والتناغم:

أما التناغم والجمال الصوتي الجميل فله أيضاً نماذج مختلفة ، كثيرة، كما في سورة الفرقان ، وسورة قَ ، وسورة القمر ، وسورة الرحمن ، وسورة المرسلات وغيرها.

ضرب الأمثال:

ويزخر الكلام القرآني بتمثيلات رائعة بديعة وضرب الأمثال ، وإنها تسوق النفس الإنسانية إلى معرفة الذات الإلهية والاقتناع بسمو الدعوة النبوية.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٤ ـ ٢٦٥].

﴿... قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٦ ـ ١٧].

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ

﴿الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣ ـ ٧٤].

تصوير المعاني والمشاهد:

وكذلك نجد أسلوب القرآن مليئاً بتصوير المعاني والمشاهد تصويراً صادقاً محسوساً، وذلك من السمات الأدبية في القرآن، وإنه يشرح به النفوس المقفلة، ويفتح العقول المغلقة لفهم الحقائق الدينية الناصعة وتلقيها.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٣٩ ـ ٤٠].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ ـ ٢].

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ١ ـ ٨].

الأقسام:

ومن أدوات التأكيد الأدبي والنفسي في القرآن هي الأقسام التي وردت كثيراً في مفتتح السور، وقد تكررت أحياناً في موضع واحد، فزادت المعنى قوة، والعبارة روعة، والتعبير جمالاً، وهي تتفق مع الموضوع الذي تفتتحه، وتؤيده تأييداً نفسياً، وتزيد في القوة والإقناع.

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ١ ـ ٩].

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ١ ـ ٨].

﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦].

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١ ـ ٤].

فروق المعنى ودقائقها:

وفي القرآن رعاية دقيقة لفروق المعنى، فقد تختلف وتتعدد أشكال لفظ واحد أو صور استعماله، ولا يقتصر اختلاف أشكاله على جمال لفظي فحسب، بل تكون وراءه نكت معنوية بديعة، تدل على بلاغة القرآن وأسلوبه المعجز المدهش، كما في بناء كلمة «نعمة» فعندما استعملها القرآن مكسورة الفاء استعملها في موضع المدح، وعندما استعملها مفتوحة الفاء كانت في موضع الذم.

وكما في كلمة «الريح» فعندما استعملها مفردة أراد العذاب، وعندما استعملها جمعاً استعملها رحمة وإنعاماً.

وكما في كلمتي «علا وعال» فقد استعمل الأول في موضع الخير، أما الثاني فقد استعمله في موضع السوء بوجه عام، وهناك أمثلة كثيرة لفروق المعاني، ولها أصناف وألوان عديدة مختلفة في القرآن.

صوتية الألفاظ:

ومن جمال عبارة القرآن هي رعايته للأثر الصوتي الذي تتركه الكلمة على نفس المخاطب، فإنه يراعي في ذلك أيضاً الجو النفسي والوجداني للمخاطب في كثير من الأحيان، فتؤثر الكلمة على ذهن المخاطب بشكلها

ومبناها نفس التأثير الذي يؤثر به معنى الكلمة .

ككلمة «اثاقلتم» لمعناها في آية ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . . . ﴾ [التوبة : ٣٨] .

وككلمة «دمدم» لمعناها في آية ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ١١ ـ ١٤] وككلمة «هواء» لمعناها في ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم : ٤٣] وكلمة «دكاً دكاً» لمعناها المستعمل فيه ، وكلمات «يتفطّرن» و«تنشقُّ» و«هدّاً» في آية ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ [مريم : ٩٠ ـ ٩١] .

التشريع :

والتشريع من أهم موضوعات القرآن ، وقد شغل منه مكاناً واسعاً ، وأسلوبه فيه أسلوب هادىء محكم وقوي مقنع .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٨ ـ ١٧٩] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ . . . ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

القصص:

وكذلك نجد في القرآن قصصاً كثيرة لحياة الدعوة وجهود الأنبياء و ردّ أممهم عليهم ، وهي تشتمل في مختلف المواضع على مختلف الأساليب القصصية ، منها عرض مشاعر الحنان والانطباعات البشرية الدقيقة وكل ذلك على النسق البليغ ، حسب النفسية والمراد ، ونجد أمثلتها في سور قرآنية كثيرة مثل «البقرة» و«الأعراف» و«يوسف» و«هود» و«الكهف» و«مريم» و«الأنبياء» و«القصص» وغيرها .

الموعظة والهداية:

وهي أهم موضوع قرآني ، وكثيراً ما تختتم آياته به ويتخللها أيضاً ، وقلما تخلو آيات القرآن منها ، وهو أيضاً من أسباب ازدياد الروعة الأدبية في الآيات مع عرضه الرئيسي للمقصود .

وبعد فإن الاستيعاب بصور التعبير القرآني الجميل الكثيرة صعب ومستحيل ، ولم نَسُقْ فيما سبق إلا نزراً قليلاً منها لتكون إشارة بسيطة إلى قوة التعبير القرآني ، وجماله وإعجازه ، ومن أراد التوسع فعليه بتلاوة القرآن والتدبر فيه بنفسه .

تأثير القرآن في الأدب:

ودوى المسلمون بالقرآن دوي النحل ، وتذوقوه في موضوعه وأسلوبه ، وتشرَّبوا روحه ، واتخذوه إماماً في الأدب وتلاوة في الصلاة وقانوناً يحكم فيما يعرض من أحداث ، ومادة لغة وشاهداً على صحة التعبير وجودة الأسلوب، وكان أثره في النثر أكثر من الشعر، فإن الأول قد قصر استفادته واقتباسه على القرآن، وحديث الرسول عليه السلام، أما الثاني: فقد كان أصل اقتباسه من الشعر الجاهلي، مع الاستفادة بأدب القرآن أيضاً .

* * *




الباب الثاني

النثر وأعلامه

الفصل الأول: كلام الرسول ـ ﷺ ـ خير نموذج لأدب النثر

الفصل الثاني: نصوص النثر الفني للآخرين من هذا العهد




الفصل الأول

كلام الرسول ـ ﷺ ـ خير نموذج لأدب النثر

نمو النثر وقوته :

بتأثير القرآن وبتأثير قيم الحياة الجديدة ومقتضياتها بدأ النثر ينمو ويقوى منذ هذا العصر ، وتوسع نطاقه أكثر من ذي قبل ، واستمر له ذلك حتى وصل إلى ما وصل إليه من الغزارة ، والكمال ، والبراعة ، والجمال .

كان النثر في هذا العهد أكبر مقداراً وأوسع مدى لكونه مجالاً للدين الجديد والتوجيهات الدعوية والتربوية والتشريعية؛ التي حفل بها كلام الرسول ﷺ وصحابته الكرام ، ففاق في الجودة والمقدار على نثر العهد الجاهلي كثيراً جداً .

يمتاز النثر في هذا العهد عن النثر في العهد الجاهلي في أمور ، منها :

أ ـ إنه كان موثوق الرواية ، ثبتاً أكثر ، لاهتمام ناقليه بالصدق والدقة .

ب ـ وكان يحمل قوة ونفعاً وتأثيراً واستفادةً في أغراضه وأساليبه من القرآن الكريم .

ج ـ وكان أفصح ألفاظاً وأسهل تركيباً وأعذب تعبيراً وأمتن سبكاً وأبرع دلالة وآنق ديباجة .

وغلبت عناية المسلمين بالنثر على عنايتهم بالشعر ، وذلك لأسباب ، منها :

أ ـ سقوط مكانة الشعراء في نفوس الناس لتكسبهم بالشعر مثل الأعشى والنابغة وغيرهما.

ب ـ وتعرُّض الشعراء لرسول الله ﷺ بالهجاء وهو هو في نفوس العرب المسلمين، ونَهْي رسول الله ﷺ عن الشعر إذا كان يخدم أغراضاً خسيسة وكان ذلك بصورة غالبة في ذلك الحين، فبهذا وبذلك ضعفت أهميته في نفوس المسلمين.

ج ـ وتعرض الشعراء بعضهم لبعض بالهجاء القبلي، فكان يثير ذلك الأحقاد فيما بينهم، وكانوا يفحشون في الغزل فمنع رسول الله ﷺ من ذلك حتى ورد في كلامه «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير من أن يمتلىء شعراً» فاحترز عدد من الصحابة رضي الله عنهم عن قول الشعر.

د ـ ثم بُهِر العرب ببلاغة القرآن وإعجازه التعبيري، وهو في النثر، ثم شغلوا بالفتوح فلم يتسع وقتهم لأن يشغلوه بالشعر فضعف عكوفهم عليه.

وفي نفس الوقت احتاج المسلمون إلى الخطابة للاستفادة بها في سبيل الدعوة، ولتحميس الجند للوعظ ومخاطبة الجماهير ولأعمال دينية وسياسية ومدنية.

النثر الفني في هذا العهد:

كان أبرز أقسام النثر الفني في العهد الجاهلي هي الخطبة والوصية، وكانتا تشتملان بوجه عام على أقوال حكيمة، والأمثال والأسجاع وشيء قليل من الروايات، ولما جاء الإسلام استخدم هذه الأقسام النثرية كلها في أهداف الدين الجديد، وفي أغراض الحياة الجديدة المتطورة، وزاد فيها قوة وانسجاماً، وذلك لتأثير المناهج والصور الجديدة التي ظهرت في نص القرآن العربي المقدس، وقويت الخطابة في هذا العهد، وعظم استخدامها في شؤون الحياة الاجتماعية والخلقية الجديدة، وأصبحت تلعب دوراً كبيراً في خدمة الدين الجديد، وبناء المجتمع الإسلامي، وتطورت الوصية، ونشأت

على غرارها العهود والعقود والرسائل فيما بعد ، ونشأت بعض أصناف النثر الأدبية الأخرى أيضاً مثل التوقيعات ، وهي تشبه الأمثال والأسجاع بعض الشبه .

خير النماذج النثرية

خير النماذج النثرية وأبلغها بعد بدء تأثير الإسلام والقرآن على الأدب العربي ولغته بدون أن يتأثر بتيارات أدبية مقارنة خارجية ، هي ما أثر عن رسول الله ﷺ وهو صاحب حياة نقية طاهرة ، ولد في أفصح القبائل العربية قريش ، وربي في أفصحها أيضاً ، وهي بنو سعد ، ثم تربى على الوحي الإلهي والإلهام السماوي ، ثم تعلم من مأدبة القرآن أحسن تعلم ، فمن يكون أعذب لفظاً وأحلى منطقاً وأصدق كلاماً وأبلغ عبارة منه ﷺ .

وكلامه هو الدعامة الرابعة من دعائم أدب العهد الجديد التي كان لها تأثير في تكوين هذا الأدب ، وقد صبغه بالصبغة الجديدة ، ورسم له منهجاً أدبياً خاصاً تجلى في كلام من برز في هذا العهد من رجال الكلام المؤثر البليغ .

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي من قريش ، وقريش أشرف قبائل العرب لسدانتهم للكعبة ، وهي مكان عبادة العرب في البلد الأمين مكة التي كانوا يحجون إليها فيطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، وكان فرع رسول الله ﷺ من قريش أكبر فرع وأشرفه ، وكان لآبائه مهابة ومحبة في قلوب العرب أكثر .

ولد ﷺ في عام الفيل ، ووالده توفي وهو في بطن أمه فكفله جده ، وتوفيت أمه وهو ابن ست سنين ، وتوفي جده وهو ابن ثماني سنين فكفله عمه أبو طالب ورضع في بني سعد ، وهي قبيلة من عليا هوازن ، وتعد من فصحاء القبائل ، فربي وترعرع في مهد الفصاحة إلى أن بلغ أربعين سنة فنزل عليه الوحي ، واستمر ينزل عليه ثلاثاً وعشرين سنة ، فكان أعظم منهل بياني له بجنب كونه منهلاً تربوياً وتوجيهياً دينياً .

وتوفي رسول الله ﷺ وعمره ثلاث وستون سنة ، وترك حين وفاته مئات الآلاف من أتباعه تربى عليه الألوف منهم .

كلامه نثر وليس شعراً :

نصوص رسول الله ﷺ الأدبية هي كلها من النثر ، ولم يقل شعراً قط ، ويشهد بذلك كتاب الله تعالى أيضاً ، بقوله : ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩] غير أنه كان يملك معرفة وبصيرة تامة بالشعر ، وقد سمعه من صحابته ، واستحسن الحسن منه وأبدى فيه رأيه ، وأمر باستخدامه عندما وجد الحاجة ماسة إليه كوسيلة للتأثير والإقناع ، لها أهمية في ذلك المجتمع .

خصائص كلامه وأصنافه :

كلامه نثر مرسل ، وبديع أيضاً ، سهل مأخذه ، وعذب مورده ، وجمع معاني غزيرة في جمل قصيرة ، هو موجز في موضع الإيجاز ، ومسهب في موضع الإسهاب ، ولم يكن يتكلفه تكلفاً ، بل كان يتكلم عن سجية نفسه ، يهجر الغريب الحوشي ، ويرغب عن الهجين السوقي .

واشتمل كلامه على أصناف أدبية عديدة من تمثيلات بارعة ، وحكم عالية ، وأمثال رائعة ، ووصايا نافعة ، واشتمل على معاني التوجيه والإرشاد ، والتشريع والتربية ، فكان مادة غزيرة للغة وأمثلة رفيعة للأدب ، وثروة قيِّمة للأخلاق .

أبرز أقسامه الأدبية :

وأبرز أقسام كلامه هي أحاديثه وخطبه وأدعيته ، ولم يخل كلامه من نماذج الرسائل والعهود والعقود أيضاً .

أحاديثه :

أما أحاديثه فقد اشتملت على مختلف أصناف الكلام ، وقد حفظ لنا التاريخ منها ثروة للدين والمعرفة والأدب ، اشتملت على مختلف جوانب

حياته وحياة عصره ، ورواها طائفة من صحابته الصادقين ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ وهي تجمع معاني كثيرة في ألفاظ قليلة مع وضوح وبيان ، قال ﷺ وهو من كلامه البديع :

«إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها ، وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم ، من غير نسيان ، فلا تبحثوا عنها» وقال : «إن الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال» .

وقال : «بادروا بالأعمال سبعاً ، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضًا مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر» .

وقال : «أمرني ربي بتسع أوصيكم بها ، بالإخلاص في السر والعلن ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأعطي من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذِكْراً، ونظري عبراً» .

أما أدبه المرسل فمثاله حديثه ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلاَّ نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» . (رواه مسلم) .

تمثيلاته :

قال : «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها ، وسقوا،

وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ، ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

خطابته:

أما خطبه فقد اشتملت على متانة القديم وسذاجته، وغزارة الجديد وسهولته ، تشتمل على كلام فصل وكلمة جامعة فكانت مؤثرة ، وقوية تهز النفس ، وغزيرة المعنى تحوي حكمة وموعظة وروعة أدبية ، وهنا نسوق مثالاً لإحدى خطبته الساذجة.

خطب في حجة الوداع وهو في منى ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير ، أما بعد! أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم ، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا ، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت، اللهم اشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب».

وقال: «أيها الناس ، إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفسه منه ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد ، فلا ترجعن بعدي كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد».

«أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل إلاَّ بالتقوى ، ألا هل بلغت ، قالوا: نعم ، قال: ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

وذكر أنصاري لرسول الله ﷺ: إن الأنصار وجدوا في أنفسهم على ما رأوه من إيثار رسول الله ﷺ غيرهم عليهم في توزيع الغنائم.

فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها في أنفسكم ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وعالةً فأغناكم الله بي ، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم قالوا: الله ورسوله أمنُّ وأفضل ، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ، قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله ، لله ولرسوله المن والفضل ، قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدَقْتم ولصدِّقتكم ، أتيتنا مكذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك، وعائلاً فواسيناك ، أو وجدتم علي يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم ، فو الذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وادياً ، وسلكت الأنصار شعباً وواديا لسلكت شعب الأنصار وواديها .

الأنصار شعار والناس دثار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ، قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً» .

أدعيته :

أما الأدعية فكانت صنفاً جديداً ظهر لأول مرة في الأدب العربي ، امتثالاً لتعليم القرآن ، واتباعاً لما قصه القرآن عن عباده الصالحين ، وكانت من أقوى أصناف الأدب .

وأدعيته ﷺ خير نموذج وأقواه في هذا الصدد ، وأسلوبها أسلوب محكم غزير ، يصور نفس الداعي ، وعاطفته الجياشة ، وضراعته وتواضعه بين يدي ربه ، في بلاغة عجيبة .

وهذا دعاؤه الذي دعا به في الطائف ، وقد كان غريباً فيها بعيداً عن الوطن ، جاء إليها ملتمساً لمن يساعده بالنصرة ، بعد أن كان عمه أبو طالب قد توفي ، وكان يحرسه من أذى قومه ، وكانت زوجته خديجة توفيت أيضاً ،

وكانت تؤازره وتعزي نفسه ، ولكنه لم يجد من أهل الطائف ، وهي المدينة الأخت لمدينة مكة ، إلا أشد مما وجده في مكة من رفض قاس من سادتها ، ومتابعة الأشرار له ، ورميهم إياه بالحجارة إلى أن دميت رجلاه ، وبلغ منه التعب مبلغه ، فلما خرج من عمران الطائف ، ولم يكن استراح حتى برهة من الوقت بعد سفره الشاق الطويل من مكة جلس في مكان خارجي لم يكن له فيه من الناس مواسٍ ولا أنيس إلا خادمه ومولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه دعا بهذا الدعاء الذي كان مرآة أدبية صادقة لنفسه المكلومة المليئة بالشعور بالألم مع المحافظة على العبودية لربها وخالقها.

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس. رب المستضعفين إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ، أم عدو ملَّكته أمري ، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن يحل بي غضبك أو ينزل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلاَّ بك».

وهذا دعاؤه في عرفات:

«اللهم إنك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سري وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيء من أمري ، وأنا البائس الفقير المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، ودعاء من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذل لك جسمه ، ورغم لك أنفه ، اللهم لا تجعلني بدعائك شقياً ، وكن لي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين ، ويا خير المعطين».

أقواله السائرة:

الآن حمي الوطيس ـ هدنة على دخن ـ يا خيل الله اركبي ـ لا ينتطح فيه عنزان ـ رويدك رفقاً بالقوارير ـ هذا يوم له ما بعده ـ وغيرها من الأقوال.

ومما لا شك فيه أن نصوص بلغاء الناس إنما تشير إلى خصائصهم الذاتية والموضوعية والأدبية ، وتجلو لنا كثيراً من ملامح شخصياتهم النفسية والفكرية والوجدانية والأدبية ، وتصور أصحابها تصويراً لفظياً يتبينه كل من يقرؤها ويدرسها ، وهو الذي يتجلى من نصوص رسول الله ﷺ من سمو النفس ، ونقاء الصدر ، ودقة النظر ، وصدق الشعور ، وصفاء الديباجة ، وجمال القصد ، وبلاغة القول .

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني
نصوص النثر الفني للآخرين من هذا العهد

سار النثر سيره على هذا الخط يتوسع ويتنوع مزداناً بالخصائص الفنية الجديدة التي وجدت فيه ، تبعاً للأحوال الجديدة وبتأثير أدب القرآن ونصوص الرسول ﷺ .

وظهرت نماذج هذا النثر في الخطب والعهود والرسائل والتوقيعات بصورة عامة ، كان من خصائصه : الإيجابية والتفكر وموافقة الواقع ، وتمثيل الحياة العربية الإسلامية المتدرجة إلى الرقي والعلم والقوة والازدهار .

الخطابة

واعتمد النثر الفني في هذا العهد على الخطابة أكثر من غيرها ، لأن الأغراض الغالبة في هذا العهد كانت الدعوة والإصلاح والإدارة والسياسة والحكم ، وتعمل فيها الخطابة أكثر من غيرها .

واختلفت الخطابة في هذا العهد منها في الجاهلية في أغراضها ومعانيها بمثلما وقع للشعر أيضاً إلى مدة من الزمن ، ولكن ظل أسلوبها على منهج يقارب المنهج الجاهلي لها وهو قصر في الخطاب والإيجاز في الجمل مع شيءٍ كثير من الموازنة ، وشيءٍ قليل من السجع واقتباس أو تضمين للأمثال وما أشبهها ، واستفادت الخطابة في هذا العهد من نفحات البيان القرآني

واتخذت الأسوة لها من خطابة الرسول ﷺ ، وهو صدق في القول ونصيحة للمخاطبين.

ومن أبرز من نجد نماذج خطابتهم في هذا العهد الخلفاء الراشدون وبخاصة منهم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

سيرته وأخلاقه:

هو عبد الله أبو بكر بن أبي قحافة ، ولد عام ٥٥ ق هـ (٥٦٨ م) في مكة في أسرة وجيهة من قريش وهي تيم ، فشب ذا مكانة في قومه عارفاً بالأنساب مسموع القول ، وكان يعمل في التجارة ولذلك كان على شيءٍ من اليسار ، وكان محبباً إلى الناس ، سهل المعاشرة حسن المجالسة ذا خلق ومعروف ، كان أول من أسلم في الرجال ، وآمن برسول الله ﷺ ثم مضى يدعو أصحابه إلى الإسلام ، فأسلم على يديه خيرة أبناء قريش ، مثل: عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وهو وكلُّ هؤلاء من العشرة المبشرة بالجنة من رسول الله ﷺ ، وصدَّق أبو بكر رضي الله عنه معراج رسول الله ﷺ فلقب بالصديق ، ولما كانت الهجرة إلى المدينة استصحبه رسول الله ﷺ بأمر من الله تعالى ، وكان رفيقه في الغار وذكر بهذه الصفة في القرآن.

وخلف أبو بكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ في إمامة الصلوات خلال مرض وفاته ، ثم اختاره المسلمون لخلافته بعد وفاته ، فقام بأمر الخلافة أحسن قيام سنتين من ١١/ إلى ١٣/ للهجرة ، وكان من أهم ما قام به من الأعمال في هذه المدة هو إخماد فتنة الردة التي كانت استفحلت إثر وفاة الرسول ﷺ ، وأرسل الجيوش للفتوح وجمع القرآن في مصحف واحد وكان قبل ذلك متفرقاً ، فعد بهذه الأعمال فريداً من أصحابه ، وكان شديداً على

نفسه في نيل حقه من بيت مال المسلمين ، وعاش في شظف شديد بسبب تقواه وخوفه ، كان خطيباً بليغ الكلام مقلاًّ جالباً للمعاني الكثيرة في عبارة وجيزة ، واشتمل أسلوبه على السهولة والمتانة ، وهي سمة خاصة من سمات أدبه وفكره .

نـمـوذج مـن خـطبتـه :

لما توفي رسول الله ﷺ وأصبح الناس في هرج ومرج من وطأة الحادث وشدة الفاجعة ، حضر أبو بكر رضي الله عنه وخطب أمام الحاضرين خطبة مؤثرة قال فيها :

«أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين» في كلام طويل ثم قال :

«أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً ، وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر ، يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولايشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ، ولا يفتننكم عن دينكم فعاجلوه بالذي تعجزونه ولا تستنظروه فيلحق بكم» .

وخطب حين بايع الناس البيعة العامة .

حمد الله وأثنى عليه أولاً ، ثم قال : «أيها الناس إني قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسددوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ، ألا إن أقواكم عندي الضعيف ، حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوي ، حتى آخذ الحق منه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم» .

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

سيرته وأخلاقه :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عدي بن كعب بن لؤي القرشي ، ولد نحو عام ٤٠ ق هـ (٥٨٣ م) وكان من أشراف قريش ، تعلم الكتابة وتقلب في التجارة بين اليمن والحبشة والشام والعراق حتى فخم أمره وعظم قدره ، وجعلت له قريش السفارة بينهم وبين قبائل العرب في السلم والحرب .

وكان عمر في بادىء الأمر شديد العداوة للمسلمين ، فلما رأى ضجر قريش من دعوة الإسلام أراد أن يقتل النبي ﷺ ودخل في طريقه إليه على أخته فاطمة وزوجها وهما مسلمان فضربهما ولكنه لما سمع القرآن رق قلبه ، وذهب إلى النبي ﷺ وأسلم بدلاً من أن يسيء إليه ، ثم أظهر شدته للإسلام كما كان أظهر شدته للكفر ، وعز المسلمون بإسلامه ، ورافق عمر بن الخطاب الرسول ﷺ في جميع غزواته ، وكان الرسول ﷺ يستظهر برأيه في كثير من الأمور وأبدى ثقته به كثيراً ، وهو الذي كان رشح أبا بكر لخلافة الرسول ﷺ بعد وفاته ثم اختير لخلافته من بعده .

وكان من خصائص خلافة عمر أنه نظم الحكومة ودوَّن الدواوين ووسَّع دولة الإسلام بالفتوح ، وكان جريئاً في الحق ، حكيماً قوياً عادلاً ، ووقع الجدب في زمن خلافته فكان يجتزىء بطعام وقت واحد كل يوم لم تكن ترضى نفسه أن يأكل هو ويجوع الناس ، وكان شديد الزهد في شأن نفسه ، شديد التنفيذ للحق ، شديد المنع للباطل ، قتله مجوسي اسمه أبو لؤلؤة سخطاً على حكم حكم به خلاف ما كان يريد ، فحرم الأمة الإسلامية بذلك ثاني أعظم رجال التاريخ الإسلامي ، ولقد اعترف المستشرقون وعلماء الكفار أيضاً بعظمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان يرى إلى الحقائق وأمور الناس بالإخلاص والتضحية ، ويعالج الأمور بحكمة بالغة ، ولقب

بالفاروق لأنه كان فارقاً بين الإسلام والكفر ، وكان خطيباً وأديباً يدل على ذلك خطبه وعهوده .

نـمـوذج لـخطـبتـه :

قال طلحة بن معدان : خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : «أيها الناس إنه لم يبلغ ذو حق في حقه أن يطاع في معصية الله، وإني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث : أن يؤخذ بالحق ، ويعطى في الحق ، ويمنع من الباطل ، وإنما أنا ومالكم كولي اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، ولست أدع أحداً يظلم أحداً ويتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق .

ولكم علي أيها الناس خصال ، أذكرها لكم فخذوني بها : لكم علي أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم ، ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم عليَّ إذا وقع في يدي أن لا يخرج مني إلاَّ في حقه ، ولكم علي أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم ، ولكم علي أن لا ألقيكم في المهالك ولا أجمركم في ثغوركم .

وقد اقترب منكم زمان قليل الأمناء كثير القراء ، قليل الفقهاء كثير الأمل يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب ، ألا كل من أدرك ذلك منكم فليتق الله ربه وليصبر» .

وله نموذج رائع في العقود والعهود سنذكره في محله .

علـي بـن أبـي طـالـب رضـي الله عنــه

سيـرتـه وأخـلاقـه :

ولد علي بن أبي طالب عام ١٣ ق هـ (٦٠٠ م) استخصه رسول الله ﷺ بنفسه ليخفف بذلك عن عمه أبي طالب ، واستنبى رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ابن عشر سنين فآمن به فكان أول ولد دخل في الإسلام ، وأصبح عليٌّ مكيناً عند الرسول ﷺ وكان يعتمد عليه في أمور كثيرة ، وزوَّجه فاطمة

رضي الله عنها ابنته ، ففي يوم هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة خَلَّفه في مكة ، ليردَّ الودائع التي كانت عنده لأهل مكة .

واستخلف علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وظهرت خلافات سياسية بين المسلمين في أعقاب عهد عثمان رضي الله عنه ، وقويت واستفحلت في زمن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فمر من خلال فتن شديدة ووقعت مناقشات وحروب بينه وبين معارضيه ، منها حرب الجمل ، وقد وقعت بينه وبين معارضيه تحت إمرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، ومنها حرب صفين وقعت بينه وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما إلى أن اغتاله رجل خارجي في ١٧/ رمضان سنة ٤٠ هـ واختار المسلمون ابنه الأكبر خليفة له من بعده ، ثم تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما عن حقه في الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ، فتم الأمر لمعاوية بن أبي سفيان وأسرته الأموية ، وتركت الخلافات المذكورة آثاراً في نفوس المسلمين وأذهانهم ، وظهرت في شعر عدد من شعراء العهد الأموي .

كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه خطيباً بليغاً وشاعراً وحكيماً ، وكاتب رسائل، ورسائله تعد من أقوى وأبلغ الرسائل ، وله ديوان شعر ولكن كثيراً منه لا يمكن الجزم بصحة انتسابه إليه ، وجمع خطبه ورسائله وكلماته أحد أدباء العصر العباسي وهو الشريف الرضي ، في كتاب سماه نهج البلاغة ، ويرى أهل العلم أن أكثر ما في هذا الكتاب غير صحيح النسبة إلى سيدنا علي بن أبي طالب .

وخُطَبُ علي بن أبي طالب قصار في الأكثر ، موجزة ، قصيرة الجمل، متينة التركيب ، جامعة لأوجه البلاغة ، واضحة المقاصد ، تكثر فيها الكلم الجوامع .

أما الحكم التي تتخلل خطب سيدنا علي فهي بارعة جداً .

ومن خطب علي (كرم الله وجهه) وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال :

نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أي الأمرين أرشد ، فصفق إحدى يديه على الأخرى ثم قال:

«هذا جزاء من ترك العقدة ، أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم ، وإن اعوججتم قومتكم ، وإن أبيتم تداركتكم لكانت الوثقى ، ولكن بمن وإلى من؟ أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها ، اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوي ، وكلّت النزعة بأشطان الركي ، أين القوم الذين دُعُوا إلى الإسلام فقبلوه ، وقرؤوا القرآن فأحكموه ، وهُيِّجُوا إلى القتال فولهوا وَلَـهَ اللقاح إلى أولادها ، وسلُّوا السيوف من أغمادها ، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً و صفاً صفاً ، بعض هلك وبعض نجا ، لا يبشرون بالأحياء ، ولا يعزون بالموتى ، مُرْه العيون من البكاء ، خُمْص البطون من الصيام ، ذُبْل الشفاه من الدعاء ، صفر الألوان من السهر ، على وجوههم غبرة الخاشعين.

أولئك إخواني الذاهبون ، فحق لنا أن نظمأ إليهم ونعض الأيدي على فراقهم».

الكتابة

الرسائل والعهود والعقود:

كان العرب قد يلجؤون إلى أن يرسلوا كتباً أو يعقدوا عقوداً ، فكانوا يحتاجون لهذا الغرض إلى أن يخطوا ويكتبوا ، وكانت الكتابة في العهد الجاهلي عملاً نادراً لم يكن يحسنها إلاّ رجال يُعَدُّون على الأنامل ، وهم ممن زاروا الأقطار المتمدنة وتمكنوا من الخط والكتابة ، فكان من هؤلاء من يكتب لغيره من أصحاب الحاجة ، فقد استكتب الرسول ﷺ عقوداً ورسائل ، واستكتب القرآن الكريم ، وكان له كتاب للوحي يكتبونه بأمره ، وحث

الرسول عليه الصلاة والسلام على تعلم الكتابة ، وجعل فدية أسرى بدر أن يُعَلِّموا المسلمين الكتابة .

وكتب الخلفاء الراشدون ، ونشأت رسائل لعدد من أعلام ذلك العهد وبخاصة منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقد أُثِرَتْ عنه رسائل بليغة ، ومن خصائص أسلوب الرسائل في هذا العهد الفكرة الواضحة ، والكلمات المؤثرة ، وروعة التعبير .

وهذه رسالة لسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[(١)] تشير إلى بلاغة أسلوبه ، وإلى أسلوب الرسائل في عهده ، وهي رسالة أرسلها سيدنا علي بن أبي طالب إلى أنصاره أهل الكوفة في أمر سيدنا عثمان بن عفان الخليفة الثالث .

«من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة جبهة الأنصار وسنام العرب .

أما بعد فإني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه ، إن الناس طعنوا عليه فكنت رجلاً من المهاجرين أكثر استعتابه وأقل عتابه ، وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف ، وأرفق حدائهما العنيف ، وكان من عائشة فيه فلتة غضب ، فأتيح له قوم فقتلوه ، وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين ، بل طائعين مخيرين .

واعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها ، وجاشت (جيش) المرجل وقامت الفتنة على القطب ، فأسرعوا إلى أميركم ، وبادروا جهاد عدوكم ، إن شاء الله» .

وهذا كلام من موضع آخر ، اقتبسناه من رسالة له إلى أحد أمراء جيشه ينصحه فيها بالزهد في الدنيا ويصف له نظرة نفسه في الدنيا ، وهو كلام تتجلى فيه بلاغة أسلوبه ونظرته في الحياة .

---

(١) سبق ذكر نبذة حياته في مادة الخطابة .

«وأيم الله ـ يميناً أستثني فيها بمشيئة الله ـ لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً ، وتقنع بالملح مأدوماً ، ولأدعنَّ مقلتيَّ كعين ماء نضب معينها ، مستفرغة دموعها ، أتمتلىء السائمة من رعيها فتبرك؟ وتشبع الربيضة من عشبها فتربض؟ ويأكل كلٌّ من زاده فيهجع؟ قرت إذاً عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية.

طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها ، وعركت بجنبها بؤسها ، وهجرت في الليل غمضها حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها وتوسدت كفها ، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] فاتق الله يا بن حنيف ، ولتكفك أقراصك ، ليكون من النار خلاصك».

وهذا عهد لسيدنا عمر بن الخطاب ـ سبق ذكر نبذة حياته في مادة الخطابة ـ أرسله إلى عبد الله بن قيس:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام عليك ، أما بعد! فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلاَّ صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً ، ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع عنه، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم، الفهم عندما تلجلج في صدرك مما ليس يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي ﷺ ، اعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها إلى الله ، وأشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل للمدعى عليه حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له

بحقه وإلا وجهت عليه القضاء فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر».

الـروايــة:

احتاج صحابة الرسول ﷺ أن يسجلوا أقوال الرسول ﷺ وأحواله ليأتسي به من يأتي بعدهم، فنشأ بذلك أدب بالنثر فيه وضوح وبيان وصدق القول ووصف بليغ، وسمي بالحديث والرواية، واتسع بذلك في هذا العهد النثر الأدبي، وظهر فيه اتباع لما اقتبسه المسلمون من وضوح العبارة وسلاستها في القرآن وأقوال الرسول ﷺ، ولقد تحدث بأحوال الرسول ﷺ وأقواله عدد من الصحابة رضي الله عنهم، نعرض هنا نموذجين أحدهما لأم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام الأثيرة لديه، وثانيهما لحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

روت عائشة زوج النبي ﷺ(١) فقالت: لم أعقل أبوي قط إلاَّ وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلاَّ يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة ـ وهو سيد القارة ـ فقال: أين تريد أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخْرُج ولا يُخرَج، إنك تكسب المعدم وتصل

---

(١) هي عائشة أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ الحبيبة إليه تكنى بأم عبد الله، كانت بنت خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق، ومن أكبر فقهاء الصحابة، وقد روت كثيراً من أحاديث رسول الله ﷺ، فقد روت من الأحاديث ما يربو على مئتين وألف حديث، وكان فقهاء أصحاب رسول الله ﷺ يرجعون إليها، فقد تفقه بها جماعة، بنى بها النبي ﷺ في شوال بعد وقعة بدر، نزلت الآية في تبرئتها، وعاشت خمساً وستين سنة، قال عروة: ما رأيت أحداً من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال وحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا النسب من عائشة رضي الله عنها، توفيت في سنة ثمان وخمسين، (تذكرة الحفاظ، والإصابة، والأعلام).

الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخْرُج مثله ولا يُخْرَج ، أتخرجون رجلاً يكسب المعدم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلن به فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر ، فلبث بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره.

ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ، ويقرأ القرآن فيتقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم ، وهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكَّاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل وإن أبى إلاَّ أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفرك ، ولسنا مقرِّين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن تُرْجعَ إليَّ ذمتي ، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له ، فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله.

والنبي ﷺ يومئذ بمكة فقال النبي ﷺ للمسلمين: إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان ، فهاجر من هاجر قِبَل المدينة ورجع عامَة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قِبَل المدينة ، فقال

رسول الله ﷺ: على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر ـ وهو الخبط ـ أربعة أشهر».

وهذه رواية الحسن بن علي بن أبي طالب[1] وصف فيها رسول الله ﷺ فقال:

«لم يكن فاحشاً متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، ما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادماً ولا امرأة، ما رأيته منتصراً من مظلمة ظُلِمها قط ما لم يُنتهك من محارم الله تعالى شيء، فإذا انتهك من محارم الله تعالى كان أشدهم غضباً، وما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وإذا دخل بيته كان بشراً من البشر يغسل ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه.

كان يخزن لسانه إلاَّ فيما يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويولِّيه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي على أحد منهم بِشْره ولا خلقه، ويتفقد أصحابه ويسأل عمَّا في الناس، ويحسِّن

---

(١) هو الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب جد رسول الله ﷺ وكان ابن بنته فاطمة رضي الله عنها وريحانته وكان يكنى بأبي محمد، بويع بالخلافة في المدينة المنورة بعد وفاة والده علي بن أبي طالب الخليفة الرابع ثم تنازل عن الحكم لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما طلباً لإزالة الفرقة بين المسلمين ومنعاً لسفك دماء المسلمين.
ولد في نصف شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة وقيل سنة أربع وقيل غير ذلك، روى عن النبي ﷺ أحاديث حفظها عنه، قال رسول الله ﷺ عنه وعن أخيه الحسين بن علي رضي الله عنه: هذان ابناي وابنا بنتي اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما.
وكان يشبه رسول الله ﷺ في الأعلى من جسمه، وقال عنه رسول الله ﷺ: إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين، توفي سنة خمسين وقيل في إحدى وخمسين من الهجرة (الإصابة وغيره من الكتب).

الحسن ويقوِّيه ، ويقبِّح القبيح ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ، ولا يغفل مخافة أن يغفلوا ويملُّوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مؤاساة ومؤازرة ، لايقوم ولا يجلس إلاَّ على ذكر ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك ، يعطي كل جلسائه بنصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو فاوضه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجته لم يرده إلاَّ بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواءً ، مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم ، ولا تُنْثَى فلتاته ، متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب» .






الباب الثالث

الفصل الأول : الشعر في صدر الإسلام

الفصل الثاني : أعلام الشعراء وكلامهم




الفصل الأول

الشعر في صدر الإسلام

خفَّ إقبالُ الناس على الشعر عندما انتشر الإسلام فيهم بتأثير مقتضيات الحياة الجديدة التي جاءهم بها الإسلام ، فقد شغلتهم شؤونهم وهمومهم وأفكارهم الجديدة ، وتغير بها مجرى سلوكهم وحياتهم ، فلم يكن يسعهم أن يشتغلوا بالشعر ، بمثلما اشتغلوا به في العهد الجاهلي .

ثم كان من أسباب ذلك أن القرآن الكريم ذكر الشعراء بالنعي على ما كانوا يقومون به بشعرهم من الفساد والإفساد ، فقال : ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ [الشعراء : ٢٢٤ ـ ٢٢٧] .

ثم كان من تأثير نزول القرآن الكريم في بلاغة معجزة ، وبأسلوب رائع معجب ، أن كشف به بريق الشعر الخلاب ، و وجد المسلمون في بيان القرآن معرفة وهداية وعذوبة للتعبير ، وبجنب ذلك كله عظمت حاجة الحياة الجديدة في هذا العهد إلى الخطابة واشتد اعتمادهم عليها .

فهذا كله كان مما جعل إقبال الناس على الشعر قليلاً ولكنهم لم يتركوه بتاتاً ، بل لجؤوا إليه كلما مست حاجتهم إليه بتحفظ واحتياط ، وفي الحدود التي رسمها لهم القرآن الكريم ، كما ظهر في شعر الصحابة رضي الله عنهم .

ولقد سمع المسلمون أن الرسول ﷺ نعى على الإقذاع والإفحاش وإثارة الأحقاد بالهجاء بقوله: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً ثم يَرِيَـهُ خير له من أن يمتلىء شعراً» غير أنهم سمعوا أيضاً أن الرسول ﷺ استنشد الشعر واستحسنه وتأثر به ، فقد استنشد شعر أمية بن أبي الصلت واستزاده ، وقال: آمن لسانه وكفر قلبه. وسمع شعر قتيلة بنت الحارث التي قالته في شأن قتل أخيها النضر بن الحارث الذي ناوأ الإسلام وهجا رسول الله ﷺ فأهدر دمه ، ولما سمع شعر أخته فيه تأثر به وقال: لو سمعته قبل قتله لصفحت عنه ، وقبل شعر كعب بن زهير ، وخلع عليه بردته الشريفة ، ولقد طلب الرسول ﷺ من شعراء صحابته استخدام الشعر للذب عن الإسلام وقال: «إنه أشد عليهم من النبل».

فبذلك كله عرف المسلمون نظرة الإسلام إلى الشعر ، وهي استحسان صالحه و جواز قرضه وتجنب قبيحه ، فواصل الصحابة قول الشعر وإنشاده. ومع ذلك لم تكن روعة الشعر في صدر الإسلام أقل منها في العهد الجاهلي ، فإن الذين قرضوا الشعر في الجاهلية وقرضوه في الإسلام فاضت قريحتهم بمثل القوة والإبداع بحسب الموضوعات والخواطر التي طرقوها ، ولم تخف روعة كلامهم في عهدهم الإسلامي إلاّ بقدر انصرافهم عن المعاني الخليعة واجتنابهم إطلاق القول في المبالغات ، وتصوير المعاني في أشكال مناقضة ، لأن الإسلام أضاق مجالهم في هذا الجانب.

ولكن ضيق مجال عملهم في هذا الجانب لم يغلل من موضوعاتهم تغليلاً كبيراً؛ لأنه أبقى لهم مع ذلك جوانب صالحة وكثيرة كما بقيت لهم سائر الموضوعات، مادام فيها الالتزام ، مثل الأدب والحكمة والوصف والحماسة والفخر والمدح والرثاء وحتى الهجاء إذا كان في صالح الحق والإسلام ، وقد نشأت أغراض جديدة في مجال الذب عن الدين الإسلامي والحب لنبيه الكريم ﷺ وظهور أثر الأخوة الإسلامية في عواطفهم ومشاعرهم ، أما الجهات التي ظهر فيها ابتكارهم وتفوقهم على ماضيهم هي اختيارهم

للموضوعات الشعرية بأسلوب يزدان بصدق العاطفة ورزانة المعنى ودقة الأداء وجمال التعبير.

وقد نهجوا لمدح الرسول ﷺ، منهجاً يجمع بين دقة الغَزَل وقوة المدح وصدق الوصف، حتى صار مثل هذا المدح فيما بعد غرضاً شعرياً بعينه، سمي في اللغة العربية بالنبوية وبلغات إسلامية أخرى بالنعت.

وتهذَّب شعرهم الغزليّ فغلب عليه النسيب، ورق فيه الشعور، ونشأ منه فيما بعد نوع جديد عرف فيما بعد بشعر الحب العذري، نسبة إلى بني عذرة الذين نبغ فيهم عدد من شعراء الحب النزيه.

على كلٍّ فإن الشعر العربي في هذا العهد صار شعراً ملتزماً بالقيم الجديدة التي التزمها أبناء هذا العهد بتأثير الدين الإسلامي، وصحبة رسوله الكريم محمد ﷺ.

ولكن هذا الالتزام لم يكن يمنع شعراء هذا العهد عن التعبير عن خلجات نفوسهم وخواطر قلوبهم من سرور وحزن ورضا وسخط وعتاب واستعتاب ووصف وحكمة ما دام لا يخرج من إطاره المرسوم.

لقد كان هذا العهد الأدبي ـ عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ـ عهداً أساسياً للأدب الإسلامي تحددت فيه حدوده وظهرت فيه نماذجه الأولية وانبثقت منها الخطوط العريضة للأدب الإسلامي، ظهرت فيها نماذج نثرية وشعرية كثيرة حملت روح الفكرة الإسلامية وتأثير التربية النبوية في صورها الأدبية المختلفة، وحملت طابع هذا العصر المثالي الإسلامي، ولكنا نرى بجنب ذلك نماذج قيمة أيضاً في نصوص بعض الشعراء لا تبلغ إلى درجة المثالية الإسلامية، ولم تستوف الصورة الكاملة للروح الإسلامية الأدبية، ومثال ذلك ما نجد في نماذج شعر الحطيئة، فالمبدأ المختار إذاً هو أن الأديب المسلم يعد أديباً إسلامياً إذا احتفظت أعماله الأدبية في غالبية نصوصه بالالتزام بالسمة الإسلامية، أما أعماله التي لم يتمكن فيها من الالتزام بهذه

السمة فلا تعد إسلامية ، ولكن صاحبها يعد إسلامياً لكون غالبية نصوصه صافية وفقاً للنظرة الإسلامية.

فأدباء العهد الأول للإسلام هم إسلاميون وإن تخللت في نصوص بعضهم جوانب غير إسلامية ، أو اشتط بعض نماذج الإنتاج الأدبي لهذا العهد عن الطبيعة الإسلامية للأدب ، وأكثر ما وقع هذا الاشتطاط في المجال الشعري ، أما في المجال النثري فهو نادر جداً أو غير واقع أصلاً.

وذلك لأن أمر الشعر في هذا العهد اختلف في نشأته وتكوينه عن نثره الفني فقد كان أكثر اتصال النثر الفني في هذا العهد واستفادته هو بالمصدرين الأولين للإسلام كتاب الله وحديث رسوله ﷺ ، أما الشعر فقد استمد من الشعر الجاهلي جانباً من قوته ومنهجه ، بل إنها كانت نشأة شعراء هذا العصر على مناهج الشعر الجاهلي وطبيعته ، ولم يكن مستغرباً أن تبقى لمساته في شعرهم.

على كل فإن استعراض النصوص الشعرية لهذا العهد ليدل على انقسامها إلى صنفين ، صنف للنصوص الملتزمة التزاماً واضحاً بالإسلام ، ففيها النزاهة والاحتياط ، وصنف للنصوص التي ضعف خضوعها للصبغة الإسلامية الكاملة ، واشتط بعضها عن الخط الصحيح للإسلام ، إما لأن الأشخاص الذين تأخر دخولهم في الإسلام لم يتلقَّوا التربية النبوية بصورة واسعة ، وإما لبعد أصحابها من مكان صحبة الرسول ﷺ وبيئته الإسلامية المثالية ، وإما لأن عوامل ومؤثرات عاطفية خاصة أثرت على نفوس عدد من أصحابها فقصروا في الاحتفاظ بالمثالية ، ولذلك كله نجد أمثلة للنماذج لم تخضع للسمة الإسلامية بل حادت عن الخط الإسلامي الرزين.

شعراء هذا العهد:

ويمكن أن نقسم شعراء هذا العصر إلى ثلاثة أقسام: قسم قام شعراؤه بمؤازرة الدين الجديد والذب عن رسول الله ﷺ واشتهر فيهم حسان بن ثابت الأنصاري ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة وكلهم من الأنصار ،

وذلك أمر يدل على أن نصرة الأنصار لله ولرسوله لم تقتصر في الإطار المادي وحده ، بل تجاوزت إلى اختيار الوسيلة الشعرية كذلك .

وقسم آخر هو للشعراء الذين زهدوا في قول الشعر بعد إسلامهم أو أقلوا منه إقلالاً ، وهم مثل لبيد بن ربيعة ، فقد زهد في قول الشعر زهادة كبيرة ، وكعب بن زهير ، فقد ساهم بقصيدة له رائعة في مدح الرسول ﷺ وصحابته ثم زهد بعدها في قول الشعر ، ومثل عبد الله بن الزبعرى القرشي ، وحصين بن حمام المري، وأبي خراش الهذلي ، والعباس بن مرداس السلمي وعمرو بن معديكرب الزبيدي وغيرهم ، أو قصروا في حدود خاصة أو موضوعات معينة مثل الأغلب العجلي الراجز وأبي محجن الثقفي ومتمم بن نويرة التميمي ، والخنساء ، أو عروة بن حزام وربيعة بن مقروم والزبرقان بن بدر وأبي ذؤيب الهذلي ، وقسم للشعراء الذين لم يتمكنوا من التزام كبير ، وهم مثل حميد بن ثور الهلالي والمخبل السعدي وقيس بن عمر النجاشي ، وأبي الطمحان القيسي والشاعر المعروف الحطيئة ، فقد كان شاعراً كبيراً ولكنه نشأ في بيئة بعيدة عن التأثير الإسلامي فنشأ على سوء الخلق ، واستغل الهجاء لأغراضه ، فاشتمل شعره على الإحسان والإساءة كليهما ، ومن شعراء هذا العهد النابغة الجعدي أجاد في الجاهلية وفي الإسلام كليهما ، ووردت في كلامه ألفاظ إسلامية ومعان دينية كذلك .

نماذج شعر هذا العهد

في الحماسة والفخر والمديح :

قال عبد الله بن رواحة :

(وهو عبد الله بن رواحة شاعر أنصاري من قبيلة الخزرج ، شهد بيعة العقبة الثانية ، واستخدم شعره في الذب عن الإسلام ، وهو من الشعراء والرجاز المحسنين المجيدين ، توفي سنة ٨ هـ في موقعة مؤتة مجاهداً شهيداً) .

جَلَبْنَا الخَيْلَ من أَجَأٍ وفَرْعٍ ... تغَرُّ من الحشيشِ لها العَكُومُ
حَذَوْناها من الصَّوَّانِ سِبْتاً ... أزلَّ كأنَّ صَفْحَتَهُ أديمُ
أقامَتْ ليلتين على مَعانٍ ... فأَعْقَبَ بعد فَتْرتِها جُمومُ
فَرُحْنا والجيادُ مُسوَّماتٌ ... تَنَفَّسُ في مناخِرها السَّمُومُ
فلا وأبي مآبَ لنأتينها ... وإن كانت بها عَرَبٌ ورُومُ
فعبَّأْنا أعِنَّتَها فجاءتْ ... عوابِسَ والغبارُ لها بَرِيمُ
بذي لَجَبٍ كأنَّ البَيْضَ فيه ... إذا برزتْ قوانِسُها النُّجومُ
فراضيةِ المعيشةِ طلَّقتها ... أسنتُها فتَنْكِحُ أو تَئِيمُ

وقال ربيعة بن مقروم في الفخر:

(وهو ربيعة بن مقروم بن قيس بن مالك بن بكر، أسلم وحسن إسلامه، ثم شهد القادسية، وعاش في الإسلام طويلاً، وهو شاعر مجيد غريب اللفظ، متين السبك، ومن فنونه المدح والفخر والهجاء، وغزله من فاخر الشعر القديم).

أخوكَ أخوكَ مَنْ تَدْنُو وتَرْجُو ... مَوَدَّتَه وإن دُعِي اسْتَجَابا
إذا حارَبْتَ حاربَ من تعادي ... وزاد سلاحُه منك اقترابا
وكنت إذا قرّبني جاذبته ... حبالي ماتَ أو تبعَ الجذابا
فإنْ أهلكْ فذي حنقٍ لظاه ... عليَّ تكادُ تلتهبُ التهابا
خضبتُ بدلوه حتى تحسى ... ذنوبَ الشَّر ملأى أو القِرابا
بمثلي فاشهدِ النَّجوى وعالن ... بي الأعداءَ والقومَ الغضابا
فإنَّ الموعدي يرون دوني ... أسود خِفيةَ الغلبِ الرِّقابا
كأنَّ على سواعدهن ورساً ... علا لَونَ الأشاجعِ أو خِضابا

وله أيضاً:

ولقد شَهدْتُ الخيلَ يَوْمَ طِرَادِها ... بسَلِيمِ أَوْظِفَةِ القَوَائِمِ هَيْكَلِ
ودَعْوا نَزَالِ، فكنتُ أوّلَ نازِلٍ ... وعَلَامَ أَرْكَبُه إذا لم أَنْزِلِ
ولقد جَمَعْتَ المالَ مِنْ جَمْعِ امْرِئٍ ... ورَفَعتُ نَفْسِي عن لَئِيمِ المَأْكَلِ

وَدَخَلْتُ أَبْنِيَةَ الملوكِ عليهمُ   وَلَشَرُّ قَوْلِ المرءِ ما لم يُفْعَلِ
وَلَرُبَّ ذي حَنَقٍ عليَّ كأنَّما   تَغْلِي عَداوةُ صَدْرِه كالمِرْجَلِ
أَرْجَيْتُهُ عنِّي فَأَبْصَرَ قَصْدَه   وكَوَيْتُه فوقَ النَّواظِرِ من عَلِ
ولقد أَصَبْتُ من المعيشةِ لِينَها   وأصابني منه الزَّمانُ بكَلْكَلِ
ولقد أَتَتْ مئةٌ عليَّ أعُدُّها   حَوْلاً فحَوْلاً إن بَلاَها مُبْتَلِ
فإذا الشبابُ كمِبْذَلٍ أَنْضَيْتُهُ   والدَّهْرُ يُبْلِي كُلَّ جِدَّةِ مِبْذَلِ

وقال الشماخ:

(وهو معقلُ بن ضرار من بني سعد بن ذبيان، شهد القادسية ومعارك إسلامية أخرى مسلماً مجاهداً، توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه وهو شاعر مشهور، وله مديح بارع ورثاء وفخر وحماسة وغزل وحكمة).

وأَشْعَثَ قدْ قدَّ السِّفَارُ قمِيصَهُ   وجَرُّ الشِّواءِ بالعَصَا غير مُنْضَجِ
دَعوتُ إلى ما نَابَنِي فأجابني   كريمٌ من الفتيانِ غير مُزَلَّجِ
فتى يملأُ الشِّيزَى ويُرْوِي سِنَانَهُ   ويضربُ في رأسِ الكَمِيِّ المُدَجَّجِ
فتىً ليس بالرَّاضي بأدنى معيشةٍ   ولا في بُيُوتِ الحَيِّ بالمُتَوَلِّجِ

وقالت صفية بنت عبد المطلب في الفخر:

(وهي عمة رسول الله ﷺ وأخت حمزة وأسلمت وذبت عن الإسلام).

أَلَا مَنْ مبلغٌ عنِّي قريشاً   ففيم الأمرُ فينا والأمارُ
لنا السَّلفُ المقدَّمُ قد علمتم   ولم تُوقَدْ لنا بالغَدْرِ نارُ
وكلُّ مَناقبِ الخيراتِ فينا   وبعضُ الأمرِ منقصةٌ وعَارُ

وقال أبو محجن الثقفي:

(وهو عبد الله بن حبيب بن عمرو من بني ثقيف، كان فارساً معدوداً في أولي البأس والشدة، أسلم بعد فتح الطائف وظهرت شجاعته في موقعة القادسية، ونال ثناءً وتقديراً من أمير الجيش سعد بن أبي وقاص وهو شاعر معروف.

لا تسألي الناسَ عن مالي وكثرته   وسائلي القومَ ما حَزْمِي وما خُلُقي

القومُ أعلمُ أنِّي من سَراتهم ... إذا تطيشُ يدُ الرِّعْديدةِ الفَرِقَ
فقد أركبُ الهولَ مسدولاً عساكِرُهُ ... وأكتمُ السِّرَّ فيه ضربةُ العُنُقِ

وفي هذا الباب قصائد أخرى أيضاً لعدد من أعلام شعراء هذا العهد ، وسيأتي ذكرها مع تراجم شعرائها مثل حسان بن ثابت الأنصاري ، وكعب بن مالك ، وحصين بن الحمام ، والحطيئة ، والنابغة الجعدي .

في الاعتذار والاستعتاب والعتاب :

قال عبد الله بن الزبعرى حين أسلم :

(وهو من بني سهم من قريش ، كان شديداً على المسلمين ، وكان شعره في الرد على الإسلام والمسلمين ، ولما فتحت مكة هرب ، ثم عاد وأسلم واعتذر ، وهو من شعراء قريش المعدودين ، وأبرع شعراء مكة ، وشعره في المديح والهجاء وبعض الحكمة) .

منعَ الرُّقادَ بلابلٌ وهُمُومُ ... والليلُ مُعْتَلِجُ الرِّواقِ بَهِيمُ
يا خيرَ مَنْ حَمَلَتْ على أَوْصالِها ... عَيْرَانَةٌ سُرُحُ اليدينِ غَشُومُ
إنِّي لَمُعْتَذِرٌ إليكَ من الذي ... أَسديتُ إذْ أنا في الضَّلالِ أَهِيمُ
أيامَ تأْمُرني بأَغْوى خُطَّةٍ ... سَهْمٌ و تَأْمُرني بها مَخْزُومُ
وأَمُدُّ أسبابَ الرَّدَىٰ ويقودُني ... أَمْرُ الغُواةِ وأَمْرُهُمْ مَشْؤُومُ
فاليومَ آمنَ بالنَّبيِّ محمدٍ ... قلبي ومُخْطِئُ هذه مَحْرُومُ
مَضَتِ العَداوةُ وانقضَتْ أسبابُها ... ودعَتْ أَواصِرُ بيننا وحُلُومُ
فاغْفِرْ فدىً لكَ والِداي كلاهما ... زَلَلِي ، فأنتَ راحِمٌ مَرْحُومُ
وعليكَ من عِلْمِ المليكِ علامةٌ ... نورٌ أَغَرُّ وخاتمٌ مَخْتُومُ
أعطاكَ بعدَ محبةٍ برهانَهُ ... شَرَفاً وبرهانُ الإلهِ عظيمُ
ولقد شَهِدْتُ بأنَّ دينَكَ صادقٌ ... حَقٌّ وأنَّكَ في العِبادِ جسيمُ
واللهُ يشهَدُ أنَّ أحمدَ مصطفَى ... مستقبلٌ في الصَّالحينَ كريمُ
قَرْمٌ عَلاَ بنيانُه من هاشِمٍ ... فرعٌ تمكَّنَ في الذُّرى وأرُومُ

وقال المخبّل السعدي يعاتب ابنه :

(وهو أبو يزيد ربيع بن مالك بن أنف الناقة بن قريع التميمي ، وعُمّر المخبل في الجاهلية والإسلام دهراً طويلاً ، ومات في أيام عثمان رضي الله عنه ، وهو شاعر فحل مشهور ، ولكنه مقلّ ، وشعره فصيح سهل التراكيب ، وفنونه المديح والهجاء خاصة).

فإنْ يَكُ غُصْنِي أَصْبَحَ اليومَ ذاوِياً ... وغُصْنُكَ من ماءِ الشَّبابِ رَطِيبُ
فإنِّي حَنَىٰ ظَهْرِي خطوب تتابعتْ ... فمشيي ضعيفٌ في الرِّجالِ دَبِيبُ
إذا قال أصْحابي: ربيع أَلَا تَرَى؟ ... أرى الشَّخْصَ كالشَّخْصَيْنِ وهو قريبُ
ويخبرني شيبانُ أن لن يعقَّني ... تَعُقُّ إذا فارقْتَنِي وتَحوبُ
فلا تُدْخِلَنَّ الدَّهرَ قبركَ حوبةً ... يقومُ بها يوماً عليكَ حَسِيبُ

وقال أبو خِراش يعاتب ابنه :

(وهو أبو خراش الهذلي كان فارساً في الجاهلية ، فاتكاً وعداءً ، وتأخر أبو خراش في الدخول في الإسلام ، ثم أسلم ، وحسن إسلامه ، وأبو خراش شاعر فحل وأحد حكماء العرب ، ولأبي خراش من الفنون فخر وحماسة ومديح ورثاء وهجاء).

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عنِّي خِراشاً ... وقدْ يَأْتِيكَ بالنَّبأ البَعِيدُ
أَلَا فاعْلَمْ خِراشُ بأنَّ خَيْرَ الـ ... ـمُهاجِر بعد هِجْرته زَهِيدُ
وإنَّكَ وابتغاءَ الخيرِ بَعْدي ... كَمَخْضُوبِ اللَّبانِ ولا يَصِيدُ

في الغزل والشباب :

وقال حُميد بن ثَور الهلالي :

(وهو من بني هلال بن عامر بن صعصعة ، قاتل المسلمين في معركة حنين ، ثم أسلم ووفد إلى الرسول ﷺ وعاش إلى خلافة عثمان رضي الله عنه وهو شاعر مجيد جميل المعاني عذب الألفاظ ، وله غزل صريح وفخر وحماسة وطرد).

فـلا يُبْعِـدِ اللهُ الشَّبـابَ وقَـوْلَنـا   إذا مـا صَبَـوْنَـا صَبْـوَةً سَنَتُـوبُ
لَيَالِـيَ أبْصَارُ الغَـواني وسَمْعُهـا   إلـيَّ وإذْ رِيْحـي لَهُـنَّ جَنُـوبُ
وإذا مـا يقـولُ النَّـاسُ أمرٌ مُهَـوَّنٌ   علينـا وإذْ غُصْـنُ الشَّبـابِ رَطِيـبُ

وقال ربيعة بن مقروم :

أَمِـنْ آلِ هنـدٍ عَـرَفْـتَ الـرُّسُـوما   بِجُمْـرانَ قَفْـراً أَبَـتْ أَنْ تَـريمَـا
وَقَفْـتُ ـ أُسـائِلُهـا ـ نـاقَتِـي   وما أنا ، أَمْ ما سُؤَالي الرُّسُوما
وذكَّـرَنِـي العَهْـدَ أَيَّـامُهـا   فَهَـاجَ التَّـذكُّـرُ قَلْبـاً سَقِيمـا
فَفَـاضَـتْ دُمُـوعِـي فَنَهْنَهْتُهَـا   علـى لِحْيَتِـي ورِدَائـي سُجُـومـا
وإنْ تَسْـأَلِينـي فـإنِّـي امـرؤٌ   أُهِيـنُ اللئيـمَ وأَحْبُـو الكَـرِيمـا
ويَحْمَـدُ بَـذْلِـي لـه مُعْتَـفٍ   إذا ذَمَّ مَـنْ يَعْتَفِيـهِ اللئيمـا
وأَجْـزِي القُـرُوضَ وَفَـاءً بهـا   بِبُـؤْس بَئِيـسٍ ونُعْمَـى نَعِيمـا

وقال حُميد بن ثَور الهلالي :

سَلِي الرَّبْعَ أنَّى يَمَّمَتْ أُمُّ سالمٍ   وهَـلْ عـادةٌ للـرَّبْـعِ أن يَتكَلَّمـا

وتكلم عن الحمامة التي تغني فقال :

عَجِبتُ لهـا أَنَّـى يكـونُ غِنَاؤُهـا   فَصِيحـاً ولـمْ تَفْغَـرْ بِمَنْطِقهـا فَمَـا
فلم أَرَ مَحْزُوناً له مِثْلُ صَوْتِها   ولا عَـرَبِيَّـاً شـاقَـه صَـوْتُ أَعْجَمـا
كَمِثْلي إذا غَنَّتْ، ولكنَّ صَوْتَها   لـه عَـوْلَـةٌ لـو يَفْهَـمُ العَـوْدُ أرْزَمَـا

فـي الـحكمـة والـرثـاء :

قال أبو خراش الهذلي في قتل عروة أخيه ونجاة خراش ابنه :

حَمِدْتُ إلهي بعد عُرْوة إذ نَجَا   خِراشٌ، وبعضُ الشَّرِّ أَهْونُ مِنْ بَعْضِ
فـو اللهِ مـا أَنْسَـى قَتِيـلاً رُزِئْتُـه   بجانبِ قَوْسَي ما حَيِيتُ على الأرضِ
بلـى إنهـا تَعْفُـو الكَلـومُ وإنَّمـا   نُوَكَّل بالأدنىٰ وإنْ جَلَّ ما يَمْضي
ولـم أَدْرِ مَـنْ أَلْقَـىٰ عليـه رِدَاءَهُ   على أنَّه قد سَلَّ عن ماجدٍ مَحْضِ

وقال أبو الطمحان القيني عن الموت :

(وهو أبو الطمحان حنظلة بن الشرقي من بني القين من قضاعة ، وكان فارساً صعلوكاً فاسد الدين في الجاهلية والإسلام ، وهو شاعر مطبوع فصيح الألفاظ متين التركيب بدوي النفس ، وفنونه المدح والحماسة وشيء من الحكمة) .

أَلَا عَلِّلاني قبلَ نَوْحِ النَّوائِحِ وقبلَ ارتقاءِ النَّفْسِ فوق الجَوانحِ

وقبل غدٍ، يا لَهْفَ نفسي على غَدٍ إذا راح أصحابي ولستُ برائحِ

إذا راح أصحابي تفيضُ دموعُهم وغُودرت في لحدٍ على صَفَائحي

يقولُون: هل أصلحتم لأخيكم وما اللحدُ في الأرضِ الفضاءِ بصالحِ

وقال الشمَّاخ يرثي عمر بن الخطاب :

جَزَىٰ اللهُ خيراً من أميرٍ وباركتْ يدُ الله في ذاكَ الأديمِ المُمَزَّقِ

فمن يَسْعَ أو يركب جَناحيْ نعامةٍ ليُدْرِكَ ما قدمتَ بالأمس يُسْبَقِ

قضيتَ أموراً ثم غادرتَ بعدها بوائقَ في أكمامِها لم تُفَتَّقِ

أبعد قتيلٍ بالمدينة أظلمتْ له الأرضُ تهتزُّ العضاهُ بأسوقِ

تظل الحصانُ البكرُ يلقى حنينها نثا خبر فوق المطيِّ معلقِ

وما كنتُ أخشى أن تكونَ وفاتُه بكَفَّيْ سَبَنْتَى أزرقِ العينِ مُطْرقِ

وقال مُتمِّم بن نُويرة في رثاء أخيه مالك :

(متمم بن نويرة من بني تميم ، كان قصيراً أعور ، ولكنه فارس معدود ، دخل في الإسلام ، وكان هو وأخوه عاملين للرسول ﷺ على صدقات قومهما ، ارتد قوم متمم على إثر وفاة الرسول ﷺ فغزاهم خالد بن الوليد ، وقتل مالكاً ظانًا أنه لا يزال مرتداً ، فرثاه متمم رثاءً حاراً، واشتهر بشعر الرثاء ، مات في ٣٠ هـ) .

أَبَىٰ الصَّبْرَ آياتٌ أَرَاها وإنَّني أَرَىٰ كُلَّ حَبْلٍ بعد حَبْلِكَ أَقْطَعَا

وإنّي متى ما أَدْعُ باسمِكَ لا تُجِبْ وكُنْتَ حَرِيّاً أن تُجيبَ وتَسْمَعَا

توفي جرير بعد الفرزدق بسبعة أشهر في سنة ١١٠ هـ أيضاً ودفن باليمامة، فكانت سنة نهاية عهد أدبي لم ينقطع منذ الجاهلية في الخصائص العربية الحقيقية التى تغيرت بعد ذلك لامتزاج الخصائص الوافدة من آداب الشعوب المحيطة بالجزيرة العربية.

نموذج من شعره

قال يهجو الفرزدق:

لقد ولدت أمُّ الفرزدق فاجراً ... فجاءتْ بِوَزْوازٍ قَصِيرِ القَوادمِ
يُوَصِّلُ حبليه إذا جَنَّ ليلُه ... ليرقَى إلى جاراتِه بالسَّلالمِ
تدليتَ تَزْني من ثمانين قامةً ... وقصرتَ عن باعِ العُلا والمَكارمِ
هو الرجسُ يا أهلَ المدينةِ فاحْذَروا ... مداخلَ رجسٍ بالخبيثاتِ عالمِ
لقَد كان إخراجُ الفرزدقِ عنكم ... طَهوراً لما بين المُصَلَّى وراقِمِ

ومن جيد قوله فيه:

تعالوا نُحاكِمكم وفي الحقِّ مقنعٌ ... إلى الغُرِّ من أهلِ البِطاحِ الأكارمِ
فإنَّ قريشَ الحقِّ لم تتبعِ الهوى ... ولم يَرْهَبُوا في اللهِ لومةَ لائمِ
أُذَكِّرُكُم باللهِ من ينهلُ القنا ... ويضربُ كبشَ الجَحْفلِ المتراكمِ
وكنتم لنا الأتباعَ في كلِّ موقفٍ ... وريش الذُّنابى تابعٌ للقوادمِ
إذا عُدَّتِ الأيامُ أخزيت دارماً ... وتُخزيك يابن القينِ أيامُ دارمِ
وما زادني بُعْدُ المَدَى نقض مرّة ... ولا رقّ عظْمي بالضُّروس العواجمِ

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز:

إنَّا لنرجُو إذا ما الغيثُ أخلفنا ... من الخليفةِ ما نَرْجُو من المَطَرِ
نالَ الخلافةَ إذ كانتْ له قَدَراً ... كَمَا أتى ربَّه مُوسى على قَدَرِ
أَأَذْكُر الجهدَ والبلوى التي نزلتْ ... أم نكتفي بالذي بُلِّغْتَ من خَبَرِي
ما زلتُ بعدكَ في دارٍ تعرَّقُني ... قد طالَ بعدكَ إصعادي ومُنْحَدَرِي
لا ينفعُ الحاضرُ المجهودُ بادينا ... ولا يجودُ لنا بادٍ على حَضَرِ
كم بالمواسمِ من شَعْثَاءَ أَرملةٍ ... ومِنْ يتيمٍ ضعيفِ الصوتِ والبصرِ

الفصل الثاني
أعلام الشعراء وكلامهم

من شعراء الإسلام:

عبد الله بن رواحة:

هو عبد الله بن رواحة بن امرىء القيس من بني مالك بن ثعلبة بن كعب ابن الخزرج ، وأمه كبشة بنت واقد بن عمرو بن الإطنابة من الخزرج أيضاً وكان عظيم القدر في الجاهلية.

أسلم وشهد بيعة العقبة الثانية ، وكان أحد النقباء الاثني عشر ، ثم عمل على نشر الإسلام في المدينة ، فأصبح عظيم القدر أثيراً عند الرسول ﷺ ، ولقد زاد في مكانته أنه كان يخط فاتخذه الرسول ﷺ كاتباً ، وكذلك كان شاعراً يرد على المشركين هجاءهم لرسول الله ﷺ وتهجمهم على الإسلام.

كان من الشعراء والرجاز المحسنين المجيدين ، وهو من طبقة حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وقد كان في الجاهلية يناقض قيس بن الخطيم ، أما في الإسلام فكان يمدح الرسول ﷺ ويرد على شعراء المشركين.

توفي سنة ٨ هجرية في موقعة مؤتة بأدنى البلقاء من أرض الشام ، استشهد بعد معركة شديدة.

نماذج من كلامه:

قال في الحماسة وفيه رثاء:

بَكَتْ عَيْنِي وحُقَّ لها بُكاها   وما يُغْنِي البكاءُ ولا العَوِيلُ

على أَسَدِ الإلهِ غداةَ قالوا أحمزةُ ذاكم الرَّجُلُ القَتِيلُ
أُصيبَ المسلمون به جَميعاً هناكَ وقد أُصِيبَ به الرسولُ
أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ عنِّي لُؤَيّاً فبعد اليوم دائلةٌ تدولُ
وقبلَ اليوم ما عَرَفوا وذاقوا وقائِعُنا بها يُشْفَى الغَليلُ
نَسِيْتُمْ ضَرْبَنا بِقَلِيْبِ بَدْرٍ غَدَاةَ أتاكُمُ الموتُ العَجيلُ
غَدَاةَ ثَوَىٰ أبو جَهْلٍ صريعاً عليه الطيرُ حائمةٌ تَجُولُ
وعُتبةُ وابنُه خَرَّا جميعاً وشيبةُ عَضَّهُ السَّيفُ الصَّقِيلُ
مَتْرَكُنا أُمَيَّةَ مُجْلَعِبَّاً وفي حَيْزُومِه لدنٌ نبيلُ
وهامَ بني ربيعة سائِلُوها ففي أسيافِنا منها فُلُولُ
أَلاَ يا هندُ فابْكي لا تَمَلِّي فأنتِ الوالهُ العَبْرى الهَبُولُ
أَلاَ يا هِنْدُ لا تُبْدِي شِماتاً بحمزةَ إنَّ عِزَّكُمْ ذَلِيلُ

وقال في حب الشهادة في غزوة مؤتة:

إذا أَدَّيْتِني وحَمَلْتِ رَحْلي مسيرةَ أربعٍ بَعْدَ الحِساءِ
فشأنُكِ أَنْعُمٌ وخلاكِ ذَمٌّ ولا أَرْجِعْ إلى أهْلي وَرَائي
وجاء المسلمون وغادروني بأرضِ الشَّام مُشْتَهَىٰ التواءِ
وَرَدكِ كلُّ ذي نسبٍ قريبٍ إلى الرحمنِ منقطعَ الإخاءِ
هنالك لا أُبالي طَلْعَ بعلٍ ولا نخلٍ أسافِلها رُواءِ

وقال:

لكنَّني أسألُ الرَّحمنَ مَغْفِرةً وضربةً ذاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدا
أو طعنةً بِيَدَيْ حرَّانَ مجهزةً بحربةٍ تُنْفِذُ الأحشاءَ والكَبِدا
حتّى يُقال إذا مَرُّوا على جَدَثي أرشده اللهُ من غازٍ وقد رَشَدا

وقال أيضاً:

يا نفسُ إلاَّ تُقْتَلي تموتي هذا حِمامُ الموتِ قد صَلِيتِ
وما تَمَنَّيتِ فقد أُعْطِيتِ إن تَفْعَلي فِعْلَهُما هُدِيتِ

كعب بن مالك الأنصاري:

هو كعب بن مالك من بني سلمة (بفتح السين وكسر اللام) من الخزرج ولد في يثرب نحو عام ٢٥ ق هـ (٥٩٨ م) وكان في نحو الخامسة والعشرين من عمره عند ما شهد بيعة العقبة مع قومه ، ودخل في الإسلام ، ثم إنه شهد مع رسول الله ﷺ جميع الغزوات إلا تبوك ، وذكر قصة تخلفه عن غزوة تبوك بأسلوب سهل سلس بليغ وهو نموذج جميل لنثر هذا العصر ، وفي القصة جوانب ومعان إنسانية ونفسية من الإيمان والفداء ، وكان محدثاً يروي الحديث عن رسول الله ﷺ.

وعمي كعب بن مالك في آخر عمره ثم توفي بين سنة ٥٠ وسنة ٥٥ هـ (٦٧٠ ـ ٦٧٣ م) وسنه في نحو السابعة والسبعين، وكان من أنصار عثمان بن عفان.

كعب بن مالك من فحول الشعراء ، مكثر مجيد ، وخصوصاً في الحماسة ووصف الحرب ، وله نماذج يوجد أكثرها في كتب السيرة وخاصة في السيرة النبوية لابن هشام.

نماذج من كلامه:

قال يوم خيبر وهو في الحماسة:

ونحـنُ وَرَدْنـا خيبـراً وفُـروضَـه ... بكـلِّ فتًـى عـاري الأشاجِـعِ مِـذْوَدِ

جَوادٍ لدى الغاياتِ لا واهِنِ القُوى ... جَريءٍ على الأعداءِ في كلِّ مَشْهَدِ

عظيمِ رَمادِ القِدْرِ في كلِّ شَتْوَةٍ ... ضَرُوبٍ بنصلِ المَشْرَفِيِّ المُهَنَّدِ

يَرى القَتلَ مَدْحاً إن أصابَ شهادةً ... مِـنَ اللهِ يـرجُـوهـا وفَـوْزاً بـأَحْمَـدِ

يَـذُودُ ويَحْمِـي عـن ذِمـارِ مُحَمَّـدٍ ... ويـدفَـعُ عنـه بـاللسـانِ وبـاليـدِ

وينصـرُه مـن كـلِّ أمـرٍ يَـريبُـه ... يجـودُ بنفـسٍ دون نفـسِ محمـدٍ

يُصـدِّقُ بـالأنبـاءِ بـالغيـبِ مُخْلِصـاً ... يـريـدُ بـذاك الفـوزَ والعـزَّ فـي غَـدِ

وله في المدح ، يمدح الذين حضروا غزوة مؤتة ويرثي الذين استشهدوا فيها:

نَـام العيـونُ ودمعُ عينـكَ يَهْمُـلُ ... سَحّاً كما وَكَفَ الطبابُ المُخْضَلُ
فـي ليلـةٍ وردتْ علـيَّ هُمُـومُهـا ... طَـوْراً أَحِـنُّ وتـارةً أتملمـلُ
واعتـادنـي حُـزْنٌ فبـتُّ كـأنَّنـي ... ببنـاتِ نَعْـشٍ والسَّمـاك مُـوَكَّـلُ
وكـأنَّمـا بيـن الجـوانـحِ والحَشَـى ... ممَّـا تـأوَّبنـي شهـابٌ مُـدْخَـلُ
وَجْداً على النَّفر الذين تتابَعُوا ... يـومـاً بمـؤتـة أُسنـدوا لـم يَنْقُلُـوا
صلَّـى الإلـهُ عليهـمُ مـن فتيـةٍ ... وسَقَـى عظـامَهُـم الغمـام المُسْبـلُ
صَبَـرُوا بمـؤتـةَ لـلإلـهِ نفـوسهـمْ ... حَـذَر الـرَّدى ومخـافـةً أن يَنْكِلُـوا
فمضـوا أمـامَ المسلميـن كـأنَّهـم ... فُنُـقٌ عليهـنَّ الحـديـدُ المُـرَفَّـلُ
إذ يهتـدُون بجعفـرٍ ولـوائِـه ... قُـدَّامَ أوَّلِهـمْ فنعـمَ الأوَّلُ
حتـى تفـرَّجـتِ الصفـوفُ وجعفـرٌ ... حيث التقى وعْثُ الصُّفوفِ مُجَدَّلُ
فتغيَّـر القمـرُ المنيـرُ لفقـدِه ... والشمسُ قد كُسِفَتْ وكادتْ تأفلُ
قَـرْمٌ عـلا بنيـانُـه مـن هـاشـمٍ ... فَـرْعـاً أشَـمَّ وسُـؤدداً مـا يُنْقَـلُ
قـومٌ بهـم عَصَـمَ الإلـهُ عبـادَهُ ... وعليهـمُ نَـزَلَ الكتـابُ المُنَـزَّلُ
فضلـوا المعـاشـرَ عـزَّةً وتكـرُّمـاً ... وتغمَّـدتْ أحـلامُهـمْ مـن يجهـلُ
لا يُطْلِقُـون إلـى السَّفـاهِ حُبَـاهُـمُ ... ويُـرى خَطِيبُهُـم بحـقٍّ يَفْصِـلُ
بيضُ الوجوهِ تَرى بطونَ أكفِّهم ... تنـدى إذا اعتـذرَ الـزَّمـانُ المُمْحِـلُ
وبهـديهـمْ رضـي الإلـهُ لِخَلْقِـه ... وبجـدِّهـمْ نُصِـر النبـيُّ المُـرْسَـلُ

حسـان بـن ثـابـت الأنـصـاري:

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن زيد مناة بن عدي من بني مالك بن النجار ، والنجار هو تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج ، وأم حسان هي الفريعة ، بنت خالد بن حبيش من الخزرج أيضاً ، وكان أبوه ثابت وجده المنذر من أشراف قومهم والحكام بين الأوس والخزرج ، وكان جده خاصة عظيم الكرم محباً للسلم ، لما اختلف الأوس والخزرج بعد يوم سميحة في

أمر القتلى والديات ، أهدر المنذر ديات قوم الخزرج واحتمل ديات القتلى من الأوس من ماله حرصاً على السلم .

ولد حسان في يثرب نحو عام ٦٠ ق هـ (٥٦٣ م) ونشأ شاعراً يتكسب بالشعر ويتنقل بين بلاط جلق وبلاط الحيرة ، وكان إلى الغساسنة أميل ، وقد مدح من آل جفنة الغساسنة ، أولاد الحارث الأعرج (توفي ٥٣ ق هـ ٥٦٩ م) وأحفاده ، واستمر الغساسنة في بر حسان ووصله بالجوائز حتى بعد أن دخل في الإسلام وأضرب عن مدحهم .

وأسن حسان كثيراً ثم عمي في أواخر أيامه ، وتوفي سنة ٥٤ هـ (٦٧٤ م) وقد زادت سنه على مئة عام .

حسان بن ثابت من فحول الشعراء ، كثير الشعر جيده وهو أشعر أهل المدر .

وكانت أغراض شعر حسان في الجاهلية : المدح والهجاء القبلي والشخصي ، وكان منها الرثاء والخمر والحماسة ، والفخر والغزل ، وواصل حسان قول الشعر في الإسلام ، ووقف مدحه على رسول الله ﷺ وقصر هجاءه على المشركين الذين كانوا يتعرضون للرسول وللإسلام بهجائهم ، اكتسب شعر حسان في الإسلام كثيراً من العذوبة والإخلاص ، وكثرت فيه التعابير الإسلامية والاقتباس من القرآن الكريم ، وحسان خليق بأن يسمى رأس المديحيين ، فهو الذي بدأ في المديح النبوي . وهو من الذين أجادوا المديح في الجاهلية ، و في الإسلام .

نماذج من كلامه : في الحماسة والفخر :

عَفَتْ ذاتُ الأصابِعِ فالجِوَاءُ ... إلى عَذْراءَ مَنْزِلُها خَلاءُ
دِيارٌ مِنْ بَني الحَسْحَاسِ قَفْرٌ ... تُعَفِّيها الرَّوَامِسُ والسَّماءُ
وكانَتْ لا يَزالُ بها أَنِيسٌ ... خِلالَ مُرُوجِها نَعَمٌ وشَاءُ
فَدَعْ هذا ، ولكنْ مَنْ لِطَيْفٍ ... يُؤَرِّقُني إذا ذَهَبَ العِشَاءُ
لِشَعْثَاءَ التي قَدْ تَيَّمَتْهُ ... فليس لِقَلْبِهِ منها شفَاءُ

كأنَّ خَبيئةً من بيتِ رَأْسٍ ... يكونُ مِزَاجُها عَسَلٌ ومَاءُ

على أنيابِها، أوْ طَعْمُ غَضٍّ ... مِنَ التُّفَّاحِ هَصَّرَهُ اجْتِناءُ

إذا ما الأَشْرِباتُ ذُكِرْنَ يوماً ... فَهُنَّ لِطَيِّبِ الرَّاحِ الفِداءُ

نُوَلِّيها المَلامةَ، إنْ أَلَمْنَا ... إذا ما كانَ مَغْثٌ أو لِحَاءُ

ونَشْرَبُها فَتَتْرُكُنا مُلوكاً ... وأُسْداً ما يُنَهْنِهُنا اللِّقاءُ

عَدِمْنا خَيْلَنا، إنْ لم تَرَوْها ... تُثِيرُ النَّقْعَ، مَوْعِدُهَا كَدَاءُ

يُبَارِينَ الأَعِنَّةَ مُصْعِداتٍ ... عَلى أكتافِها الأَسَلُ الظِّمَاءُ

تَظَلُّ جِيادُنا مُتَمَطِّراتٍ ... تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّساءُ

فإمَّا تُعْرِضُوا عنَّا اعْتَمرنا ... وكانَ الفتحُ وانكشفَ الغِطاءُ

وإلاَّ، فاصْبِرُوا لِجِلادِ يوم ... يُعِزُّ اللهُ فيه مَنْ يشاءُ

وجبريلٌ أمينُ اللهِ فينا ... ورُوحُ القُدْسِ ليس له كِفَاءُ

وقالَ اللهُ قد أَرْسَلْتُ عَبْداً ... يقولُ الحَقَّ إنْ نفع البلاءُ

شَهِدْتُ به، فقوموا صَدِّقُوه ... فقُلْتُمْ: لا نَقُومُ ولا نَشَاءُ

وقالَ اللهُ: قد يَسَّرْتُ جُنْداً ... هُمُ الأنصارُ عُرْضَتُها اللقاءُ

لَنَا في كلِّ يومٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِبابٌ، أو قِتالٌ، أو هِجاءُ

فَنُحْكِمُ بالقوافي مَنْ هَجَانا ... ونَضْرِبُ حين تختلطُ الدِّماءُ

أَلا أَبلغْ أبا سُفيان عنِّي ... فأنتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ

بأنَّ سيوفنا تركتكَ عبداً ... وعبدُ الدَّار سادتُها الإماءُ

هَجَوتَ مُحمداً فأجبتُ عنهُ ... وعِندَ اللهِ في ذاكَ الجَزَاءُ

أَتَهْجُوهُ، ولستَ له بِكُفْء ... فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُما الفِداءُ

هَجَوتَ مُباركاً، بَرّاً، حَنيفاً ... أمينَ اللهِ، شِيمَتُه الوفاءُ

فَمَنْ يهجو رسولَ اللهِ مِنْكُمْ ... ويَمْدَحُه، وينصرُه سَواءُ

فإنَّ أبي ووالدَه وعِرضي ... لِعِرْضِ محمدٍ منكُمْ وِقَاءُ

لِساني صَارِمٌ لا عيبَ فيه ... وبَحْري لا تُكَدِّرُه الدِّلاءُ

في رثاء الرسول ﷺ:

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسولِ ومَعْهَدُ ... مُنيرٌ وقد تَعْفُو الرُّسُومُ وتَهْمَدُ
وَلا تَمْتَحي الآياتُ من دارِ حُرْمَةٍ ... بها منبرُ الهَادي الذِي كَان يَصْعَدُ
وواضِحُ آثارٍ وباقي مَعَالِمٍ ... ورَبْعٌ له فيه مُصَلَّى ومَسْجِدُ
بها حُجُراتٌ كان ينزلُ وَسْطَهَا ... من اللهِ نورٌ يُستضاءُ ويُوقَدُ
معارفُ لم تُطْمَسْ على العهدِ آيُها ... أتاها البلى فالآيُ منها تُجَدَّدُ
عرفت بها رَسْمَ الرسولِ وعَهْدَه ... وقبراً بها وَاراهُ في التُّرب مُلْحِدُ
ظَللتُ بها أبكي الرسولَ فأَسْعَدَتْ ... عُيونٌ ومِثْلاها من الجِنِّ تُسْعِدُ
يُذَكِّرْنَ آلاءَ الرسولِ وما أَرَى ... لها مُحْصِياً نفسي فنفسي تَبَلَّدُ
فَبُورِكْتَ يا قبرَ الرسولِ وبُورِكَتْ ... بلادٌ ثَوى فيها الرشيدُ المُسَدَّدُ
وبُورِكَ لحدٌ منكَ ضُمِّنَ طيِّباً ... عليه بناءٌ من صَفِيحٍ مُنَضَّدُ
تَهيلُ عليهِ التُّرْبَ أَيْدٍ وأَعْيُنٌ ... عليهِ وقد غَارَتْ بذلكَ أَسْعُدُ
لقد غَيَّبُوا حِلْماً وعِلْماً ورحمةً ... عَشِيَّةَ عَلَّوْهُ الثَّرى لا يُوَسَّدُ
وراحُوا بِحُزْنٍ ليس فيهمْ نَبِيُّهُمْ ... وَقد وَهَنَتْ منهم ظُهورٌ وأَعْضُدُ
يُبَكُّون مَنْ تبكي السَّمواتُ يومَه ... ومَن قد بَكَتْه الأرضُ فالناسُ أَكْمدُ
وأَمْسَتْ بلادُ الحُرْمِ وَحْشاً بِقاعُها ... لِغَيْبةِ ما كانَتْ من الوَحْي تَعْهَدُ
قِفاراً سوى مَعْمُورة اللحدِ ضافَها ... فَقِيدٌ يُبَكِّيهِ بَلاطٌ وغَرْقَدُ
ومَسْجِدُهُ فالْمُوحِشاتُ لِفَقْدِهِ ... خلاءٌ لهُ فيه مَقَامٌ ومَقْعَدُ
وبالجَمْرَةِ الكُبرى له ثَمَّ أَوْحَشَتْ ... دِيارٌ وعَرَصَاتٌ ورَبْعٌ ومَوْلِدُ
فَبَكِّي رسولَ الله يا عَيْنُ عَبْرةً ... ولا أَعْرِفَنَّكِ الدَّهْرَ دَمْعَكِ يَجْمَدُ
ومالَكِ لا تَبْكينَ ذا النِّعمةِ التي ... على الناسِ منها سابِغٌ يَتَغَمَّدُ
فَجُودي عليه بالدُّموع وأَعْوِلي ... لِفَقْدِ الذي لا مثلُه الدَّهْرَ يُوْجَدُ

وقال في المدح:

إنَّ الذَّوائبَ مِنْ فِهْرٍ وإخوتَهمْ ... قد بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ
يَرْضَى بهم كلُّ مَنْ كانَتْ سَريرتُه ... تَقْوَى الإلهِ وبالأَمْرِ الذي شَرَعُوا

قومٌ إذا حاربُوا ضَروا عَدُوَّهُمُ أو حاولوا النفعَ في أشياعهم نَفَعُوا
سَجيَّةٌ تِلك منهم غيرُ مُحْدَثَةٍ إنَّ الخَلائِقَ حقّاً شَرُّها البِدَعُ
إنْ كانَ في النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمُ فكلُّ سَبْقٍ لأدنى سَبْقِهِمْ تَبَعُ
لا يَرْقَعُ الناسُ ما أَوْهَتْ أَكُفُّهُمُ عندَ الدِّفاعِ ولا يُوهُونَ ما رَقَعُوا
إنْ سابَقُوا الناسَ يوماً فازَ سَبْقُهُمُ أو وازَنُوا أهلَ مَجْدٍ بالنَّدى مَتَعُوا
أَعِفَّةٌ ذُكِرَتْ في الوَحْيِ عِفَّتُهُمْ لا يَطْمَعُون ولا يُرْديهمُ الطَّمَعُ
لا يَبْخَلُون على جارٍ بفضلهم ولا يمسُّهمُ مِنْ مطمعٍ طَبَعُ

وله في مدح الغساسنة وهو مما قاله في الجاهلية:

للهِ دَرُّ عِصابَةٍ نادَمْتُهُمْ يوماً بِجِلَّقَ في الزَّمانِ الأَوَّلِ
يَمْشُون في الحُلَلِ المُضاعَفِ نَسْجُها مَشْيَ الجِمالِ إلى الجِمَالِ البُزَّلِ
الضَّارِبُون الكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ ضَرْباً يُطِيحُ له بَنانُ المَفْصِلِ
والخالِطُونَ فَقِيرَهُم بِغَنِيِّهِمُ والمُنْعِمُون على الضَّعيفِ المُرْمِلِ
أولادُ جَفْنَةَ حولَ قبرِ أبيهم قبرِ ابنِ ماريةَ الكريمِ، المُفْضِلِ
يُغْشَوْنَ، حتى ما تَهِرُّ كِلابُهُم لا يَسْأَلُونَ عن السَّوادِ المُقْبِلِ
يَسْقونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ عليهم بَرَدَىٰ يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ
بِيضُ الوُجُوهِ، كريمةٌ أَحْسَابُهُمْ شُمُّ الأُنوفِ من الطِّرازِ الأَوَّلِ

وله في الحكمة:

والمالُ يَغْشَى رِجالاً لا طَبَاخَ لَهُمْ كالسَّيْلِ يَغْشَى أُصولَ الدِّنْدِنِ البالي
أصونُ عِرْضي بمالي لا أُدَنِّسُه لا باركَ اللهُ بعد العِرْضِ في المالِ
أحتالُ للمالِ، إنْ أَوْدى فأَجْمَعُه ولستُ لِلْعِرضِ إنْ أَوْدى بِمُحْتَالِ
والفقرُ يُزْري بأقوامٍ ذوي حَسَبٍ ويُقْتَدَى بلئامِ الأَصْلِ أَنْذالِ

من عامة المخضرمين الأعلام: الحصين بن الحمام المرِّيّ

هو الحصين بن الحمام المرِّيّ بن ربيعة بن ساب بن حرام بن وائل بن سهم بن ذبيان، كان سيد سهم ومقدمهم، وقد لقب مانع الضيم، وكان من أوفياء العرب، وأسلم فكان من صحابة رسول الله ﷺ، ويظهر أن

الحصين بن الحمام لم يعش في الإسلام طويلاً ، فلعل وفاته كانت في مطلع خلافة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

كان الحصين بن الحمام من الشعراء المقلِّين ، ولكنه كان من المشهورين المجيدين ، وشعره وجداني متين ، أكثره في الفخر والحماسة وفي عتاب قومه ، وله شيء من الرثاء ، وفي شعره المتأخر معان إسلامية .

قال في الفخر والحماسة وهو من كلامه الإسلامي :

وقـــافيـــةٍ غيـــرِ إنْسِيَّـــةٍ ... قَـرَضـتُ مـن الشِّعـرِ أمثـالَهـا
شَـرُود تَلَمَّـعُ فـي الخـافقيـنِ ... إذا أُنْشِـدَتْ قِيـلَ: مَـنْ قـالهـا؟
وحَيْـرانَ لا يَهْتَـدي بـالنَّهـارِ ... مـن الظَّلْـعِ يتبـعُ ضـلالَهـا
وداعٍ دعــا دعــوةَ المُسْتَغِيـثِ ... فكنـت كمـن كـان لبَّـى لهـا
إذا الموتُ كان شَجا في الحُلُوقِ ... وبـادرتِ النفـسُ أشغـالَهـا
صبـرتُ ولـم أكُ رِعْـدِيـدةً ... ولَلصَّبْـرُ فـي الـرَّوعِ أنْجَـى لَهـا
ويـوم تَسَعَّـرُ فيـه الحـروبُ ... لَبِسْـت إلـى الـرَّوعِ سِـرْبـالَهـا
مُضَعَّفَـــة السَّـرْدِ عـاديـة ... وعَضْـب المضـاربِ مفصـالهَـا
ومُطَّـــرِداً مـــن رُدَيْنِيَـــةٍ ... أَذُودُ عـــن الـــوِرْدِ أبطـــالَهـا
فلـم يَبْـقَ مـن ذلـكَ إلا التقـى ... ونفـسٌ تعـالـجُ آجـالَهـا
أُمـورٌ مِـنَ اللهِ فـوقَ السَّمـاءِ ... مَقَـادِيـرُ تنـزلُ أنْـزالَهـا
أعـوذُ بِـرَبِّـي مـن المُخْـزِيـا ... تِ يـوم تَـرى النفسُ أعمـالَهـا
وَخَـفَّ المـوازيـن بـالكـافـريـن ... وزلـزِلـتِ الأرضُ زلـزالَهـا
ونـادَى مُنـادٍ بـأهـلِ القُبـورِ ... فَهَبُّـوا لِتُبْـرِزَ أثقـالَهـا
وُسعِّـرَتِ النـارُ فيهـا العـذابُ ... وكـان السَّلاسـلُ أغـلالَهـا

وقال في عهده الجاهلي وهو في الحماسة يصف فيه يوم دارة موضوع بين سعد بن ذبيان وبين بني سهم بن مرة :

ولمَّـا رأيـتُ الـوُدَّ ليس بنـافعي ... وإنْ كـان يـومـاً ذا كـواكبَ مُظْلِمـا
صَبَـرْنَـا وكَـان الصبرُ فينا سَجِيَّةً ... بـأسيـافِنـا يَقْطَعْـنَ كَفّـاً ومِعْصَمـا

يُفَلِّقْنَ هاماً مِنْ رجالٍ أَعِزَّةٍ ... علينا ، وهم كانوا أَعَقَّ وأَظْلَمَا
وجوهُ عَدُوٍّ، والصُّدورُ حديثةٌ ... بِوُدٍّ، فأَوْدَى كلُّ وُدٍّ فأنْعَمَا
فَليتَ أبا شِبْلٍ رأى كَرَّ خَيْلِنا ... وخيلهمُ بَيْنَ السِّتارِ فأَظْلَمَا
عَشِيَّةَ لا تُغْنِي الرِّماحُ مكانَها ... ولا النَّبلُ إلا المَشْرَفِيَّ المُصَمِّما
لَدُنْ غُدْوَةً حتى أَتَى الليلُ ما تَرَى ... من الخيلِ إلا خارِجِيّاً مُسَوَّما
عَلَيهِنَّ فِتيانٌ كَساهُمْ مُحَرِّقٌ ... وكانَ إذا يَكْسُو أَجادَ وأَكْرَمَا
صفائح بصرى أخلصتها قيونها ... ومطرداً من نسج داود مبهما
يَهُزُّونَ سُمْراً مِن رِماحٍ رُدَيْنَةٍ ... إذا حُرِّكَتْ بَضَّتْ عَوَامِلُها دَمَا
تَأَخرتُ أستبقي الحياةَ فَلَمْ أجدْ ... لِنَفسي حياةً مثل أن أتقدَّما
فلسنَا على الأعقابِ تَدْمَى كلومُنا ... ولكنْ على أقدامِنا تقطرُ الدِّما
ولَستُ بمبتاعِ الحياةِ بِسُبَّةٍ ... ولا مُبْتَغٍ من رهبةِ الموتِ سُلَّما

كعب بن زهير:

نشأ كعب بن زهير في مهد الشعر فقد كان أبوه زهير بن أبي سُلْمى شاعراً كبيراً ، فمال إلى الشعر منذ سن مبكرة ، وأشرف والده على تقويم شعره وتربيته حتى رسخت فيه الملكة الشعرية ، وأتى بالجيد الرصين والرائق المعجب من الشعر ، ودخل في أبوابه المختلفة ، وأوشك أن يسامي أباه لولا غرابة في ألفاظه وتعقيد في تراكيبه وقصور في مطولاته ، وفي كل ذلك بريء أبوه.

لما ظهر الإسلام خرج هو وأخوه بجير إلى رسول الله ﷺ ، ثم بدا له فتأخر هو وتقدم بجير فسمع كلام رسول الله ﷺ وأسلم فغضب كعب لإسلامه ونهاه وهجاه ، وهجا رسول الله ﷺ معه بأبيات فأهدر الرسول ﷺ دمه فخيف عليه من أن يقتل بيد أحد صحابته ، وأشفق عليه أخوه فنصحه بالإسلام والتوبة والحضور إلى الرسول ﷺ في طلب عفوه ورضاه ، فجاء كعب إلى المدينة وتوسل بأبي بكر رضي الله عنه ودخل في الإسلام فعفا عنه الرسول ﷺ وأمَّنه ، ومدحه كعب بلاميته المشهورة فخلع عليه الرسول ﷺ بردته

الشريفة ، فما زالت البردة في أهله حتى اشتراها معاوية رضي الله عنه بأربعين ألف درهم وتوارثها الخلفاء الأمويون ثم العباسيون ، وسميت قصيدته بقصيدة البردة ، وصارت مثالاً لنوع من مديح الرسول ﷺ انتهج منهجه عدد من الشعراء المسلمين فيما بعد وسميت قصائد هذا المنهج بقصائد البردة ، وخصت قصيدة كعب بن زهير بعنوان قصيدة «بانت سعاد» لأنها تبتدىء بهذا اللفظ ، ولعل كعباً لم يهتم بقول الشعر بعد ذلك ولم يقرض شعراً ينقل عنه ويعرف .

ولكن قصيدته اللامية في مديح رسول الله ﷺ جعلت اسمه خالداً ، توفي كعب بن زهير في سنة ٢٤ هجرية .

من عيون شعر قصيدته هذه التي مدح بها الرسول ﷺ يبدأ القصيدة بشعر الغزل اتباعاً للطريقة المعهودة لدى شعراء عهده ويقول :

بانَتْ سُعادُ فَقلبي اليومَ مَتبُولُ ... مُتيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكبُولُ
وما سُعادُ غَداةَ البَيْنِ إذ رَحلُوا ... إلا أَغَنُّ غَضيضُ الطَّرْفِ مَكحُولُ
هَيْفَاءُ مُقْبلةٌ عَجزاءُ مُدبِرةٌ ... لا يُشْتكى قصرٌ منها ولا طُولُ
تَجْلُو عَوارِضَ ذِي ظَلْمٍ إذا ابْتَسَمَتْ ... كأنَّه مُنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْلُولُ
شُجَّتْ بِذِي شَبَمٍ من مَاء مَحْنِيةٍ ... صافٍ بِأَبْطَحَ أضحى وهو مشمولُ
أرجُو وآملُ أن تَدْنُو مَودَّتُها ... وما إخالُ لَدَيْنا منكِ تَنْوِيلُ
أمستْ سُعادُ بأرضٍ لا يُبَلِّغُها ... إلا العِتاقُ النَّجيباتُ المَراسِيلُ
وَلَنْ يُبَلِّغَها إلا عُذافِرةٌ ... لهَا على الأَيْنِ إرقالٌ وتَبْغِيلُ
من كلِّ نَضَّاخةِ الذِّفْرَى إذا عَرِقتْ ... عُرْضَتُها طامِسُ الأعلامِ مَجْهُولُ
كلُّ ابنِ أُنْثى وإنْ طالتْ سَلامَتُهُ ... يوماً على آلةٍ حَدْباءَ مَحْمُولُ
أُنبِئْتُ أنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَني ... والعفوُ عند رسولِ اللهِ مَأْمُولُ
مَهْلاً هَدَاكَ الذي أعطاكَ نافِلةَ الـ ... ـقرآنِ فيها مَواعِيظٌ وتَفْصِيلُ
لا تَأْخُذَنِّي بأقوالِ الوُشَاةِ ولم ... أُذْنِبْ ولو كثرتْ فِيَّ الأقاويلُ
إنَّ الرسولَ لنورٌ يُستضاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ من سيوفِ اللهِ مَسْلُولُ

في عُصْبةٍ من قريشٍ قال قائِلُهم ... ببطنِ مكَّةَ لمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا
زالُوا فما زالَ أنكاسٌ ولا كُشُفٌ ... عند اللقاءِ ولا مِيلٌ مَعَازِيلُ
شُمٌّ العَرَانِينِ أبطالٌ لَبُوسُهُمُ ... مِنْ نَسْجِ داودَ في الهَيْجا سَرَابِيلُ
بِيضٌ سَوَابِغُ قد شُكَّتْ لها حَلَقٌ ... كأنَّها حَلَقُ القَفْعاءِ مَجْدُولُ
لَيسوا مفاريحَ إن نالتْ رماحُهم ... قوماً وليسوا مَجَازيعاً إذا نِيْلوا
يمشون مشيَ الجِمال الزُّهْر يَعْصِمُهم ... ضَرْبٌ إذا عَرَّدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ
لا يَقَعُ الطعنُ إلا في نُحُورِهِمُ ... وما لهمْ عَنْ حِياضِ الموتِ تَهْلِيلُ

أبو ذؤيب الهذلي:

هو خويلد بن خالد من بني سعد بن هذيل ، وكان في الجاهلية راوية لساعدة بن جُؤَيَّة الهذلي .

دخل أبو ذؤيب في الإسلام وحسن إسلامه ، فلما ندب عثمان بن عفان المسلمين إلى الفتح في إفريقية خرج أبو ذؤيب في جيش الفتح مع خمسة من أبنائه ، وهلك أبناء ذؤيب الخمسة بالطاعون في مصر ، فتابع هو طريقه إلى إفريقية، وشهد فتح قرطاجة .

توفي في عام ٢٨ هـ على لدغة لدغته حية في مصر .

قال ابن سلام : «كان أبو ذؤيب شاعراً فحلاً لا غميزة فيه ولا وهن. . . وسئل حسان : من أشعر الناس؟ قال : أشعر الناس حياً هذيل ، وأشعر هذيل أبو ذؤيب غير مدافع» وأكثر شعر أبي ذؤيب الذي وصل إلينا مراث ، وله شيء من الخمريات ومن وصف الخيل وبراعة في الطرد ، وفي وصف النحل والعسل خاصة ، وله قصائد قصرها على الغزل .

المختار من شعره يرثي أبناءه الخمسة :

أَمِنَ المَنُونِ وريبها تَتَوَجَّعُ ... والدَّهرُ ليسَ بِمُعْتبٍ مَنْ يَجْزَعُ
قالتْ أميمةُ ما لجسمكَ شَاحِباً ... مُنذُ ابْتَذَلْتَ ، ومِثلُ مالِكَ يَنْفَعُ
أَمْ ما لجنبكَ لا يُلائِم مَضْجَعاً ... إلا أَقَضَّ عليكَ ذاك المَضْجَعُ
فأَجبتُها : أرثِي لِجسمي ، إنَّه ... أودى بَنِيَّ من البلادِ فَوَدَّعُوا

أَوْدَى بَنِـيَّ وأعقبـونِـي حَسْـرةً بعـدَ الـرُّقَـادِ وعَبْـرةً مـا تُقْلِـعُ
سَبَقُـوا هَـويَّ وأَعْنَقُـوا لِهَـواهُـمُ فَتُخُـرِّمُـوا ، ولكـلِّ جَنْـبٍ مَصْـرَعُ
فَغَبَـرْتُ بَعْـدَهُـمُ بعيـشٍ نـاصـبٍ وإخـالُ أنِّـي لاحِـقٌ مُسْتَتْبَـعُ
ولقـد حَـرِصْـتُ بـأَنْ أُدافـعَ عنهـمُ وإذا المنيـةُ أقبلـتْ لا تُـدْفَـعُ
فـالعينُ بَعْـدَهُمُـو كـأنَّ حِـدَاقَهـا سُمِلَـتْ بشـوكٍ فهـي عُـورٌ تَـدْمَـعُ
حتَّـى كـأنِّـي للحـوادثِ مَـرْوَةٌ بصَفَـا المُشَـرَّق كـلَّ يـوم تُقْـرَعُ
وَتَجَلُّـدِي للشَّـامِتيـنَ أُريهـمُ أنِّـي لِـرَيـب الـدَّهْـرِ لا أَتَضَعْضَـعُ
لا بُـدَّ مـن تَلَـفٍ مقيـمٍ فـانتظرْ أَبِأَرْضِ قومِكَ أم بأخرى المضجعُ
ولقَـد أرى أنَّ البكـاءَ سفـاهـةٌ ولسـوفَ يُـولَـعُ بـالبُكـا مـن يفجـعُ
وليـأتيـن عليـكَ يـومٌ ، مـرةً يبكـى عَليـك مقنعـاً لا تسمـعُ
والنفـسُ راغبـةٌ إذا رَغَّبْتَهـا وإذا تُـرَدُّ إلـى قليـلٍ تقنـعُ

الـخنسـاء:

هي السيدة تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية ، والخنساء لقب غلب عليها ، ولدت ونشأت في أسرة ذات شرف ، فلقد كان أبوها وأخواها معاوية وصخر من سادات سليم من مضر ، وكانت بارعة الجمال والأدب ، فخطبها الشاعر المعروف دريد بن الصمة سيد هوازن وفارس الجشم ، فأبت عليه وتزوجت في قومها سليم ، وكان دريد بن الصمة قبل إبائها قد مدحها ولما أبت عليه هجاها.

قُتل أخواها معاوية وصخر فبكتهما بكاءً حاراً بشعرها المؤثر البليغ ولا سيما صخراً لما وجدت فيه حناناً وإحساناً وبراً أكثر ، و رثاؤها فيهما وخاصة في صخر أبلغ الرثاء وبه امتازت على غيرها من الشواعر والشعراء ، فيعد رثاؤها أقوى الرثاء في الشعر الجاهلي ، وهو سبب صيتها وعنوان شهرتها ، ووفدت مع قومها على رسول الله ﷺ وأسلمت وأنشدته.

واستمر حزنها على أخويها وأبيها حتى ابيضت عيناها من الحزن وقالت:

كنت أبكي عليهم من الثأر وأبكي عليهم اليوم من النار ، حتى هدأ حزنها

بمر الزمان. وكان لها أربعة أولاد حثتهم للجهاد فخرجوا إلى حرب القادسية واستشهدوا جميعاً، ولكن إيمانها بالله وبالجزاء في الآخرة حفظها من النوح والبكاء، فلم تزد على أن قالت «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته» ثم توفيت بالبادية عام ٢٤ هـ.

فاقت الخنساء شواعر العرب كلهن في رصانة شعرها ورقة لفظها وحلاوة جرسه، وربما ضارعت في هذه الصفات الشعراء الفحول ويرى النابغة وجرير وبشار أنها أفضل من الرجال.

وقد غلب في شعرها الفخر والرثاء، وكانت لا تقول إلا البيتين أو الثلاثة قبل مقتل أخويها، فلما قُتلا فاض الدمع من عينها والشعر من قلبها، وقد اقتصر شعرها إلى حد كبير في هذا الموضوع وبقيت في شعرها على منهجها القديم بدوية جاهلية.

نموذج من شعرها:

قالت ترثي أخاها صخراً:

أَعَيْنَيَّ جُودَا ولا تَجْمُدا ... أَلَا تبكيانِ لصَخْرِ النَّدى
أَلَا تبكيانِ الجريءَ الجميلَ ... ألا تبكيانِ الفتى السَّيِّدا
طويلَ النِّجادِ رفيعَ العما ... د سادَ عشيرتَه أَمْرَدا
إذا القومُ مَدُّوا بأيديهم ... إلى المَجْدِ مَدَّ إليهِ يدا
فَنالَ الذي فوقَ أيديهم ... مِنَ المجدِ ثُمَّ مَضَى مُصْعِدا
يُكَلِّفُه القومُ ما عالَهُمْ ... وإن كانَ أَصْغَرَهُمْ مَوْلِدا
تَرَى المَجدَ يَهْوِي إلى بيتهِ ... يَرَى أفضلَ الكَسْبِ أَن يُحْمَدا
وإن ذُكِرَ المجدُ ألفيتَه ... تأزَّرَ بالمجدِ ثم ارْتَدَىٰ

وقالت ترثيه أيضاً:

أَلَا يا صخرُ إنْ أَبْكَيْتُ عَيْنِي ... لَقَد أَضْحَكْتَنِي دَهْراً طويلا
دَفَعتُ بك الخطوبَ وأنتَ حَيٌّ ... فَمَنْ ذا يَدْفَعُ الخَطْبَ الجَليلا
إذا قَبُحَ البكاءُ على قَتِيلٍ ... رأيتُ بكاءَكَ الحَسَنَ الجَمِيلا

ومن قولها:

إنَّ الزَّمانَ وما يَفْنَى له عَجَبٌ ... أبقى لنا ذَنَباً واسْتُؤْصِلُ الرَّاسُ
إنَّ الجديدينِ في طُولِ اختلافِهما ... لا يَفْسُدانِ ولكنْ يَفْسُدُ النَّاسُ

الحُطَيئة:

هو أبو مليكة جَرْوَل بن أوس العبسي ، كان غير واضح النسب ونشأ في بيئة غير ملتزمة لم يكن فيها وازع ، ولا رادع ، بعيداً عن تربية كريمة ، فشب على سفساف الأمور ومحاقرها ، غير ملتزم بالأخلاق الحسنة والاتجاهات السليمة ، وابتُلي بقلة المال وضنك العيش ، فنشأ على الجشع والرغبة إلى المال، بخيلاً متذرعاً بالشر ، فمرج لسانه في أعراض الناس ، وهجا من كرهه أو أراد إخضاعه ، وضجر يوماً من نفسه فهجاها ، وسخط من أمه فهجاها.

نزل يوماً على الصحابي الزبرقان بن بدر ضيفاً ، ولم يرقه قراه فهجاه وتحول إلى خصمه بغيض بن لأي ، ومدحه فاستعدى عليه الزبرقان بن بدر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فحبسه فاستشفع إليه بشعره فأطلقه وحذره من هجاء الناس فقال: إذاً يموت عيالي جوعاً ، هذا مكسبي ومنه معاشي ، فاشترى منه الخليفة أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم فكف عن الهجاء حتى توفي الخليفة ثم عاد إلى طبعه حتى مات سنة ٥٩ هـ ، ومع كل هذا فإنه شاعر متين الشعر ، رائق الأسلوب شرود القافية متصرف في فنون القول من مديح وهجاء ونسيب وفخر ، ولولا سوء خلقه وتبذل سيرته لفاق المخضرمين من الشعراء ، فإن كلامه يخلو من كثير مما يقع في شعر غيره من ركاكة في اللفظ أو نبو في القافية ، وقلما يوجد في هجائه إفحاش أو هجر ، والحطيئة لقب له لأنه كان قصيراً ، ولد في بني عبس دعياً لا يعرف له نسب ، استولده أوس بن مالك العبسي سفاحاً من جارية اسمها الضراء كانت بنت رياح بن عمرو، ثم إن الضراء تزوجت الكلب بن كنيس بن جابر العبسي وكان أيضاً مدخول النسب.

ولقد استفرغ الحطيئة شعره في مديح بني قريع ثم أكثر الهجاء.

نموذج من كلامه:

له في المديح وهو من جيد شعره:

أَلَا طَرَقَتْنا بعدما هَجَعُوا هِنْدُ ... وقد جُزْنَ غَوْراً واستبانَ لنا نَجْدُ
وإنَّ التي نَكَّبْتُها عن مَعاشِرٍ ... عليَّ غِضابٍ أنْ صَدَدتُ كما صَدُّوا
أتتْ آلَ شَمَّاسِ بن لأي وإنَّما ... أتاهُمْ بها الأحلامُ والحَسَبُ العِدُّ
يَسُوسُونَ أحلاماً بعيداً أَنَاتُها ... وإنْ غَضِبُوا جاء الحفيظةُ والجِدُّ
أَقِلُّوا عليهم، لَا أباً لأبيكُمُ ... منَ اللَّوْمِ أو سُدُّوا المكانَ الذي سَدُّوا
أُولئك قومٌ إنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا البُنَى ... وإنْ عاهَدُوا أَوْفَوْا، وإنْ عَقَدُوا شَدُّوا
وإنْ كانتِ النَّعماءُ فيهم جَزَوْا بها ... وإنْ أَنْعَمُوا لا كَدَّرُوها ولا كَدُّوا
وإن قال مَوْلَاهُمْ على جُلِّ حادثٍ ... مِنَ الدَّهرِ: رُدُّوا فَضْلَ أحلامِكم رَدُّوا
وإنْ غابَ عن لأْي بَغِيضٌ كَفَتْهُمُ ... نَواشِىءُ لَمْ تَطْرِرْ شواربُهُمْ بَعْدُ
مطاعينُ في الهيجاءِ مكاشيفُ للدُّجى ... بَنَى لَهُم آباؤهم وبَنَى الجَدُّ
وتَعْذُلُني أَفناءُ سَعْدٍ عَلَيْهِمُ ... وما قُلْتُ إلَّا بالَّذي عَلِمَتْ سَعْدُ

ومن شعره الذي عرَّض فيه بالزبرقان بن بدر رضي الله عنه:

واللهِ ما مَعْشَرٌ لامُوا امْرَأً جُنُباً ... في آلِ لأيِ بنِ شَمَّاسٍ بأكياسِ
ما كَانَ ذنبُ بغيضٍ لا أبالكم ... في بائسٍ جاء يحدُو آخرَ الناسِ
لمَا بَدَا لي منكم عيبُ أنفسكم ... ولم يَكُنْ لِجراحي فيكُمُ آسي
أَزْمَعْتُ يأساً مُبيناً من نَوالِكُمُ ... ولن تَرَى طارِداً للحُرِّ كالياسِ
جاراً لقوم أطالوا هُون مَنْزِلِهِ ... وغادَرُوهُ مُقِيماً بين أَرْمَاسِ
مَلُّوا قِراهُ وهَرَّتْهُ كِلَابُهُمْ ... وجَرَّحُوه بأنيابٍ وأَضْرَاسِ
دَعِ المكارم لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِها ... واقْعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكاسي
مَنْ يَفْعَلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَهُ ... لا يَذْهَبُ العُرْفُ بينَ اللهِ والنَّاسِ

النابغة الجعدي:

هو أبو ليلى حسان بن قيس بن عبد الله من جعدة بن كعب بن ربيعة أحد بني عامر بن صعصعة، كانت مساكن قومه في الفلج (والفلج ماء في جنوبي نجد) وقيل: إن أمه كانت امرأة من أهل هجر يقال لها خصفة.

والنابغة الجعدي أقدم من النابغة الذبياني، فإن النابغة الذبياني أدرك النعمان بن المنذر بينما النابغة الجعدي أدرك المنذر بن محرق والد النعمان هذا.

شهد النابغة الجعدي فتح فارس، ثم شهد معركة صفين مع علي بن أبي طالب وكان في ذلك الحين يسكن الكوفة، ثم أدرك خلافة معاوية وكانت وفاته في أصفهان سنة ٦٥ هـ، في أواخر خلافة مروان بن الحكم أو في مطلع خلافة عبد الملك وكف بصره وزادت سنُّه على مئة.

النابغة الجعدي شاعر مخضرم مطبوع فصيح يجري شعره على السليقة ولا يتكلف صنعة، إلا أن شعره شديد التفاوت، منه الجيد البارع ومنه الرديء الساقط، وفنون شعره المشهورة: المديح والهجاء والوصف، وكان من أوصف الناس للفرس، ثم الحكمة، وفي شعره شيء من الإقذاع، ومن العجيب أنه كان مغلباً.

ولقد قرض شعراً في الجاهلية وانقطع أياماً ثم عاد إلى قرضه في عهده الإسلامي، وتوجد في شعره الإسلامي معان إسلامية.

المختار من شعره:

قال النابغة الجعدي يرثي ابناً له اسمه محارب، ويذكر أخاً له اسمه وَحْوَح وهو في ذلك يخاطب زوجته:

أَلَمْ تَعلمي أَنِّي رُزِئْتُ مُحَارِباً ... فَمَالك بعد اليومَ خيرٌ وَلا ليا

وَقَبله ما قَد رُزِئْتُ بِوَحْوحٍ ... وكانَ ابنَ أُمِّي والخليلَ المُصَافيا

فَتى كَمُلَتْ خَيْراتُه غيرَ أَنَّه ... جَوادٌ فما يُبقي من المالِ باقِيا

فَتى تـمَّ فِيـه مـا يَسُـرُّ صـديقَـه عَلـى أنَّ فيـه مـا يسـوءُ الأَعـاديـا

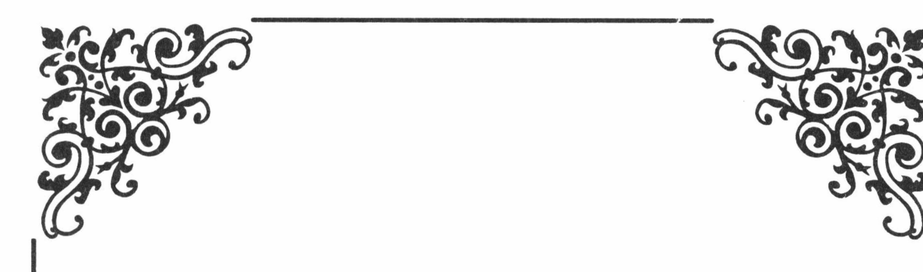
أتى النابغة الجعدي إلى الرسول ﷺ وأنشده :

أتيتُ رسـولَ الله إذ جـاءَ بـالهُـدى وَيَتْلُـو كِتَـابـاً كـالمَجَـرَّةِ نَيِّـرا
بَلَغْنا السَّما مَجْداً وجُوداً وسؤدَداً وإنَّـا لَنَـرْجُـو فـوقَ ذلـك مَظْهَـرا
وَلا خَيْرَ في جَهْلٍ إذا لم يكنْ له حَليـمٌ إذا مـا أَوْرَدَ الأمـرَ أَصْـدَرا
ولا خَيْرَ في حِلْمٍ إذا لم تكنْ لَه بَـوادِرُ تَحْمـي صَفْـوَهُ أن يُكَـدَّرا

وقال في المعاني الدينية ، وقد ألمَّ بكثير من المعاني التي ما وردت في القرآن الكريم :

الحمـدُ للهِ لا شَـريـكَ لـه مَـنْ لَـم يَقُلْهـا فَنَفْسَـهُ ظَلَمـا
المُـولِـجُ الليـلَ فـي النهـارِ وفـي الليـلِ نهـاراً يُفَـرِّجُ الظُّلَمـا
الخافِضِ الرافع السماءَ على الْـ أَرْضِ ولـم يَبْـنِ تحتهـا دِعَمـا
يـا أيُّهـا النَّـاسُ هـل تَـرَوْنَ إلـى فـارسَ بـادتْ وخـدهـا رَغَمـا
أَمْسَـوا عَبيـداً يَـرْعَـوْنَ شـاءَكُـم كـأنَّمـا كـان مُلكهُـمْ حُلُمـا
أو سَبـأ الحَـاضِـريـنَ مـأْرب إذ يَبْنُـونَ مِـنْ دُون سَيلِـهِ العَـرِمـا
فَمُـزِّقُـوا فـي البلادِ واعترفُـوا الـ ـهـونَ وذاقـوا البـأسـاءَ والعَـدَمَـا

* * *



القسم الثاني

عهد بني أمية







الباب الأول

أدب هذا العهد، أسسه وأصنافه

الفصل الأول: العوامل والمؤثرات

الفصل الثاني: أغراض الأدب وأقسامه

الفصل الثالث: النهضة الشعرية الجديدة ومناحيها




الفصل الأول
العوامل والمؤثرات

الخلفية الاجتماعية والسياسية:

لقد كان العرب قبل الإسلام متشتتين فيما بينهم على أساس القبيلة والنسب ، وكانت تظهر بذلك فيهم المنازعات والخصومات ، وتتجدد العداوات.

ولم يكن لهم تنظيم يجمع وحداتهم وأقسامهم في رباط واحد سوى توافقهم في الثقافة واللغة والدم ، وهو الذي كان يجمعهم في وحدة.

وجاء الإسلام فأصلح فسادهم وأزال فرقتهم ، ونظمهم في سلك واحد ، فكانت وحدة شاملة أساسها الأكبر هو الدين الإسلامي ، وأثرت هذه الوحدة في اتجاهات حياتهم الدينية والسياسية والاجتماعية ، وذلك بفضل تعاليم الإسلام ، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فصار وضعهم الاجتماعي بالإسلام وضعاً إيجابياً منظماً تحت التوجيهات القرآنية والنبوية الكريمة ، فأصبح بعضهم يتعاون مع بعض ويشترك بعضهم مع بعض على أساس المصلحة الواحدة والهدف الواحد ، وتحولوا بذلك إلى مجتمع إنساني صالح مؤمن ، وبيئة إسلامية راشدة ، نشأت من ذلك سياسة موحدة واتجاه اجتماعي موحد بدلاً من التفرق القبلي والتشتت الأناني ،

فأصبحت لهم حكومة مركزية جامعة لمناطق الجزيرة العربية المختلفة تحت لواء واحد وأمير واحد ، وهو محمد بن عبد الله الرسول العربي القرشي الكريم ﷺ ، ثم تلاه خلفاؤه الراشدون ، وبقي لهم ذلك عقوداً من السنين ولم يضعف إلا عندما بدأ يؤثر على المجتمع الإسلامي المثالي توافد الأجانب من أبناء البلاد الأخرى من الموالي ومن أهل المهن والصناعات بتأثير اتساع رقعة الحكم والاختلاط بالآخرين وظهور جوانب متنوعة للحياة الجديدة في الإطارات الاجتماعية والإدارية والتنظيمية وكثرة الرقيق والسبايا نتيجة الغزوات والفتوح ، ونشأت من هذا وذاك مشكلات سياسية واجتماعية في حياة هذا العهد ، وظهر أثرها في نشوء اختلافات في وجهات النظر في الحكم والإدارة وخاصة بتأثير أبناء الشعوب المجاورة الذين دخلوا في بلاد الإسلام ومراكزه وانضموا إلى الشعب العربي برواسبهم الثقافية والاجتماعية والعقلية ، وكانوا يحملون قدراً من نفسياتهم وطبائعهم السابقة ، فمهد ذلك مع الزمن إلى ظهور تكتلات سياسية امتزجت بالآراء الدينية وانتماءات النسب والدم ، واشتدت الخلافات وتطور الأمر بمر الزمان إلى حالة هياج سياسي خاص حدث فيها أن تمرَّدت فيه طائفة من الناس ، وسفكوا دم الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد أن مكث في الخلافة أكثر من عشر سنوات فكانت فتنة لم يكن لها نظير في العهد الإسلامي السابق.

وتولى الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولاية أمر المسلمين في وضع سياسي مكفهر مضطرب ، وتكتل المسلمون كتلتين ، كتلة تنادي بالإسراع في الأخذ بثأر الخليفة الشهيد من الثوار ، والمتمردين الذين تفرقوا في البلاد ، وكتلة متأنية في الأمر تؤثر تنظيم الأمور وضبطها أولاً ، وأفضى هذا التكتل إلى معاداة وقتال بين المتعارضين ، نشأت منه فرقتان: فرقة الشيعة ، وهي اختارت المغالاة في موالاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وآله إلى حد التقديس ، وفرقة الخوارج ، وهي رفضته ورفضت مخالفيه معه ، وعدَّتهم خارجين من الإسلام ، وذلك بجنب حزب سياسي معارض

تحت زعامة معاوية بن أبي سفيان الأموي رضي الله عنه أمير ولاية الشام.

وحكم الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه أربع سنوات وتسعة أشهر واستشهد بعدها بيد رجل خارجي، واختار المسلمون نجله الأكبر الحسن بن علي رضي الله عنه خلفاً، ولكنه بعد ستة أشهر من خلافته تصالح مع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وتنازل له عن الخلافة، وتم الأمر لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وانتهى به صدر الإسلام، وبدأ العهد الأموي في حالة اضطراب وفوضى في المجتمع الإسلامي السياسي وتأثرت به اتجاهات المسلمين وآراؤهم، وظهرت آثار ذلك في أدبهم وشعرهم.

الحالة الاقتصادية والثقافية:

أما في الجانب الاقتصادي فقد كان العرب في حياتهم الجاهلية يعانون قلة في وسائل الحياة، وفقراً في المعيشة، لم تكن أرضهم تغل لهم ما يكفيهم من المتطلبات المادية لكونها قاحلة، ولكون حياتهم عاطلة إلا من وقائع خصام ومعارك حربية قبلية، وهي التي كانت تدر عليهم ببعض المال الذي كان يحصل لهم من السلب والنهب وغنائم القتال، أو من اقتناء البعير والغنم فكانوا يستفيدون من لحومها وألبانها، وكانت بعض القبائل مثل قريش تقوم بالتجارة والبعض الآخر مثل سكان المدينة يقوم بالاستفادة من خصوبة الأرض وزراعتها.

فلما جاء الإسلام ونشر الفضيلة والخير ودعا إلى الإيمان والوئام، واجتمع العرب تحت لوائه وتوحدت آمالهم وأهدافهم وقاموا بنشر الخير والدعوة والجهاد فخضعت لهم الأمم المجاورة، وتهافتت أمامهم القوى الكافرة، وانهالت عليهم الغنائم وكثر الرقيق وتوفرت الأموال، وأصبح ذلك كله سبباً لخفض العيش ورغد الحياة، انتقلوا به من الفقر وقلة المال إلى الثروة والغنى والرفاهية، فمال إليهم طلاب المال وأهل الحرف والصناعات من مختلف الأطراف يقومون بقضاء حاجتهم إلى الصناعة والعمل، وسدوا بذلك النقص في حياتهم المتدرجة إلى التطور والمدنية، يكتب العلامة

ابن خلدون في مقدمته مشيراً إلى ذلك «لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليه ، فأفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثى فأتوا من ذلك وراء الغاية».

في هذه البيئة المرفهة ولد ونشأ الجيل الإسلامي الجديد وحصلت له وسائل الحضارة والترف فجرّ ذلك طائفة من شبابه إلى حياة الدعة والأدب والشعر ، وأغراهم بالغزل والشعر الرقيق بوجه خاص ، وحرك ذوقهم إلى الغناء واللهو ، وكان شباب الحجاز أكثر ملاءمة لذلك لكون أرضهم مهد المجاهدين الأولين ومركز قادة الإسلام ، فكان طبيعياً أن تنهال عليهم الغنائم وتكثر لهم العطايا وينالوا التقدير والاحترام بصورة أكبر ، فوجد شبابهم المال والفراغ.

وكانوا في نزعاتهم السياسية غير موافقين لبني أمية ، فأراد الحكام أن ينصرفوا إلى نعومة العيش وحياة الأدب والشعر ، فبذلوا لهم عطاياهم بسخاء وزادوا من عطاياهم.

فكان كل ذلك سبباً في ميل الشباب في الحجاز بصورة كبيرة إلى وسائل المتعة والتلهية.

هذا في جانب ، أما في جانب آخر فقد امتازت حياة هذا العهد بأعمال الجد والاجتهاد أيضاً من مثل خدمة العِلْم وتوسيعه والتربية الدينية ونشر الدعوة والقيام بالجهاد، حيث كانت تخرج جيوش المسلمين تحت قادة أبطال من الحجاز ، يرافقها العلماء والدعاة والعظماء أيضاً ويتوجهون إلى أطراف الدنيا ، فالجيوش الإسلامية تغزو البلاد ، والدعاة والعلماء يبثون في أهاليها الدين والعلم ، ويعلمونهم مكارم الأخلاق وينشرون فيهم الإسلام ، وعم

بجهود العلماء والمحققين الاهتمام بالعلم وبدأت حركة تدوين العلوم الإسلامية مثل الحديث الشريف والفقه والعلوم المتصلة بهما ، ونشأت علوم إسلامية ، على قواعد قوية ثابتة وتفرعت إلى فروع مختلفة .

وأثرت حركة الجهاد ففتحت أقطار كثيرة وتوسعت رقعة العالم الإسلامي من الهند والسند في الشرق وإلى المغرب وأسبانيا في الغرب ، كما نشأ بتأثير التربية على الصلاح والتقوى إقبال على الزهد لله والعبادة له ، فظهر في المجتمع الإسلامي عظماء في النسك والعبادة والحياة الربانية ، فقد ذكرت كتب التراجم طائفة كبيرة منهم بلغوا في تمسكهم في الحياة الربانية مبلغاً عظيماً ، وأثر كل ذلك على أطوار الحياة والأخلاق وعلى الفكر والأدب ، وأثر على الأساليب الأدبية ، وتجلت صوره في نصوصها ومنها ما تجلى في الشعر .



الفصل الثاني

أغراض الأدب وأقسامه

هذه هي الأوضاع التي نشأ فيها أدب المرحلة الجديدة بجنب ما ورثه من نصوص الأدبين الجاهلي والمخضرم.

أما ما انتقل إلى الجيل الجديد من العهد السابق من التراث الأدبي السابق فهو في النثر: نصوص من الخطابة والوصية والحكمة والمثل والرواية، وفي الشعر: نصوص من المديح والفخر والهجاء والحماسة والرثاء والحكمة وغيرها.

النـثــر:

أما النثر فنرى أنه إلى حد كبير امتداد لنثر صدر الإسلام بما فيه عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين المهديين، واقتداء له بقوة وبراعة مع صور ثقافية جديدة نشأت فيه بحكم الظواهر الاجتماعية والثقافية الجديدة للعهد الجديد.

وكان تأثير العقلية الإسلامية التي استفادت من القرآن الكريم والحديث الشريف روحها وطبيعتها ظاهراً منه.

وبرزت من أغراض النثر في هذا العهد الخطابة بصورة خاصة، ثم الرواية والترسل، ثم التوقيعات.

أما الخطابة فقد قويت بحكم اتساع عمل الدعوة والتربية والعمل السياسي والاجتماعي في هذا العهد ، وكثرت فيها الجزالة وازداد البسط .

أما الرواية فقد قويت أيضاً وتوفرت أمثلتها وكثر عملها لكونها وسيلة لنقل أحاديث الرسول ﷺ وبيان أحكام الدين الإسلامي ، وذكر أيام العرب وأنسابهم ووقائعهم .

أما الترسل فكانت مقتضيات النظم الحكومي والإداري وضرورات الحياة الاجتماعية تتطلب وجود مثل هذا اللون من الأدب ، فبدأ اهتمام الناس بكتابة الرسائل في مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية المختلفة .

وأما التوقيعات فكانت أحكاماً وتعليقات من الحكام على طلبات الناس ورسائلهم ، وسيأتي تفصيل أحوال النثر في محله .

الشعر :

أما الشعر فقد أثر الإسلام فيه عند ظهوره وأوجد فيه تحفظاً واحتياطاً يتجنب مواضع الزلل والضلال ، وبذلك توقفت أو قلت معاني الفحشاء وأحاديث المنكر والتغني بالمآثر القبلية الجاهلية في ذلك العهد ، وحل محلها البيان القرآني واسترعت بلاغة القرآن انتباه الناس ، فاشتد إصغاؤهم وتذوقهم له ، فانحصر الشعر لدى كثير من الشعراء في الجوانب المهمة من حياتهم الإسلامية الجديدة وفيما يحوجهم للدفاع عن دينهم الجديد وردهم لهجمات أعدائهم ومقاومة شرهم ، كما ظهر في شعر المديح منه مديح الرسول ﷺ ومديح أصحاب المآثر الإسلامية وذوي الفضل في مجالات الخير الإنسانية، وفي شعر الرثاء على من ضحَّوا بحياتهم في سبيل الفضيلة والخير .

واستمر ذلك في الجيل المخضرم الذي نشأ وتربى ذوقه الأدبي والشعري في الجاهلية ، ولكنه انخضع لتعاليم الإسلام فحصر المعاني الأدبية والشعرية في الإطار الإسلامي ، إلى أن جاء العهد الأموي بالجيل الجديد وكان منشؤه على أدب الجيل الإسلامي الأول وشعره ، وعلى الشعر الجاهلي الذي نقله

إليه الجيل الأول ليكون مرجعاً لغوياً وتاريخياً للأجيال الآتية .

استفاد جيل هذا العهد مع أخذه وتناوله من بيان القرآن وأدب الحديث وأدب صدر الإسلام بصورة كبيرة ، من شعر العهد الجاهلي أيضاً ، وذلك بقراءة نماذجه للاستعانة بها لفهم غريب ألفاظ القرآن ولتقوية ملكاتهم الأدبية ، ولكن معاني هذه النماذج تركت في نفوس الشباب أثراً قرّبهم إلى الاستمتاع بالكلام العربي المتجاوز لحدود الحشمة والالتزام الخلقي ، فساق ذلك أفراداً منهم إلى التبسط أيضاً في هذا المجال ، وإلى استحداث صور مشابهة له جديدة ، فكان منها الغزل الرقيق ، وقد تجاوز هذا الغزل حيناً إلى الإباحية المحظورة أيضاً وعم الغزل الرقيق بصورة خاصة في مجالس الأدب والغناء في العهد الجديد ، وكان أغلبه تقليداً أدبياً لإضفاء قوة وروعة فنية كانت تتلاءم مع الأذواق العربية المأثورة ، ولم يكن تقليداً في مجال السيرة والسلوك والحياة إلا عند بعض الشباب وفي أحوال خاصة .

هذا في جانب ، وفي جانب آخر أثارت المنازعات السياسية القبلية التي ظهرت منذ بداية العهد الأموي عواطف العصبية الطائفية أيضاً ، وهي بدورها أفضت إلى استثارة روح العصبية القبلية الجاهلية الدفينة في النفوس ، فظهر ذلك في كلام شعراء هذا العهد من أصحاب النفوس المنفعلة بهذه الصفة ، وبخاصة منهم من الشعراء الموالين لسياسة بني أمية والشعراء المعارضين لها من مخالفيهم ، وعمل في ذلك الفخر والهجاء بصورة خاصة ، واشتملت على الخصومات الشخصية والطائفية وصارت قسماً بعينه ، وشغف به الناس ، وراج في أوساط الأدب .

* * *

الفصل الثالث
النهضة الشعرية الجديدة ومناحيها

الـنهضـة الـشعـريــة :

لقد ظهر أثر العهد الإسلامي الأول على الشعر بصورة خاصة منذ هذا العهد؛ بتأثير نشأة الجيل الجديد على الأوضاع الجديدة بصورة كاملة ، وبحكم عودة القرائح الأدبية إلى نشاطاتها على الخط الشعري الجديد .

فبرزت في الشعر الجديد أنواع ، وتهذبت وتطورت أنواع ، كما أن النشاط الشعري قد قوي في مناطق ، وضعف في مناطق لأسباب وعوامل أثرت منذ العهد الجديد .

الـمناطـق الـشعـريــة :

الـعـراق :

ومن المناطق الخاصة للنشاط الشعري في هذا العهد منطقة العراق ، فقد امتازت في شعر الخصومات السياسية والقبلية في هذا العهد ، وكان شعر هذا النوع إما سياسياً وهو الذي كان يقال في الخصومة الأولى ، وإما قبلياً وكان وقوداً لحرب المناقضات بين الشعراء ، واشتهر منهم بقوة العارضة جرير والفرزدق والأخطل الذين أضافوا إلى ثروة شعر عهدهم عنصراً ضخماً للمناقضات .

أما الشعر السياسي الديني فقد اشتهر فيه من الشيعة الكميت بن زيد ، ومن الخوارج : الطرمّاح بن الحكيم ، وقطري بن الفجاءة .

على كل فقد وجد الشيعة بصورة كبيرة أرضاً خصبة في العراق ، وذلك لظهور أحوال كانت تحرك النفوس ، وتثير فيها العواطف بتأثير ظهور منازعات مختلفة من سياسية ودينية وحزبية ، فكثر فيه الشعراء واحتفى بكلامهم أهل العراق خاصة وأهل المناطق الأخرى عامة ، وقد كان أكثر فحول الشعراء لهذا النوع من العراق .

الشـــام:

أما الشام فلم يظهر فيها من الشعراء العظام إلا عدي بن الرقاع العاملي ، وهو لا يساوي كبار شعراء العراق ، ولم تكن بيئة الشام غنية من ناحية الشعر ، وإنما كان الشعراء يأتون إليها من أطراف أخرى لكسب التقدير والمال ، ولعل السبب في ذلك هو أن أهل الشام كان مجال همهم الأكبر هي مسؤوليات الإدارة والحكم ، وكان حالهم في هدوء وراحة أكثر من غيرهم لكون بلدهم مركزاً للخلافة ، ومع ذلك نرى أن بعض الخلفاء الأمويين قد ساهموا في قول الشعر مثل يزيد بن عبد الملك وولده وليد بن يزيد ، ولكن لون شعرهما كان هو اللون الغزلي المستفاد من حياة المتعة واللذة .

الحجـــاز:

أما الحجاز فقد امتاز في شعر الغزل وفاق شعراؤه في ترقيقه ، فنال بذلك الغزل فيه تنوعاً وسعة ورواجاً ، ساعد في ذلك ميل شباب الحجاز إليه وساعد فيه الثراء والمال الكثير الذي وصل إلى أيديهم ، وما حصل لهم من الفراغ في أوقاتهم ، وتوافد أهل الفن إليهم من أنحاء البلاد ، فنبغ من الشعراء جميل بن معمر وكثير بن عبد الرحمن وغيرهما .

أما اليمن ومصر والمغرب والأندلس في العهد الأموي فكانت أكثر تخلفاً في الشعر .

الاحتياطات الشعرية المتطورة الجديدة:

دخل في الشعر منذ هذا العهد تحرر من أكثر الاحتياطات التي كان الشعراء

في صدر الإسلام يختارونها ، فقيل شعر كثير في الأغراض المختلفة بالصورة التي كانوا يختارونها قبل الإسلام مثل المديح والفخر والهجاء والرثاء والغزل وغيره ، غير أنهم رققوا هذه الأغراض وهذبوها وطوروها تحت تأثير الحياة الحضرية الجديدة؛ التي اشتملت على قدر من الثقافة والعلم والمعارف الإسلامية الحاصلة من مصدري الشريعة الإسلامية ، وبقدر من الثقافة الوافدة من بلاد متحضرة مجاورة.

الـغـزل الـرقـيـق:

أما الغزل فقد تأثر بصورة أكبر بحياة الدعة والرفاهية والثراء التي دخل فيها العرب في هذا العهد بفضل الغنائم والعطايا الحاصلة للمجاهدين والغزاة وأبناء الصحابة المقدمين في الإسلام ، فقد جعل ذلك شباب الأسر الغنية راغبين في الاشتغال بالثقافة والشعر والفن ، وانتهز الشعراء المتكسبون والمحترفون بالفنون الفرصة للاستفادة من ثراء هؤلاء الشباب ، فنشأ بذلك الميل إلى الغزل ورق قوله وتوسع بعض الناس فيه ، فظهرت في شعرهم لوثة من الإباحية والصراحة بعض الأحيان ، ومن أهم شعراء هذا النوع عمر بن أبي ربيعة الذي امتاز بذكر أحوال الغرام والهوى ، وامتاز بالحوار والقصص في غزله ، ووليد بن يزيد الخليفة الأموي الذي جهر بالمحظور وذكر الخمر ووصفها وذكر غرامه بها.

ولكن وجد بجنب ذلك نوع من الغزل الرقيق فيه تحرق وصدق مع العفاف والطهر ، وسمي بشعر الحب العذري ، وأهم من أثر عنهم مثل هذا الغزل جميل بن معمر صاحب بُثينة ، وكُثيِّر بن عبد الرحمن صاحب عزَّة ، وقيس بن ذريح صاحب لُبْنى ، وتوبة بن الحُمَيِّر وصاحبته ليلى الأَخْيَلِيَّة ، فقد وصفوا تحرقهم وهيامهم في الحب ، وبرعوا في ذكر أحوال الحب بدون فسق وإباحية ، فقد تحدثوا عن آلام أفئدتهم وحرمانهم وعذابهم النفسي بأسلوب سلس سهل مؤثر ، وأكثر ما حدث ذلك في قبيلة عذرة وكانت تسكن في غربي نجد ، فسمي هذا الحب بالحب العذري. ولقد امتاز هذا العهد بهذا

النوع العفيف من الغزل على العهود الأخرى ، أما الغزل العام فقد جرى على الطريق القديم ، اتبع الشعراء فيه السابقين مع قليل من التطوير الذي استلزمته الحياة الحضرية الجديدة ، وامتاز فيه ذو الرُّمَّة صاحب مَيَّة ، وعدي بن الرقاع العاملي ، وعروة بن أُذينة وغيرهم .

الشعر الجدلي :

أما الفخر والمديح والهجاء فقد أثرت فيها خلافات نظرية دينية وسياسية ، ظهرت في حياة المسلمين منذ نهاية الخلافة الراشدة ، وتكونت اتجاهات ضد الحكم الأموي وأخرى في تأييده ، وتطور حب آل علي بن أبي طالب إلى نزعة سياسية مذهبية ، وظهرت نزعة سياسية مذهبية مختلفة عنها ، فنشأ من ذلك شعر الجدل السياسي والمذهبي ، جاءت نصوصه على ألسنة الشعراء الممثلين للشيعة ، والشعراء الممثلين للمذهب الخارجي ، والشعراء المؤيدين لخلافة عبد الله بن الزبير والشعراء المؤيدين للخلافة الأموية .

وتطور الأمر تحت تأثير السياسة ، وتوزع الشعراء على الأحزاب ، وأخذوا ينظمون شعرهم معبرين عن نظريات سياسية جديدة ، وكان حزب الأمويين أكثر نفراً وكان يليه حزبا الشيعة والخوارج ، أما حزب الزبير فكان أقل الأحزاب شعراً وشعراء .

واشتهر من شعراء هذه الفئات المختلفة الكُميت بن زيد في تمثيل الشيعة وفي الحب لآل البيت ، والطرمَّاح بن الحكيم في تمثيل الخوارج وحبهم ورفض الآخرين ، كما مثل عبد الله بن قيس الرقيات عبد الله بن الزبير على الصعيد السياسي والمذهب الشيعي على الصعيد المذهبي ، ومدح الأخطل أمراء بني أمية وأشاد بعظمتهم بشعره .

النقائض :

وتنوع هذا الجدل الشعري ، وتطرق من السياسة والدين إلى القبيلة والفردية ، وبدأت المعارك الشعرية في هذا المجال أيضاً ، ونشأ منه شعر المناقضات ، وكان نوعاً جديداً بالنسبة إلى المنهج والمعنى ، كان يقتبس من

المنازعات الشعرية القبلية القديمة بمنهجها وخصائصها الأساسية ، ويبني عليها خصائص جديدة مقتبسة من التطور الأدبي والثقافي والنظري الجديد ، فاشتمل على مخاصمات قبلية وفردية ومهاجاة بين شاعرين يلتزم كلاهما بوزن واحد وقافية واحدة ، وينقض أحدهما قول الآخر؛ معتمداً على ذكر مآثر قبيلته ومواضع الضعف والمهانة لقبيلة خصمه ، وأصبحت هذه النزعة الشعرية اتجاهاً سائداً بين طائفة من شعراء هذا العصر .

فقد جاء في الأغاني أن مساور العبسي كان يتهاجى مع المرار الفقعسي الأسدي وابن ميادة الذبياني يتهاجى مع الحكيم النمري المحاربي ويتهاجى زياد الأعجم مولى عبد القيس مع كعب الأشقري وقتادة اليشكري مع المغيرة بن الجبناء التميمي. وجرير مع الفرزدق ، وجرير مع الأخطل ، وطال الجدل والتهاجي الشعري بين جرير والفرزدق وكثرت قصائدهما ، وزاد ذلك في الثروة الشعرية لهذا العهد ، وصار شعر النقائض لكثرته ولإجادة الشاعرين فيه صنفاً بعينه من شعر هذا العهد .

التأثير الديني في الشعر :

واصطبغ شعر هذا العصر بالصبغة الدينية كذلك ، وامتزج أحياناً بالسياسة لأنها كانت تتصل بفكرة إمامة المسلمين وخلافتهم ، فطبيعي أن يصب فيه الدين ، ثم إن عهد الخلافة الراشدة وعهد النبوة كانا قريبين فكان تأثير الاتجاهات الدينية باقياً وقوياً ، وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن كثيراً من صفحات الشعر الأموي طبع بطابع ديني ومثاله ما تراه في قصيدة الطرماح التي أولها :

كلُّ حيٍّ مستكملٌ عدةَ العمرِ ومودٍّ إذا انْقَضَى عده

وإلى عدد من قصائده الأخرى ، ويمتلىء ديوان ذي الرُّمَّة بعناصر إسلامية كثيرة من ذكر الصلاة وقصرها في الشعر وما يكون من التيمم وتلاوة القرآن وإحياء الليل مثل قوله :

إذا جَلاَ البرقُ عنه قامَ مُبْتَهِلاً لله يَتْلُو له بالنَّجْمِ والطُّورِ

وفي شعر عروة بن أُذينة فقيه المدينة نجد صوراً للأفكار الدينية من ذكر الموت ومدح التوكل على الله ، وعلى كل فإنه لا يخلو شعر أكثر الشعراء من معان دينية إسلامية ، بل ونجد لعدد منهم قصائد كاملة في هذا المجال ، وتشتد هذه النزعة في مناسبات خاصة فحيناً يتصل بالعاطفة الدينية وحدها وحيناً يتعلق بالسياسة الحزبية وهو ما نراه في شعراء الشيعة والخوارج .

الرجز :

واهتم عدد من الشعراء في هذا العصر بالرجز واعتنوا به كثيراً ، مثل العجاج وابنه رؤبة وأبي النجم العجلي ، ونرى أن بعض الرجاز رأى أن يستهل بعض ما ينشىء من أراجيزه بالحمد والثناء على الله بدلاً من الوقوف بالأطلال والبكاء ، فأبو النجم العجلي يبتدىء أشهر أراجيزه بقوله :

الحمدُ لله الوَهُوبِ المُجْزِلِ ......

بينما يبتدىء العجاج أهم أراجيزه بقوله :

قَـدْ جَبَـرَ الدِّينَ الإلـهُ فَجَبَـرْ ......

وفي ديوانه أرجوزة يفتتحها بقوله :

الحمـدُ للهِ الـذي اسْتَقَلَّـتِ ... بِـإِذْنِـهِ السَّمـاءُ واطْمَـأَنَّـتِ

ويستمر فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما يكون من البعث والنشور ، ويتحول إلى ما يشبه الواعظ .






الباب الثاني

الشعر ورجاله في هذا العهد




الفصل الأول

الغزل

الـغـزل الـعفـيف:

أما الغزل فقد ملأ جانباً واسعاً من المجال الشعري في هذا العهد، وتنوع كما ذكرنا إلى أقسام، ومنها الغزل العذري منسوباً إلى قبيلة بني عذرة التي اشتهرت بحوادث من الحب الصادق العفيف، عبَّر عنها المحبون بذكر ولههم وهيامهم في شعر مؤثر مصور لآهاتهم، يعرضون فيه سوانحهم النفسية والشعورية، فأصبح شعرهم هذا نوعاً بعينه، عرف بالغزل العذري، وشاركهم في ذلك أبناء قبيلة عامر أيضاً، واشتهر من شعراء هذا النوع من الشعر قيس بن ذريح، وقيس بن الملوّح وهو مجنون ليلى، وتوبة بن الحُمَيِّر وليلى الأخيلية وقد تبادلا الحب والشعر فيما بينهما، واشتهر جميل بن معمر بشعره في بثينة، وكُثيِّر بن عبد الرحمن بشعره في عزة، أما قيس بن ذريح فكان سابقاً في هذا المضمار، عشق بنت عمه لبنى، وحرم الزواج منها فعبر عن هيامه وجواه في شعر كثير بليغ، وجاء بعده قيس بن الملوح وهو العاشق المشهور بالمجنون الذي طبق صيت حبه لليلى الآفاق، وحيكت حوله الأساطير والحكايات، وعبر عن حبه بشعره كما نسب إليه شعر كثير أيضاً.

أما **قيس بن ذريح** فإنه كان من عشاق العرب المشهورين ومعظم شعره في حبيبته لبنى، وكان من بني بكر من كنانة وكان أخا الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من الرضاعة، نشأ قيس في المدينة وفيها رأى

لبنى بنت الحباب الكعبية فأحبها وأحبته وأراد الزواج بها فمنعه أبوه عن ذلك ، وكان قيس وحيداً لأبويه وكان أبوه غنياً جداً ، فأراد أن لا تنصرف ثروته إلى غير أسرته ، فاستشفع قيس الحسين رضي الله عنه فاسترضى أبويه ، وذلك لوجاهته الدينية ، وتزوج قيس بلبنى ، ولكن لم يولد لها ، فطلب والد قيس من قيس تطليقها فطلقها ولكنه جن جنوناً وتوفي في سنة ٦٨ هـ بعد وفاة لبنى بسنة .

وشعر قيس جميل المعاني سهل التراكيب متين السبك ، وكان قيس بن الملوح (مجنون ليلى) يعجب بشعره .

قال قيس :

فإنْ يَحْجُبوها أو يَحُلْ دُوْنَ وَصْلِها ... مقالةُ واشٍ أو وَعِيْدُ أميرِ

فلن يمنعُوا عينيَّ عن دائمِ البُكا ... ولن يُذْهِبُوا ما قد أَجَنَّ ضميري

إلى الله أشكو ما أُلاقي من الهوى ... ومِنْ كُرَبٍ تعتادني وزَفِيُر

ومِن حُرَقٍ للحبِّ في باطنِ الحشى ... وليلٍ طويلِ الحُزْنِ غير قصيرِ

سأبكي على نفسي بعينٍ غَزيرةٍ ... بكاءَ حزينٍ في الوَثاقِ أَسِيرُ

أما **مجنون ليلى فهو قيس بن الملوح** بن مزاحم من بني كعب من عامر بن صعصعة ، أحب ليلى وهي بنت مهدي بن سعد من بني كعب أنفسهم ، وتكنى أم مالك ، وقد كان قيس وليلى في صغرهما يرعيان الغنم ، فنشأت بينهما المحبة .

ولما اشتهر حب قيس وليلى كره أبو ليلى أن يزوج ليلى بقيس ، وزوَّجها رجلاً آخر ، فذهب عقل قيس ولكنه ظل يذكر ليلى .

مجنون ليلى شاعر رقيق حلو الألفاظ رائق الأسلوب ، وقد نحله الرواة شعراً من جنس شعره .

وقد تركت قصة مجنون ليلى أثراً كبيراً في الأدبين الفارسي والأردي ، توفي سنة ٧٠ هـ .

نموذج من شعره:

تَداوَيْتُ مِنْ ليلى بليلى عَنِ الهوى ... كما يَتَداوَى شاربُ الخمرِ بالخمرِ

أَلاَ زَعَمتْ ليلى بأنْ لا أُحِبُّها ... بَلَى ، والليالي العَشْرِ والشَّفْعِ والوَتْرِ

إذا ذُكِرَتْ يرتاحُ قلبي لذكرِها ... كما انتفضَ العصفورُ مِنْ بَلَلِ القَطْرِ

توبة بن الحُمَيِّر وليلى الأخيلية:

أما توبة فهو توبة بن الحُمَيِّر بن حزم بن كعب من عامر بن صعصعة، أحد العشاق العرب المتيمين ، كان في أول أمره امرأ غزلاً مغامراً وصاحب غارات ، وعشق توبة ليلى الأخيلية وخطبها إلى أبيها ولكنه أبى وزوجها من غيره ، ولكن توبة قصر همه على ليلى وظل وفياً لها ، وقُتِل توبة في نزاع مع قومه سنة ٨٠ هـ.

وتوبة شاعر غزل رقيق فصيح الألفاظ سهل التراكيب قوي العاطفة ، وليلى الأخيلية هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال من كعب بن معاوية الدخيل من عامر بن صعصعة ، ونشأت ليلى مع ابن عم لها توبة الحُمَيِّر ، فأحبها وطلب من والدها تزويجها به فرده والدها وزوجها من غيره ، ثم إن توبة ظل يزورها حتى شكاه أهل ليلى إلى السلطان فأهدر دمه الوالي ، ولما مات قالت ليلى في رثائه شعراً كثيراً. ماتت ليلى في نحو سنة ٩٠ هـ.

وليلى من النساء المتقدمات في الشعر لا يتقدمها من النساء إلا الخنساء ، وشعر ليلى متين السبك على المنهج القديم ومعظم شعرها في رثاء توبة.

قول ليلى الأخيلية في رثاء توبة:

آليتُ أبكي بعد توبةَ هالِكاً ... أخا الحَرْبِ إنْ دارتْ عليه الدَّوائرُ

لَعَمْرُكَ ما بالموتِ عارٌ على الفتى ... إذا لم تُصِبْهُ في الحياةِ المَعَايِرُ

وما أحدٌ حيّاً وإن عاش سالماً ... بأَخْلَدَ مِمَّن غَيَّبَتْهُ المقابِرُ

وكلُّ شبابٍ أو جَديدٍ إلى بِلى ... وكلُّ امرئٍ يوماً إلى اللهِ صائِرُ

وكلُّ قَرِيْنَي أُلفةٍ لِتَفَرُّقٍ ... شَتَاتاً وإن ضنّا وطالَ التَّعاشُرُ

فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ يا تَوْبَ هالِكاً ... أخا الحربِ إن ضاقَتْ عليكَ المصادرُ

وكان حب توبة لليلى عفيفاً ، وقد شهدت بذلك ليلى عند سؤال الحجاج ، فقالت : لم يكن منه إلا مجرد الزيارة .

يقول توبة في حب ليلى :

ولـو أنَّ ليلـى الأخيليـةَ سلَّمـتْ ... علـيَّ ، ودُونـي جَنْـدلٌ وصَفَـائِـحُ
لسلمـتُ تسليـمَ البشـاشـةِ أو زقـا ... إليها صَدًى من جانبِ القبرِ صائحُ
وَأُغْبَـطُ مِـنْ ليلـى بمـا لا أنـالُـه ... أَلَا كُلُّ ما قرتْ به العينُ صالحُ

ويقول أيضاً :

كـأنَّ القلـبَ ليلـةَ قيـل : يُغْـدَى ... بليلـى العـامـريـةِ أو يُـرَاحُ
قطـاةٌ غـرَّهـا شَـرَكٌ فبـاتـتْ ... تُجـاذِبُـه وقـد عَلِـقَ الجَنَـاحُ
فلا فـي الليـلِ نـامـتْ واطمـأنـتْ ... ولا فـي الصُّبـحِ كـان لهـا بَـرَاحُ

جميل بن معمر صاحب بثينة :

ورَقَّ الشعر في غزل جميل بن معمر ونال قبولاً في أوساط الأدب والشباب ، وكان يحب بنت عمه بثينة وهو أبو عمرو جميل بن معمر من بني عذرة من قضاعة معد وأمه جذامية من اليمن ولد نحو ٤٠ هـ في وادي القرى من شمالي الحجاز وعلى مقربة من المدينة ونشأ هناك ، تعلق بابنة عمه بثينة وتعلقت به فخطبها إلى أبيها ولكنه رده ، وزاد ولع جميل ببثينة فجعل يقول فيها الشعر ، وشكا أهلها إلى الوالي فتوعده ، فهرب جميل إلى أخواله باليمن ، وتزوجت بثينة برجل من أسرتها ، وظل جميل يقول الشعر فيها ويزورها فتوعده الوالي فذهب إلى مصر وتوفي هناك في ٨٢ هـ .

جميل شاعر فصيح مقدم عند النقاد على جميع معاصريه من شعراء الغزل وشعره رقيق سهل التراكيب واضح المعاني ، وشعره كله في النسيب سوى قطعة أو قطعتين ، يقول جميل بن معمر في حبه لبثينة :

أَلَا ليـتَ ريعـانَ الشَّبـابِ جـديـدُ ... ودَهْـراً تـولَّـى ، يـابُثَيْـنَ ، يَعُـودُ

ويقول :

أَلَا ليتَ شِعْري ، هل أَبيتنَّ ليلةً بـوادي القُـرَى إنِّـي إذاً لَسَعِيـدُ
وقد تلتقي الأهواءُ من بعدِ يَأْسَةٍ وقد تُطْلَبُ الحاجاتُ وهي بعيدُ
يمـوتُ الهـوى منِّي إذا مـا لَقِيتهـا ويحيـا إذا فـارَقْتُهـا فيعـودُ
يقولون: جاهدْ يا جميلُ بغزوةٍ وأيُّ جهـادٍ غَيْـرَهُـنَّ أريـدُ
لكـلِّ حـديـثٍ بينهـن بَشَـاشـةٌ وكـلُّ قتيـلٍ بينهـن شهيـدُ
علقتُ الهوى منها وليداً ، فلم يزلْ إلـى اليـوم ينمـو حُبُّهـا ويـزيـدُ
فمـا ذُكِـرَ الخـلَّانُ إلا ذَكَـرْتُهـا ولا البخيلُ إلا قلتُ: سوف تجودُ

ويقول :

وإنِّـي لأرضـى مِـنْ بُثينـةَ بـالـذِي لـو أَبْصَـرَهُ الـواشي لَقَـرَّتْ بـلابِلُـهْ
بـلا ، وبـألا أستطيعُ ، وبـالمُنَى وبـالأمـلِ المـرجـوِّ قـد خـاب آمِلُـهْ
وبالنظرةِ العَجْلى، وبالحولِ تنقضِي أواخــرُه ـ لا نلتقــي ـ وأوائِلُــهْ

كُثيِّر بن عبد الرحمن صاحب عزة:

ونال شعر كثير بن عبد الرحمن أيضاً قبولاً واشتهاراً في هذا النوع العذري الرقيق من الغزل ، وهو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر من خزاعة ، ولد في بيسان بين المدينة وخيبر نحو ٤٥ هـ ومات أبوه صغيراً فكفله عمه فكان يرعى غنماً لعمه ، واعتنق مذهب الكيسانية غلاة الشيعة ينتسبون إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي ، ويزعمون أن محمد بن الحنفية لم يمت وأنه موجود في جبل رضوى ، وعشق كثير في صباه عزة بنت جميل بن وقاص من حاجب من ضمرة ، ولذلك يقال لعزة الحاجبية والضمرية ، وأحب كثير عزة وهي صغيرة وكانت حميراء حلوة الحديث .

وكثير بن عبد الرحمن شاعر مكثر من فحول الشعراء من الطبقة الثانية من الإسلاميين بعد جرير والفرزدق ، وهو أشعر من كبار شعراء عصره عند أهل الحجاز .

وهو شاعر بدوي الأسلوب يجيد الغزل والوصف والمديح ، توفي في المدينة ١٠٥ هـ وفي الغزل يقول :

وما كنتُ أدري قبل عَزَّةَ ما البُكا ولا مُوجعاتِ القلبِ حتى تَوَلَّتِ

وكانتْ لقطعِ الحبلِ بيني وبينها كنـاذرةٍ نَـذْراً وفـتْ وحلَّـتِ

فقلتُ لها: يا عزَّ ، كلُّ مصيبةٍ إذا وُطِّنَتْ ـ يوماً ـ لها النفسُ ذلَّتِ

ولم يَلْقَ إنسانٌ من الحُبِّ ميعةً تَعُـمُّ ولا عَمْيـاءَ إلاَّ تَجلَّـتِ

كأنِّي أنادي صخرةً ، حين أعرضَتْ من الصُّمِّ لو تمشي بها العُصْمُ زَلَّتِ

صَفُوحـاً فمـا تلقـاكَ إلا بخيلـةً فمن ملَّ منها ذلك الوَصْل مَلَّتِ

فما أنصفتْ ، أما النساءُ فبغضت إلـيَّ ، وأمـا بـالنَّـوال فضنَّـتِ

يكلِّفها الغيرانُ شتمي ، وما بها هـواني ولكـنْ للمليك استـذلَّـتِ

هَنيئاً مـريئاً ـ غيـرَ داءٍ مخـامرٍ ـ لعـزَّة مـن أعـراضِنـا مـا اسْتَحَلَّـتِ

أسيء بِنَا أو أحسني ، لا ملومة لـدينـا ولا مقليـة إن تقلـت

فمـا أنـا بـالـداعي لعـزَّة بـالـرَّدى ولا شـامـتٌ إنْ نَعْـلُ عَـزَّةَ زَلَّـتِ

فلا يحسبِ الواشون أنَّ صَبَابتي بعـزَّةَ كـانـت غمـرةً فَتَجَلَّـتِ

فـو اللهِ ثـمَّ اللهِ مـا حَـلَّ قبلهـا ولا بعـدهـا مـن خُلَّـةٍ حيث حَلَّتِ

وإنِّـي وتهيـامـي بعَـزَّةَ بعـدمـا تخلَّيـت ممَّـا بيننـا وتخلَّـتِ

لكالمُـرْتَجي ظِـلَّ الغَـمَامـةِ كُلَّما تبـوَّأ منهـا للمقيـل اضْمَحَلَّـتِ

الـغـزل الإبـاحــي:

وفي جانب آخر تعدى شعر الغزل لدى عدد من شعراء هذا العهد الحدود المباحة ، فتحدثوا في شعرهم عن حديث النفس والهوى والرغبات المحظورة ، وسبق في هذا النوع من الشعر الوليد بن يزيد الخليفة الأموي ، والأحوص ، وعمر بن أبي ربيعة.

عـمـر بـن أبـي ربـيعــة:

أما عمر بن أبي ربيعة فقد اختط في الغزل مسلكاً خاصاً طريفاً وهو الوصف والحوار ، فامتاز بذلك أسلوبه بمنهج غزلي جديد.

وهو أبو الخطاب وأبو حفص عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة حذيفة بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم من قريش ، ولد في المدينة في الليلة التي

استشهد فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ٢٦/ ١٢/ ٢٣ هـ ولقد سمي عمر باسمه وكني أيضاً أبا حفص وأبا خطاب.

نشأ في المدينة في أسرة غنية غير محتاجة إلى طلب الرزق، فوفر وقته على التمتع بالنعيم والتنقل بين الحجاز واليمن والعراق والشام، وكانت له صناعة للنسيج والتجارة به، وشب عمر مثقفاً يعرف العلوم التي كانت مألوفة في عصره من تفسير وحديث وفقه وأدب وكان يعرف القراءة والكتابة، ويظهر من ديوان شعر عمر أنه قضى قسماً كبيراً من عمره منصرفاً إلى اللهو ومشتغلاً بالتعرف إلى النساء الجميلات المشهورات.

وقد أشاع خوضه في ذكر النساء والحديث عن مغازلتهن، الأمور التي كانت الآداب والأخلاق تفرض عدم إثارتها، فاستحق الشاعر سخط المحافظين وأهل الوقار من بني قومه، ونفي الشاعر إلى جزيرة «وهلك» في البحر الأحمر، ولم يعد إلا بعد ما أقسم أن يُقْلِع عن صبوته وقد بر بقسمه، توفي في سنة ٩٣ هـ.

عمر أشهر شعراء الغزل ومن أكابرهم، لم يكن في الحجاز من يتقدم جميل بن معمر وعمر بن أبي ربيعة في النسيب، وكان عمر يميل إلى تخيُّر الألفاظ الفصيحة.

وفي شعر عمر شيء من الصناعة اللفظية غير مقصودة ولا بارعة وكان صادقاً في التعبير عن نفسه، عذب الشعر، والقصص والحوار الصحيح خاصتان بارزتان في شعر عمر وهما في الغزل خاصة، وعمر قصر شعره كله في الغزل، وكل قصيدة لعمر موضوع تام في نفسه.

وأشهر قصائد عمر وأحسنها وأصدقها تمثيلاً لطريقته قصيدته الرائية، وفيها الوصف والحوار الغزلي، يقول عمر بن أبي ربيعة:

أَلِكْني إليها بالسَّلام فإنَّني ... يُشَهِّرُ إلمامي بها ويُنكِّرُ
بآيةِ ما قالتْ غَدَاةَ لَقِيتُها ... بِمَدْفَعِ أكنانٍ، أهذا المُشَهَّرُ
قِفي فانْظُري، أسماء هل تعرفينه ... أهذا المُغِيريُّ الذي كان يُذْكَرُ؟

أهذا الذي أَطْرَيْتِ نَعْتاً فلم أَكُنْ ... وعَيْشِكِ ، أنساهُ إلى يَوْم أُقْبَرُ
فقالتْ: نَعَمْ ، لا شكَّ غَيَّرَ لَوْنَهُ ... سُرى الليلِ يُحْيي نَصَّهُ والتَّهَجُّرُ
لَئِن كانَ إياهُ لقد حالَ بَعْدَنا ... عن العهدِ ، والإنسانُ قد يَتَغَيَّرُ
رأَتْ رَجُلاً أما إذا الشَّمْسُ عارَضَتْ ... فَيَضْحَى وأمَّا بالعَشيِّ فَيَخْصَرُ
أخا سَفَرٍ جوَّابَ أرضٍ تقاذَفَتْ ... به فَلَواتٌ فهو أَشْعَث أَغْبَرُ
قليلاً على ظَهْرِ المَطِيَّةِ ظِلُّهُ ... سوى ما نَفَى عنه الرِّداءُ المُحَبَّرُ
وَأَعْجَبَها مِنْ عَيْشِها ظِلُّ غُرْفَةٍ ... وريَّانُ مُلْتَفُّ الحدائقِ أَخْضَرُ
ووالٍ كَفاها كُلَّ شيءٍ يَهُمُّها ... فليستْ لشيءٍ آخرَ الليلِ تَسْهَرُ

ويقول أيضاً:

وَبِتُّ أَناجي النفسَ أين خِباؤها ... وكيف لِما آتي مِنَ الأمرِ مَصْدَرُ
فَدَلَّ عليها القلبُ رَيَّا عَرَفْتُها ... لها وَهوى النَّفْسِ الذي كاد يَظْهَرُ
فلمَّا فَقَدْتُ الصَّوتَ منهمْ وأُطْفِئَتْ ... مَصابيحُ شُبَّتْ بالعِشاءِ وأَنْؤُرُ
وغَابَ قُمَيْرٌ كنتُ أَهوى غُيوبَهُ ... ورَوَّحَ رُعيانٌ ونَوَّمَ سُمَّرُ
وخُفِّضَ عنِّي الصوتُ أقبلتُ مشيةَ الـ ... ـحُبابِ وشَخْصي خشيةَ الحيِّ أَزْوَرُ
فَحَيَّيْتُ إذ فاجأْتُها فَتَوَلَّهَتْ ... وكادتْ بمكنونِ التَّحيةِ تَجْهَرُ
وقالتْ وعضَّتْ بالبَنَانِ: فَضَحْتِني ... وأنتَ امرؤٌ ميسورُ أمرِك أَعْسَرُ
أَرَيْتَكَ إذْ هُنَّا عليك ، ألم تَخَفْ ... رقيباً؟ وحولي مِنْ عَدُوِّكَ حُضَّرُ
فواللهِ ما أدري ، أَتَعْجيلُ حاجةٍ ... سَرَتْ بك ، أَمْ قَدْ نَامَ من كُنْتَ تَحْذَرُ
فقلتُ لها: بل قادني الشَّوقُ والهوى ... إليكِ وما نَفْسٌ من الناس تَشْعُرُ
فقالتْ وقد لانتْ وأفرخ رَوْعُها ... كَلاكَ بِحِفْظٍ رَبُّكَ المُتَكَبِّرُ

الغزل العام:

وكان ذلك بالإضافة إلى الغزل العام الذي قدم فيه الشعراء شعراً رقيقاً جزلاً ، وأجادوا إجادة في أسلوب متلائم مع حياة هذا العصر الراقي ، ولقد اشتهر فيه من الشعراء: عدي بن الرقاع العاملي ، وذو الرمة ، والعرجي ، وعروة بن أذينة.

وأما **عدي بن الرقاع العاملي**، فهو أبو داود عدي بن زيد بن مالك بن عدي الرقاع ، وكان أبرص ، وكان من أهل دمشق منقطعاً إلى بني أمية ثم إلى الوليد بن عبد الملك خاصة .

وكان عدي شاعراً مقدماً عند بني أمية مداحاً لهم وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم ، وكان يعنى بتنقيح شعره ، وهو حسن التشبيه جيد القول في الوصف وفي الغزل مع شيء من المجون ، وكان يحسن المديح والهجاء توفي في نحو سنة ٩٦ هجرية .

يقول عدي بن الرقاع العاملي :

وممَّا شَجَاني أَنَّني كنتُ نائماً   أُعَلِّلُ من فَرْطِ الكَرَى بالتنسُّمِ
إلى أَنْ بَكَتْ ورقاءُ في غُصْنِ أَيْكَةٍ   تُرَدِّدُ مَبْكاها بحُسْنِ التَّرَنُّمِ
فلو قبل مبكاهَا بَكَيْتُ صَبابةً   بسعدى شفيتُ النفسَ قبل التَّندم
ولكنْ بَكَتْ قبلي فهاجَ ليَ البُكا   بُكاها ، فقلتُ الفَضْلُ للمتقدِّمِ

أما **ذو الرمة** ، فهو أبو الحارث غيلان بن عقبة من بني عدي بن عبد مناة بن أد ، وأمه امرأة من بني أسد يقال لها ظبية ، وسمي ذا الرمة (الحبل القصير)؛ لأنه وصف وتداً قديم العهد لا تزال عليه قطعة من الحبل وتهرأت أيضاً ، ولد سنة ٧٧ هجرية ونشأ في البادية ، ولكنه كان كثير الترداد إلى الكوفة والبصرة ، وقد ذكروا في صفته أنه كان قصيراً بخيلاً أسود دميماً ، على أنه كان فطناً خبيراً بالأمور فصيحاً يخط ويقرأ ، وكان رصيناً عفيفاً تقياً ، وكان يعلّم الكتابة والقراءة في البادية .

أحب ذو الرمة ميّة بنت مقاتل بن طلبة المنقري ، وكانت على جانب من الجمال ، ولكنها كانت متقدمة السن ، ولقد تغزل بها ذو الرمة عشرين سنة من غير أن ينال منها منالاً ، وأحب امرأة شابة اسمها خرقاء العامرية ولم يطل ذلك ، وتوفي في ١١٧ هجرية .

وذو الرمة شاعر مكثر مطيل مجيد مشهور ، وشعره متفاوت في الجودة ،

وهو بدوي الشعر ، وكان يكره نفسه عليه ، وعلماء العربية يهتمون بشعره لمَا فيه من الكلمات الغريبة والكلمات النادرة في الاستعمال .

يقول ذو الرمة :

وَقَفتُ على رَبْعٍ لِمَيَّةَ ناقتي   فما زِلتُ أبكي عندَه وأُخاطِبُهْ
فيالَكَ من خدٍّ أَسِيلٍ ومَنْطِقٍ   رَخِيمٍ ومِنْ خَلْقٍ تَعَلَّلَ جادِبُهْ
أَلَا لا أرى مثلَ الهوى داءَ مُسْلِمٍ   كريمٍ ولا مثلَ الهوى لِيمَ صاحِبُهْ

ويقول :

إذا هَبَّتِ الأرواحُ من نَحْوِ جانبٍ   به أهلُ ميٍّ هاج شوقي هُبوبُها
هَوًى تَذْرِفُ العينانِ منهُ وإنَّما   هَوى كُلِّ نفسٍ حيثُ حَلَّ حَبِيبُها

وقال أيضاً :

لها بَشَرٌ مثلُ الحَريرِ ومَنْطِقٌ   رَخِيمُ الحواشي لا هُراءٌ ولا نَزْرُ
وعينانِ قال اللهُ كونا فكانتا   فَعُولانِ بالألبابِ ما تفعلُ الخَمْرُ

وعروة بن أذينة، اسمه يحيى بن مالك أحد بني ليث بن بكر بن عبد مناة ، ويكنى عروة بن أذينة أبا عامر ، وهو شاعر غزل مقدم من شعراء المدينة ، وهو معدود في الفقهاء والمحدثين ، روى عنه مالك بن أنس وهو القائل :

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خُلُقي   أنَّ الذي هو رِزْقي سوف يَأْتيني
أسعى إليهِ فَيُعَنِّيني تَطَلُّبُه   ولو جلستُ أتاني لا يُعَنِّيني

من أبيات طويلة ولها حكاية بليغة بينه وبين هشام بن عبد الملك تُطلب من كتب الأدب ، وله غزل رقيق ورثاء بارع وحكمة كثيرة ، توفي في سنة ١٣٠ هـ .

يقول عروة بن أذينة :

إنَّ التي زَعَمَتْ فؤادَكَ مَلَّها   خُلِقَتْ هَواكَ كما خُلِقْتَ هَوًى لها
بيضاءُ باكرها النَّعيمُ فَصاغَها   بلباقةٍ ، فأَدَقَّها وأَجَلَّها
حَجَبَتْ تَحِيَّتَها فقلتُ لصاحِبي   ما كانَ أَكْثَرَها لَنا وأَقَلَّها
وإذا وَجَدْتَ لها وَساوِسَ سَلْوَةٍ   شَفَعَ الضَّميرُ إلى الفؤادِ فَسَلَّها

ويقول أبو صخر الهذلي: وهو عبد الله بن مسلم السهمي الهذلي ، وكان من أنصار بني أمية وكان شاعراً غزلاً رقيقاً فصيح الألفاظ سهل التراكيب واضح المعاني ، على شعره أثر الإسلام والقرآن وكانت له قدرة في النثر أيضاً.

أَمَا والذي أبكى وأضحكَ والذي أماتَ وأحيا والذي أَمْرُهُ الأمرُ
لقد تَرَكَتْنِي أَحْسدُ الوحشَ أنْ أرى أَلِيفَيْنِ منها لا يَرُوعُهُما الذُّعْرُ
فَيا هَجْرَ لَيْلَى قد بَلَغْتَ بيَ المَدَى وزِدْتَ على مَا لَم يكنْ بَلَغَ الهَجْرُ
ويا حُبَّها زِدْني جَوى كلَّ ليلةٍ ويا سَلْوَةَ الأيام ، مَوْعِدُكَ الحَشْرُ
عَجبتُ لسعي الدَّهْرِ بيني وبينها فلمَّا انقضى ما بَيْنَنا سَكَنَ الدَّهْرُ
وإنَّني لآتيها وفي النَّفسِ هَجْرُها بَتاتاً لأخرى الدَّهرِ ما وَضَحَ الفجرُ
فما هُوَ إلاَّ أن أراها فجاءةً فَأُبْهَتُ لا عُرْفٌ لديَّ ولا نُكْرُ

وقال نُصَيْب الأكبر: وهو نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان ، كان شاعراً فحلاً فصيحاً مقدماً في النسيب والمديح ، عفيفاً لم ينسب بامرأة قط ، وكان كبير النفس ذا مكانة عند الملوك ، يجيد مديحهم ومراثيهم وشهد له أهل وقته بالإجادة والتقدم ، وله شعر سهل ممتنع سائغ عذب رائع كأنه اللؤلؤ الرطب ، وكان عبداً رقيقاً نوبياً شديد السواد عاش على الرق زماناً ، ثم كاتب على نفسه فصار حراً ، توفي في سنة ١٠٥ هـ.

لقد هتفتْ في جُنْحِ ليلٍ حمامةٌ على فَنَنٍ وَهْناً وإنِّي لنائمُ
فقلتُ اعتذاراً عندَ ذاكَ وإنَّني لنفسي ممَّا قَدْ رأته للائمُ
أأزعمُ أنِّي هائمٌ ذو صبابةٍ لسعدي ولا أبكي وتبكي الحَمائمُ
كذبتُ وبيتِ الله لو كنتُ عاشقاً لما سَبَقَتْنِي بالبكاءِ الحَمَائمُ

* * *

الفصل الثاني
أغراض أخرى

شعر السياسة والدين :

ولقد برز في شعر هذا العهد نوع جديد ، وهو شعر السياسة والدين ، وذلك بتأثير أسباب ذكرناها فيما سبق ، فكان في الشعراء من يوالون علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويمزجون أفكارهم السياسية بالروح الدينية ، وكان فيهم من يخضعون لعقيدة الخوارج ويمزجون أيضاً السياسة بالروح الدينية ، وكان فيهم من يوالون بني أمية في سياستهم ورأيهم في الحكم والخلافة ، وكان فيهم أيضاً من يوالي عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، وهو الذي حكم الحجاز لمدة من الزمن معارضاً للحكومة الأموية .

ومن فحول الشعراء الموالين لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه الكُميت بن زيد الأسدي وهو يقول في مدح آل البيت :

طَرِبْتُ ، وما شوقاً إلى البِيْضِ أطربُ ... ولا لَعِباً مني ، وذو الشَّوقِ يلعبُ
إلى النَّفَرِ البيضِ الذين بِحُبِّهم ... إلى الله فِيما نابَنِي أتقرَّبُ
بنِي هاشِمٍ رَهْطِ النَّبي ، فإنَّني ... بهم ولهم أَرْضَى مِراراً وأَغْضَبُ
خَفَضْتُ لهم مني جَنَاحَ مَودَّةٍ ... إلى كَنَفٍ عِطْفَاه أَهْلٌ ومَرْحَبُ
إليكُم ذوي آلِ النَّبي تَطَلَّعَتْ ... نَوَازِعُ من قلبي ظِماءٌ وأَلْبَبُ
فإنِّي عن الأمرِ الذي تكْرَهُونَهُ ... بِقولي وفعلي ـ ما استطعتُ ـ لأَجْنَبُ
يُشِيرُون بالأيدي إليَّ ، وقَوْلُهم ... أَلَا خابَ هذا ، والمُشِيرُون أَخْيَبُ

فطائفةٌ قد أكْفَرتني بحبِّكُم ... وطائفةٌ قالوا: مُسِيءٌ ومُذْنِبُ
فما سَاءني تكْفِيرُ هاتيكَ منهمُ ... ولا عَيْبُ هاتيكَ التي هي أعْيَبُ

ومنهم كُثيِّر بن عبد الرحمن ، وهو يقول :

أَلَا إنَّ الأئمةَ من قُريشٍ ... ولاةَ الحقِّ أربعةٌ سواءُ
عليٌّ والثلاثةُ من بَنِيهِ ... هُمُ الأسباطُ ليس بهم خفاءُ
فَسَبْطٌ سِبطُ إيمانٍ وبِرٍّ ... وسِبْطٌ غَيَّبَته كَرْبَلاءُ
وسِبْطٌ لا تراه العينُ حتى ... يقودَ الخيلَ يَقْدَمُها اللواءُ
تَغَيَّب ، لا يُرى ، عَنْهُمْ زماناً ... بِرَضْوى عنده عَسَلٌ وماءُ

ومن فحول الشعراء الخاضعين لفكرة الخوارج الطِّرِمَّاح بن الحكيم وهو يقول تحت عاطفته الدينية الخارجية في الحماسة :

وإنِّي لمقتادٌ جَوادي فقاذِفٌ ... بهِ وبنفسي ، العامَ ، إحدى المَقَاذِفَ
لأكسِبَ مالاً أو أَؤُولَ إلى غِنًى ... من اللهِ يَكْفِيني عُدَاةَ الخَلائِفِ
فيا ربِّ ، إنْ حانتْ وَفَاتي فلا تكُنْ ... على شَرْجَعٍ يُعْلَى بخضرِ المطارِفِ
ولكنَّ قَبري بطنَ نَسْرٍ مَقِيلُه ... بجوِّ السَّماءِ في نُسورٍ عَوَائِفِ
وأمسي شَهيداً ثَاوياً في عصابةٍ ... يُصابونَ في فَجٍّ من الأرضِ خائفِ
فوارس من شَيبان أَلَّفَ بينهم ... تُقى اللهِ نَزَّالونَ عندَ التَّزَاحُفِ
إذَا فارقُوا دُنْيَاهُمْ فارَقُوا الأذى ... وَصَارُوا إلى مِيعادِ ما في المَصَاحِفِ

أما الذين ناصروا بني أمية في فكرهم السياسي فكان عددهم كبيراً لاتساع دولتهم وامتدادها لمدة طويلة ، وانتقل إلى موالاتهم عدد من الشعراء الذين كانوا ضدهم في بدء الأمر ، ومن نماذج هذا النوع من الشعر ما يلي :

يقول كعب بن جعيل التغلبي في تأييد بني أمية :

أرى الشَّامَ تكرهُ ملكَ العراقِ ... وأهلُ العراقِ لهُم كارِهُونا
وكُلٌّ لِصاحِبه مُبْغِضٌ ... يَرَى كُلَّ ما كانَ ذَاكَ دينا
إذا ما رَمَونا رَمَيْنَاهُم ... دِنَّاهُم مثلَ ما يفرضُونا
وقالُوا: عليٌّ إمامٌ لَنَا ... فَقُلْنَا رَضِينا ابنَ هندٍ رَضِينا

وقـالُـوا: نَـرَى أن تَـدِينُـوا لنـا ... فَقُلْنَـا لَهـم: لا نَـرَى أن نَـدِينـا

ومِـنْ دُونَ ذلـكَ خَـرْطُ القَتَـادِ ... وَطَعْـنٌ وضَـرْبٌ يقـرُّ العُيـونـا

وكُـلٌّ يسـرُّ بمـا عِنْـدَهُ ... يَـرَى غَـثَّ مـا فِـي يـديـهِ سَمِينـا

ومـا فـي علـيٍّ لمستعتـب ... مقـالٌ سِـوى ضمّـه المُحْـدَثِينـا

وإيثـاره اليـومَ أهـلَ الـذُّنُـوبِ ... ورَفْـع القصـاصِ عـن القَـاتِلينـا

ويقول مسكين الدارمي في ترشيح يزيد للخلافة ، ومسكين الدارمي هو ربيعة بن عامر بن أنيف من بني دارم من تميم ، تهاجى مع الفرزدق زمناً ، ثم انصرف عن ذلك ، وهو شاعر مجيد شريف رقيق اللفظ حسن المعنى واضح الغاية ، ولكنه مقلّ ، وهو الذي اقترح بشعره على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما بتولية يزيد ، كانت وفاته في نحو ٩٠ هـ.

أَلَا لَيتَ شِعْري ، ما يقولُ ابنُ عامرٍ ... ومـروانُ أمْ مـاذا يقـولُ سَعِيـدُ

إذا المِنْبَـرُ الغَـربـيُّ خَـلَّاه رَبُّـه ... فـإنَّ أميـرَ المـؤمنيـنَ يَـزيـدُ

على الطائرِ الميمونِ والجدُّ صاعِدٌ ... لكـلِّ أنـاسٍ طـائـرٌ وجُـدُودُ

فلا زِلْتَ أَعلى الناسِ كَعْباً ولا تَزَلْ ... وفـودٌ تُسـامِيهـا إليـكَ وُفُـودُ

وَلا زَالَ بيتُ المُلْكِ فوقَكَ عالياً ... تُشَـدَّدُ أطْنـابٌ لَـهُ وعَمُـودُ

شعـر الأدب والـحكمـة والـحـماسـة :

ولمسكين الدارمي في الأدب والحكمة :

وَفِتيانُ صدقٍ لستُ مُطْلِعَ بعضهمْ ... على سِرِّ بعضٍ ، غير أنِّي جِماعُها

يَظَلُّونَ شتَّى في البلاد وسِرُّهم ... إلى صخرةٍ أعيا الرِّجالَ انْصِدَاعُها

لكلِّ امرىءٍ شعبٌ من القلب فارغٌ ... وموضـعُ نَجْوَى لا يُـرامُ اطِّلَاعُهـا

وفي الأدب والحكمة يقول المقنَّع الكندي أيضاً.

والمقنع لقب غلب عليه ، واسمه محمد بن ظفر بن عمير ، ينتهي نسبه إلى كندة بن عفير ، وإنما لقب بالمقنع لأنه كان أجمل الناس وجهاً ، وكان يقنع وجهه لئلا تصيبه العين ، وهو شاعر مقلّ من شعراء عهد بني أمية ، وكان له محل وشرف ومروءة وسؤدد في عشيرته ، وكان متخرقًا في عطاياه ،

سمح اليد بماله لا يردُّ سائلاً ، حتى تلف ماله في ذلك. ثم إن المقنع أحب ابنة عمه فخطبها من إخوتها فرفضوا وعيروه بالفقر ، توفي في عهد عبد الملك بن مروان.

يُعاتِبني في الدَّيْنِ قَوْمِي وإنَّما ... دُيُونِي في أشياءَ تُكْسِبُهم حَمْدا
أسدُّ به ما قد أخَلُّوا وضيَّعوا ... ثُغُورَ حُقوقٍ ما أطاقُوا لها سَدّا
وفي جَفْنةٍ ما يُغْلَقُ البابُ دُونَها ... مُكَلَّلَةٍ لحماً مدفَّقَةٍ ثُرْدَا
وفي فَرَسٍ نَهْدٍ عَتِيقٍ جَعَلْتُه ... حِجاباً لِبَيْتِي ثمَّ أَخْدَمْتُه عَبْدا
وإنَّ الذي بيني وبينَ بني أبي ... وبينَ بني عَمِّي لمختلفٌ جِدّا
فإنْ أَكَلُوا لحمي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وإنْ هَدَمُوا مَجْدِي بنيتُ لهم مَجْدا
وإنْ ضيَّعُوا غَيْبي حفظتُ غُيُوبَهُمْ ... وإنْ هُمْ هَوُوا غَيِّي هويتُ لهم رشْدَا
وإنْ زَجَروا طيراً بنحسٍ تَمُرُّ بي ... زجرتُ لهم طيراً تمرُّ بِهم سَعْدا
ولا أَحْمِلُ الحقدَ القديمَ عليهمُ ... وليسَ رئيسُ القوم مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدا
لهمْ جُلُّ مالي إنْ تتابَعَ لي غِنًى ... وإنْ قلَّ مالي لَم أُكَلِّفْهُمُ رِفْدا
وإنِّي لعبدُ الضَّيفِ ما دامَ نازلاً ... وما شيمةٌ لي غيرَها تُشْبِهُ العَبْدَا

وقال سعد بن ناشب: وهو شاعر إسلامي في الدولة المروانية ، من بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، وسبب هذه الأبيات أنه كان أصاب دماً فهدم بلال بن أبي بردة داره بالبصرة وحرقها ، وقيل إن الحجاج هو الذي هدم داره.

سأغسلُ عنِّي العارَ بالسَّيفِ جالباً ... عليَّ قَضَاءَ الله ما كانَ جَالِبا
وأَذْهَلُ عن دَاري وأجعلُ هَدْمَها ... لِعِرْضِي من باقي المَذَمَّةِ حاجبا
ويَصْغُرُ في عَيْني تِلادي إذا انْثَنَتْ ... يميني بإدراكِ الذي كُنتُ طالبا
فإن تَهْدِمُوا بالغدرِ داري فإنَّها ... تُراثُ كريمٍ لا يُبالي العوَاقبا
أخي غمراتٍ لا يريدُ على الذي ... يَهُمُّ به من مفظعِ الأمرِ صاحبا
إذا هَمَّ لم تُرْدَعْ عزيمةُ هَمِّهِ ... ولم يأتِ ما يأتي من الأمر هائبا
فيا لِرِزَامٍ رَشِّحُوا بي مُقَدِّماً ... إلى الموتِ خَوَّاضاً إليه الكَتائبا

إذا هَمَّ ألقَى بينَ عينيهِ عَزْمَهُ وَنكَّبَ عن ذِكْرِ العواقبِ جانبا
ولم يَسْتَشِرْ في رأيه غيرَ نَفْسِهِ ولم يَرْضَ إلاَّ قائِمَ السَّيفِ صاحبا

وقال قطري بن الفجاءة في الحماسة: وقطري بن الفجاءة هو أبو نعامة ابن مازن بن زيد بن مناة كان من الخوارج الأزارقة ، و كان قائدًا زعيماً لهم وكان فارساً شجاعاً وكان خطيباً شاعراً ، أما شعره فكان في الحماسة والاستهانة بالموت متين السبك شديد الأسر ، أما خطبه فهي في الحث على التقوى والرغبة عن الدنيا ، سقط قتيلاً في سنة ٧٨ هـ.

أقولُ لها وقد طارتْ شُعَاعاً من الأبطالِ ويحكِ لنْ تُراعي
فإنَّكِ لو سألتِ بقاءَ يوم على الأجلِ الذي لكِ لم تُطاعي
فصبراً في مجالِ الموتِ صبراً فما نَيْلُ الخُلودِ بمستطاعِ
ولا ثوبُ البقاء بثوبِ عزٍّ فَيُطْوَى عن أخي الخنعِ اليراعِ
سبيلُ الموتِ غايةُ كلِّ حيٍّ فداعيه لأهلِ الأرضِ داعِ
ومن لا يعتبطْ يسأمْ ويهرمْ وتُسْلِمُهُ المنونُ إلى انقطاعِ
وما للمرءِ خيرٌ في حياةٍ إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المَتَاعِ

الرجز:

الرجز نوع من الشعر بدأه العرب في جاهليتهم كانوا يصوغون صدوره وأعجازه على رويّ واحد ، والرجز أقدم الأوزان العربية وأسهل أنواع الشعر وأقلها تكلُّفاً ، ويبدو أنه كان سجعاً تطور إلى الشعر ، وهو بحر تفاعيله: مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن.

وتسمى قصيدة الرجز بالأرجوزة وقد استخدمها الشعراء في عهد بني أمية لأغراض شعرية مختلفة ، واعتنى اللغويون بالرجز لاحتوائه على مادة لغوية كثيرة ، واشتهر في رجز هذا العهد العجاج بن رؤبة وأبو الأغلب العجلي وأبو النجم.

ومن نماذجه ما يقوله أبو النجم الراجز في أرجوزته المشهورة التي أعجبت أهل البصيرة بالأدب العربي ، يقول عنها ابن قتيبة إنها أجود أراجيز

العرب ، وأبو النجم : هو الفضل (أو المفضل) بن قدامة العجلي من بني ربيعة من بكر بن وائل ، ولد سنة ٤٠ هـ وكان مسكنه في ضواحي الكوفة ، وكان يأوي إلى المساجد ، اتصل ببني أمية في أيام عبد الملك ومدح الحجاج أيضاً ، وأبو النجم من رجاز الإسلام الفحول المقدمين المشهورين ، وكان مكثراً يقول رجزاً وقصيدة فيجيد ، غير أن شعره متفاوت فيه الجيد والرديء ، توفي سنة ١٢٠ هـ.

الحمدُ للهِ الوَهُوبِ المُجْزِلِ
أَعْطَى فَلَمْ يَبْخَلْ ولم يُبَخَّلِ
كُوْمَ الذُّرى مِنْ خَوَلِ المخوِّلِ
تَبَقَّلَتْ مِنْ أَوَّلِ التبقُّلِ
بينَ رماحي مالكٍ ونَهْشَلِ
يَدْفَعُ عنها العِزُّ جَهْلَ الجُهَّلِ
حتى إذا الشمسُ بدتْ للقُيَّلِ
بالنّصفِ من حيثُ غدتْ والمنزلِ
جاءتْ تَسامَى في الرَّعيلِ الأولِ
والظلُّ عن أَخْفَافِها لم يَفْضُلِ
مائرةَ الأيدي طِوالَ الأَرْجُلِ
يَهْدِي بها كُلُّ نِيافٍ عَنْدَلِ
لو جُرَّ شنٌّ وسطَها لَمْ تَحْفَلِ
مِنْ شَهْوَةِ الماءِ ورزٌّ مُعْضَلِ

* * *

الفصل الثالث

شعر النقائض

أما في الشعر الجدلي الشخصي والقبلي الذى ظهرت فيه المنازعات الشخصية والمهاترات الفردية والقبلية ، فلقد اشتهر فيه ونبغ نبوغاً ظاهراً ثلاثة شعراء وهم: الأخطل ، وجرير ، والفرزدق ، وكان من الدواعي الحقيقية في هذه المناقضات خصومات فردية ، أو انتماءات قبلية مختلفة ، إنها وجدت في جو الخصومات السياسية والمذهبية السائدة في هذا العهد حافزًا لظهورها ، فقد كان الأخطل تغلبياً ومسيحياً ، وقبيلة تغلب من ربيعة وقبائل ربيعة ، كانت تتعصب ضد قبائل مضر واليمن ، وكانت مسيحية الأخطل تحرك عصبية المعارضة للمسلمين ، وهي التي ساعدته في قيامه بهجاء للأنصار رضي الله عنهم ، أما تأييده لبني أمية فلكونهم حاكمين يملكون النفع والضرر.

وكان الفرزدق وجرير من قبيلة تميم من أسرتين مختلفتين ، وكانت تميم قبيلة مضرية تميل إلى بني هاشم لكون الرسول ﷺ منهم ولكن جريراً مال إلى رجال الحكم من بني أمية ليستعين بذلك في دعم مكانته ، وهو من أسرة ضعيفة المركز في تميم ، بالنسبة إلى أسرة الفرزدق ، ذات مآثر معروفة لأعيانها وبالإضافة إلى الفوارق النسبية ، هذا وكانت مصالح وأحداث فردية أيضًا تعمل في تسعير حرب المناقضات التي اتسعت فشملت عشرات من شعراء هذا العصر ، وكانت تعمل فيها حساسيات مختلفة.

وكان جرير والفرزدق بطلي هذا القسم من الشعر ، وانقسم إليهما جميع شعراء عصرهما ، فمنهم من كان يناصر جريراً ويعارض خصومه ، ومنهم من كان يعارضه ويناصر الفرزدق ، وأخذ هذان الشاعران وأتباعهما من ورائهما يترامون بالشعر فيما بينهما ، ويتفاخرون ويتهاجون ، وأبدوا في ذلك مهارتهم الأدبية ، فحصل منه شعر قوي كثير ، ولئن كان في باب المناقضات بعض السوء من مهاترات غير لائقة فإنها كانت سبباً لإدرار القرائح وإنتاج أدب شعري زاخر بليغ أيضاً ، ولقد فاق في بعض نواحيه الفرزدق وبرز على خصمه جرير ، وفاق جرير في أخراها على خصمه الفرزدق وخصومه الآخرين ، وأكثر شعرهما في المناقضات ، وقد جمع هذا الشعر في كتاب وطبع على انفراد .

اقرأ على سبيل المثال قصيدة الفرزدق التي مطلعها :

إنَّ الـذي سَمَـكَ السَّمَـاءَ بَنَـى لَنَـا ... بيتـــاً دَعَـــائِمُــــه أعـــزُّ وأَطْـــوَلُ

إلى أن يقول :

بيتـــاً زُرَارةُ مُحْتَـــبٍ بفنـــائِـــهِ ... ومُجَـاشِـعٌ وأبـو الفـوارس نَهْشَـلُ

لا يَحْتَبِـي بفنــاءِ بَيْتِــكَ مِثْلُهُــمْ ... أبــداً إذا عُــدَّ الْفَعَــالُ الأَفْضَــلُ

فيجيبه جرير في نقيضة لها :

أَخْزَى الذي سَمَكَ السَّماءَ مُجَاشِعاً ... وَبَنَى بناءَكَ في الحضيضِ الأسفلِ

بيتــاً يُحَمِّــمُ قينُكــم بفنــائــه ... دَنِسـاً مقـاعِـدُهُ خَبيثَ المـدخـلِ

قُتِلَ الـزُّبيـرُ وأنـت عـاقـدُ حبـوة ... تبّـاً لحبـوتـك التـي لـم تحلـلِ

ويقول الفرزدق :

حُلَـلُ الملـوكِ لِبـاسُنـا فـي أَهْلِنـا ... والسَّـابِغـاتِ إلى الـوَغَـى نَتَسَـرْبَـلُ

فيجيبه جرير :

لا تَـذْكُـروا حُلَـلَ الملـوكِ فـإنّكُـمْ ... بعـد الـزُّبيـرِ كحـائـضٍ لـم تُغْسَـلِ

ويقول الفرزدق :

أَحْــلامُنــا تَــزِنُ الجِبــالَ رَزَانــةً ... وتَخــالُنــا جِنّــاً إذا مــا نَجْهَــلُ

فـادْفَـعْ بِكَفِّـكَ إن أَرَدْتَ بنـاءنـا ... ثَهْلاَنَ ذا الهَضَبـاتِ هـل يَتَحلْحَـلُ
خَالي الذي غَصَبَ الملوكَ نُفُوسَهُمْ ... وإليـه كـان حِبـاءُ جَفْنَـةَ يُنْقَـلُ
إنَّـا لَنَضْـرِبُ رأسَ كُـلِّ قبيلـةٍ ... وأبـوكَ خَلْـفَ أَتَـانِـهِ يَتَقَمَّـلُ

فيجيبه جرير:

كَـانَ الفـرزدقُ إذ يعـوذُ بخـالِـه ... مثـلَ الـذَّليـلِ يعـوذُ تحتَ القَرْمَلِ
وافخـرْ بضبَّـةَ إنَّ أُمَّـكَ منهـم ... ليـسَ ابـنُ ضَبَّـةَ بـالمُعِم المُخْـولَ
أبلـغْ بنـي وَقْبـان أنَّ حُلُـومَهـم ... خَفَّـتْ فَـلا يَـزنـونَ حبـةَ خَـرْدلِ
أعـددتُ للشُّعـراءِ سُمَّـاً نـاقِعـاً ... فسقيـتُ آخـرَهـم بكـأسِ الأولِ
لما وضعتُ على الفرزدق مَيْسمي ... وضَغَى البعيثُ جدعت أَنْفَ الأخطلِ

ويقول في الأخطل وكان يسمى بدَوْبل كذلك ومعناه الخنزير:

بَكَـى دَوْبَـلُ لا يُـرْقـىء اللهُ دَمْعَـهُ ... أَلاَ إنَّمـا يَبكِـي مـن الـذُّلِّ دَوْبَـلُ

ويقول الأخطل في مدح نفسه وهجاء جرير:

أَنَّـا نُجَعِّـلُ بـالعَبيـط لِضَيْفِنـا ... قَبْـلَ العِيـالِ ونَقْتُـلُ الأَبْطَـالا
أَبَنِـي كُلَيْـبٍ ، إنَّ عمَّـيَّ اللَّـذا ... قَتَـلا الملـوكَ وفَكَّكـا الأَغْـلالا

ويقول:

ولَقَد جَشِمْتَ ، جريرُ ، أمراً عَاجزاً ... ووهبـتَ سـوءةَ أُمِّـكَ الجُهَّـالا
فانْعَقْ بِضَأْنِكَ ، يا جريرُ ، فإنَّما ... مَنَّتْكَ نفسُك في الخَلاءِ ضَلالا
مَنَّتْـكَ نفسُـك أن تكـونَ كـدارمٍ ... أو أنْ تُـوازِنَ حـاجِبـاً وعِقـالا
وإذَا وضعـتَ أبـاكَ فـي ميزانِهـم ... قفـزتْ حـديـدتُـه إليـكَ فَشَـالا

ويقول جرير:

يـاذَا العَبَـاءةِ إنَّ بِشْـراً قـد قَضَـى ... أَلاَّ تَجُـوزَ حُكُـومَـةُ النَّشْـوانِ
فَدَعُوا الحكومةَ لَستم من أَهْلِهَا ... إنَّ الحُكُـومَـةَ فـي بَنـي شَيْبَـانِ
قَتَلُـوا كُلَيْبَكُـمْ بِلَقْحَـةِ جـارِهـم ... يـا خُـزْرَ تَغْلِـبَ لستُـم بِهِجَـانِ

هؤلاء الشعراء الثلاثة أعظم شعراء عصرهم. وقد قال أبو عبيدة: أجمع الناس على أن أشعرهم في الإسلام ثلاثة: الفرزدق وجرير والأخطل ، وذلك

أنهم أعطوا حظاً في الشعر لم يعطه أحد غيرهم في الإسلام ، مدحوا قوماً فرفعوهم ، وذموا قوماً فوضعوهم ، وهجاهم قوم فردوهم وأفحموهم ، وهجاهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عنهم وعن الرد عليهم فأسقطوهم ، وقد شغلوا أذهان الناس في عصرهم ، وكان شعرهم زاداً أدبياً ثميناً .

الأخطل

أما الأخطل فهو أبو مالك غياث بن غوث التغلبي كان من قبيلة تغلب ، وهي قبيلة ذات شجاعة وحمية وفخر ، وعرفت في الجاهلية وفي الإسلام بهذه الخصائص ، وامتاز تاريخها بأعمال متسمة بذلك ، فورث الأخطل الحمية والاعتزاز بنفسه منها ، وكان نصرانيّاً فلم يكن ملتزماً بالآداب الإسلامية ولم يكن يراعيها إلا في الحدود التي تفرض عليها السياسة ولاءه للأمويين ، فقد كان موالياً للأمويين يؤيدهم ويمدحهم وينال منهم الجزاء ، وقد قام بالطعن على السادة الأنصار لما وقعت مغاضبة بين يزيد بن معاوية ولي العهد وعبد الرحمن بن سيدنا حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه فاستحق سخط المسلمين وكراهيتهم له لتعرضه لعرض رجل من الكرماء الأجلاء من المسلمين ، وكان مجاهراً بشرب الخمر وقد يأتي بما يكرهه المجتمع الإسلامي ويتفق مع ميوله الإباحية .

ومع ذلك كان شاعراً قوي الأسلوب ، يمتاز بإجادة المدح ونعت الخمر وقلة البذاء في الهجاء ، وسلامة قصائده الطوال من اللغط والسقط .

ولد في الجزيرة الفراتية في العراق بين بني قومه وعاش مترددًا إلى دمشق عاصمة الأمويين ، وتعرض الأخطل لجرير في المخاصمات التي جرت بينه وبين الفرزدق فرد عليه جرير ردّاً أسكته ، وذلك لأن الأخطل كان قد كبرت سنه حينذاك وكان جرير فتيّاً قوياً ، توفي بالبصرة في ٩٥ هـ .

نموذج من شعره

قال يمدح عبد الملك بن مروان :

نَفسي فِداءُ أميرِ المُؤْمنينَ إذا ... أَبْدَى النَّواجذَ يوماً عارمٌ ذَكَرُ

الخائضِ الغَمْرَ وَالميمونِ طائِرُهُ — خَلِيفةِ اللهِ يُسْتَسْقَى بِهِ المَطَرُ
في نَبْعَةٍ من قريشٍ يَعْصبُونَ بها — ما إن يُوازَى بأعْلى نَبْتِها الشَّجَرُ
حُشْدٌ على الحَقِّ عَيَّافُو الخَنا أُنُفٌ — إذا أَلَمَّتْ بهم مَكْرُوهةٌ صَبَرُوا
لا يَسْتَقِلُّ ذوو الأَضْغَانِ حَرْبَهُمُ — ولا يُبَيِّنُ في عِيْدَانِهِمْ خَوَرُ
شُمْسُ العَدَاوةِ حتى يُسْتَقَادَ لهم — وأوسعُ النَّاس أحلاماً إذا قَدَرُوا
هُمُ الذين يُبارون الرياحَ إذا — قَلَّ الطَّعَامُ على العافِيْنَ أو قَتَرُوا
بني أميةَ نُعْمَاكُمْ مُجَلِّلةٌ — تَمَّتْ فلا مِنَّةٌ فيها ولا كَدَرُ

وقال يهجو الأنصار:

وإذا نَسَبْتَ ابنَ الفُرَيْعةِ خِلْتَهُ — كالجَحْشِ بينَ حمارةٍ وحمارِ
لَعَنَ الإلهُ من اليهودِ عِصابةً — بالجِزْعِ بين جُلَيْجِلٍ وصِرارِ
قَوْمٌ إذا هَدَرَ العَصِيرُ رأَيتَهُمْ — حُمْراً عُيُونُهُمُ من المُسْطارِ
خلّوا المكارمَ لستمُ منْ أهلِها — وخُذُوا مَسَاحِيكُمْ بني النَّجَّارِ
ذَهَبَتْ قريشٌ بالمفاخرِ كُلِّها — واللؤمُ تحتَ عمائِمِ الأنصارِ

ومن قوله:

والنَّاسُ هَمُّهُمُ الحياةُ ولا أرى — طُولَ الحَياةِ يَزِيدُ غَيْرَ خَبَالِ
وإذا افْتَقَرْتَ إلى الذَّخائِرِ لم تَجِدْ — ذُخْراً يكونُ كَصَالِحِ الأَعْمَالِ

الفرزدق:

هو أبو فراس همام بن غالب التميمي ولد ونشأ في البصرة، فدرج في بيئة الأدب وشب في الفصاحة وبلاغة القول، واشتهر بشعره القوي الفخم المشتمل على اللفظ الجزل والأسلوب المؤثر.

يعد الفرزدق من أكبر شعراء عصره بل كان واحدًا من الشاعرين الفريدين في عصرهما، هو وجرير، كان كلاهما من قبيلة تميم، غير أن أسرتيهما اختلفتا في المكانة والشهرة.

كان الفرزدق من أسرة ذات شهرة وصيت في خصائص الفتوة والمروءة العربيتين، فكان يكثر ذكرها للاحتجاج على خصمه جرير، وكان يعد مآثر

قومه وأسرته فيحج بها خصمه ، تخاصم هو وجرير وجرت بينهما مناقضات شعرية استرعت انتباه أهل الذوق الأدبي في عصرهما ، وانقسم الناس بين فريقين فريق الفرزدق وفريق جرير ، وقيل شعر كثير ورائع في هذه المناقضات ، وهي وإن كانت مهاترات غير حسنة ، ولكنها أضافت إلى ثروة الشعر العربى البليغ وأثرت على المادة الشعرية لذلك العهد الشعري .

ومن أبرز سمات أسلوب الفرزدق الفخامة واستعمال الكلم الغريب وذكر أيام العرب وأنسابهم واحتذاء البادين في أساليبهم ، وقد غلب شعره في الفخر وهي طبيعة شعرية غالبة في العرب ، ولذلك أعجب به الرواة وفضله النحاة وقالوا لولا الفرزدق لذهب ثلث العربية .

كان الفرزدق ولوعاً بتعداد مآثر آبائه حتى أمام الخلفاء وكان غير ملتزم بالنزاهة في ذكر الفجور والأخلاق البذيئة ، ولكنه مع ذلك يذكر أهل الدين ، ويظهر حبه لهم ويخص بذلك آل بيت الرسول ﷺ وله شعر قوي بليغ في ذلك ، وله شعر في مخاطبة الشيطان والتنديد به وفي ذكر الذئب والمحاورة معه .

عاش الفرزدق في البصرة وملأ أسماع الناس بجيد قصائده ، وتوفي في السنة العاشرة التي توفي فيها جرير أيضاً بعده بسبعة أشهر ، وبموتهما انتهى العهد الشعري العربي الأصيل ، واضمحلت سمتها العربية بعده لامتزاج الخصائص الشعرية الأصيلة بالخصائص الشعرية الوافدة ، وتوفي في ١١٠ هـ .

نموذج من شعره :

إذا اغْبَرَّ آفاقُ السَّماءِ وكَشَّفَتْ ... بيوتاً وَراءَ الحيِّ نكباءُ حَرْجَفُ

وأَصْبَحَ مَوْضُوعُ الصَّقيع كأنَّهُ ... على سَرَواتِ النِّيبِ قُطْنٌ مُنْدَفُ

تَرَى جَارنَا فينا يُجِيرُ وإنْ جَنَى ... فلا هُوَ ممَّا يُنْطِفُ الجارَ يُنْطَفُ

وكُنَّا إذا نامتْ كليبٌ عن القِرى ... إلى الضَّيف نمشي بالعَبيطِ ونلحفُ

لَنَا العِزَّةُ القَعْسَاءُ والعددُ الذي ... عليهِ إذا عُدَّ الحَصَى يَتَحَلَّفُ

تَـرَى النَّاسَ إن سِرْنا يسيرونَ خَلْفَنا ... وإنْ نحنُ أومأنَا إلى النَّاسِ وَقَّفُوا
وَإنَّـكَ إذْ تَسْعَـى لتـدركَ شَـأْونـا ... لأنـتَ المُعَنَّـى يـا جـريـرُ المُكَلَّـفُ

وقال أيضاً:

ومستمنـحٍ طـاوي المصيـرِ كـأنَّما ... يُسـاوِرُه مـن شِـدَّةِ الجُـوعِ أَوْلَـقُ
دَعَـوْتُ بحمـراءَ الفُـروعِ كـأنَّهـا ... ذُرى رايةٍ في جانبِ الجوِّ تخفقُ
وإنِّي سفيهُ النَّارِ للمبتغي القِرى ... وإنِّي حليمُ الكلبِ للضَّيفِ يطرقُ
إذا مِـتُّ فـابْكيني بمـا أنـا أَهْلُـه ... فكـلُّ جميـلٍ قلـتِ فـيَّ يصـدقُ
وكم قائلٍ ماتَ الفرزدقُ والنَّدى ... وقـائلـةٍ مـات النَّـدى والفـرزدقُ

ومن قوله في مدح علي بن الحسين:

هذا الذي تعرفُ البَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... والبيـتُ يَعْـرِفُـهُ والحِـلُّ والحَـرَمُ
هـذا ابـنُ خَيْـرِ عِبَـادِ اللهِ كُلِّهِـمُ ... هـذا التَّقـيُّ النَّقـيُّ الطَّـاهـرُ العَلَـمُ
وليس قولُك: مَنْ هذا؟ بِضَائِرِهِ ... العُرْبُ تعرفُ مَنْ أَنْكَرْتَ والعَجَمُ
إذا رَأَتْـهُ قـريـشٌ قـال قـائِلُهَـا ... إلـى مكـارمِ هـذا يُنْتَهَـى الكَـرَمُ
يُغْضِي حَيَاءً ويُغْضَى من مَهَابَتِهِ ... فَمَـا يُكَلَّـمُ إلاَّ حيـن يبتسـمُ
يكـادُ يُمْسِكُـهُ عِـرْفَـانُ راحَتِـهِ ... رُكْـنُ الحَطِيـمِ إذا مَـا جـاءَ يَسْتَلِـمُ
يَنْشَقُّ ثوبُ الهُدى عن نُورِ غرَّتِه ... كالشَّمسِ ينجابُ عن إشْراقِها الظُّلَمُ
مـن مَعْشَـرٍ حُبُّهُـمْ دِيـنٌ وبُغْضُهُـمْ ... كُفْـرٌ وقُـرْبُهُـمْ مَنْجَـى ومُعْتَصَـمُ

ومن أبياته السائرة قوله:

فيـا عَجَبـاً حتَّـى كُلَيْـبٌ تَسُبُّنـي ... كـأنَّ أبـاهَـا نَهْشَـلٌ أو مَجـاشِـعُ

وقوله:

وَكُنَّـا إذا الجَبَّـارُ صَعَّـرَ خَـدَّهُ ... ضَـرَبْنَـاهُ حتَّـى تَسْتَقِيـمَ الأَخـادِعُ

وقوله:

أَتَـرْجُـو رُبَيْـعٌ أن يجـيءَ صِغَـارُهـا ... بخيـرٍ وقـد أَعْيـا رَبِيعـاً كِبـارُهـا

وقوله:

قَـوَارِصُ تَـأْتِينـي ويَحْتَقِـرُونَهـا وقـد يَمْـلأُ القَطْـرُ الإنـاءَ فَيَفْعُـمُ؟

وقوله:

أَحْـلامُنـا تَـزِنُ الجِبـالَ رَزانَـةً وتَخَـالُنَـا جِنّـاً إذا مـا نَجْهَـلُ

وقوله:

تَـرَى كُـلَّ مَظْلُـومٍ إلينـا فِـرارَهُ ويهـربُ منَّـا جهـدَهُ كـلُّ ظـالِـمِ

جـريـر (م١١٠ هـ):

أبو حرزة جرير بن عطية الخطفي التميمي ولد باليمامة ونشأ بالبادية، فشب فصيح اللسان صحيح الوجدان مطبوع القريحة على الشعر، كان من أكبر شعراء عصره، بل كان واحداً من الشاعرين الفريدين في عصرهما هو والفرزدق وكان كلاهما من قبيلة تميم، غير أن أسرتيهما اختلفتا في المكانة والشهرة، ولد جرير في أسرة لم تشتهر بالمآثر ولكنه امتاز بنفسه في القريحة والذكاء واستغلهما في الشعر، فحاز القبول من أهل الذوق الأدبي والصيت البعيد حتى عدته جماعة من هواة الأدب في عصره أكبر شعراء عصره، جرت بينه وبين البعيث مخاصمة أفضت إلى مناقضات شعرية بينه وبين شعراء عصره كان أعظمهم وأقواهم الفرزدق.

ومن أبرز سمات أسلوبه براءته من خبث الأخطل وسكره ومن جفاء الفرزدق وفخره، وامتاز برقة الشعور وطلاوة الأسلوب وحلاوة الغزل ومرارة الهجاء وإجادة الرثاء وحسن التصرف في جميع فنون الشعر.

ولد ونشأ جرير في اليمامة وانتقل إلى البصرة وما لبث الشاعران: هو والفرزدق أن تخاصما، فبدأت القصائد التى ينقض بعضها البعض الآخر حتى حصلت مجموعة منها سميت بالنقائض، وقد أضافت هذه القصائد إلى ثروة الشعر العربي حيث إنها نتائج سعي أدبي شعري بليغ، فقد بذل كل واحد من الشاعرين منتهى جهدهما في المحاجة والتغلب على الآخر فوجد بذلك شعر قوي بليغ رائع.

توفي جرير بعد الفرزدق بسبعة أشهر في سنة ١١٠ هـ أيضاً ودفن باليمامة ، فكانت سنة نهاية عهد أدبي لم ينقطع منذ الجاهلية في الخصائص العربية الحقيقية التى تغيرت بعد ذلك لامتزاج الخصائص الوافدة من آداب الشعوب المحيطة بالجزيرة العربية .

نموذج من شعره

قال يهجو الفرزدق :

لقد ولدت أمُّ الفرزدق فاجراً ... فجاءتْ بِوَزْوازٍ قَصِيرِ القَوادمِ

يُوَصِّلُ حبليه إذا جَنَّ ليلُه ... ليرقَى إلى جاراتِه بالسَّلالمِ

تدليتَ تَزْني من ثمانين قامةً ... وقصرتَ عن باعِ العُلا والمَكارمِ

هو الرجسُ يا أهلَ المدينةِ فاحْذَروا ... مداخلَ رجسٍ بالخبيثاتِ عالمِ

لقَد كان إخراجُ الفرزدقِ عنكم ... طَهوراً لما بين المُصَلَّى وراقِمِ

ومن جيد قوله فيه :

تعالوا نُحاكِمكم وفي الحقِّ مقنعٌ ... إلى الغُرِّ من أهلِ البِطاحِ الأكارمِ

فإنَّ قريشَ الحقِّ لم تتبعِ الهوى ... ولم يَرْهَبُوا في اللهِ لومةَ لائمِ

أُذَكِّرُكُم باللهِ من ينهلُ القنا ... ويضربُ كبشَ الجَحْفلِ المتراكمِ

وكنتم لنا الأتباعَ في كلِّ موقفٍ ... وريش الذُّنابى تابعٌ للقوادمِ

إذا عُدَّتِ الأيامُ أخزيت دارماً ... وتُخزيك يابن القينِ أيامُ دارمِ

وما زادني بُعْدُ المَدَى نقض مرّة ... ولا رقّ عظْمي بالضُّروس العواجمِ

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز :

إنَّا لنرجُو إذا ما الغيثُ أخلفنا ... من الخليفةِ ما نَرْجُو من المَطَرِ

نالَ الخلافةَ إذ كانتْ له قَدَراً ... كَمَا أتى ربَّه مُوسى على قَدَرِ

أَأَذْكُر الجهدَ والبلوى التي نزلتْ ... أم نكتفي بالذي بُلِّغْتَ من خَبَرِي

ما زلتُ بعدكَ في دارٍ تعرَّقُني ... قد طالَ بعدكَ إصعادي ومُنْحَدَرِي

لا ينفعُ الحاضرُ المجهودُ بادينا ... ولا يجودُ لنا بادٍ على حَضَرِ

كم بالمواسمِ من شَعْثَاءَ أَرملةٍ ... ومِنْ يتيمٍ ضعيفِ الصوتِ والبصرِ

يـدعـوكَ دعـوةَ ملهـوفٍ كـأنَّ بـه　　مَسّـاً مـن الجِـنِّ أو رزْءاً مـن النُّشَـرِ
مِمَّـن يَعُـدُّكَ تكفـي فَقْـدَ والـدِه　　كالفَرْخِ في العُشِّ لم ينهضْ ولم يطرِ

ومن أبياته التي تفرد بها قوله في الغزل:

إنَّ العيونَ التي في طَرْفِهَا حَوَرٌ　　قَتَلْنَنَـا ثُـمَّ لَـمْ يُحْيِيْـنَ قَتْـلانـا
يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتَّى لا حراكَ بهِ　　وهُـنَّ أضعـفُ خَلْـقِ اللهِ إِنْسـانـا

وقوله في الفخر:

إذا غضبـتْ عليـكَ بنـو تميـمٍ　　حَسِبْـتَ النَّـاس كُلَّهُـم غِضـابـا

وفي الهجاء:

فَغُـضَّ الطَّـرْفَ إنَّـك مـن نُمَيْـرٍ　　فـلا كَعْبـاً بلغْـتَ ولا كِـلابـا

وفي التهكم:

زَعَـمَ الفـرزدقُ أنْ سيقتـلُ مِـرْبَعـاً　　أبشـرْ بطـولِ سَـلامـةٍ يـا مِـرْبَـعُ

ومن جيد فخره قوله:

إنَّ الـذي حَـرَمَ المكـارمَ تغلبـاً　　جَعَـلَ الخِـلافـةَ والنُّبـوَّة فينـا
مضرٌ أبي وأبو الملوك، فهلْ لكم　　يـا خـزرَ تغلـبَ مـن أبٍ كـأبينـا
هذا ابنُ عَمِّي في دمشقَ خليفةٌ　　لـو شئـتُ سـاقكـم إلـيَّ قَطِينـا

الطـرمَّاح بـن حكيـم:

كان يكنى أبا نفر وأبا ضبينة، ويلقب بالطرماح، وهو الطرماح بن حكيم بن الحكم من بني ثعل بن عمرو من طي، ولد قبل الهجرة في الشام ونشأ فيها، ثم إنه قدم إلى الكوفة مع جيوش المسلمين، وهناك تلقى مذهب الشراة الأزارقة، وقد نشأت بين الطرماح وبين الكميت صداقة عجيبة فقد كانا على طرفي النقيض من النسب والمذهب والوطن حيث إنه قحطاني وخارجي وشامي، والكميت عدناني وشيعي وكوفي، ولكنهما عاشا على الصداقة، ولعل وحدتهما في الشعر والأدب كانت سبب اتحادهما.

اشتغل الطرماح بالتعليم حيناً وكان وقوراً مألوفاً لدى تلاميذه، وكان

الطرماح أنوفاً لا يتكسب بالشعر وعاش فقيراً ، وأسنَّ الطرماح كثيراً ، توفي بعد سنة ١٠٠ هـ .

كان الطرماح من فحول الشعراء وفصحائهم ومن الخطباء ، وشعره متين كثير الغريب ، إلا أن شعره ليس حجة لأنه مولد فيما قيل ، ولأنه كان يتكلف إدخال الغريب في شعره بعد أن يسأل العلماء وأهل السواد عن الألفاظ في كلامهم .

وأكثر شعر الطرماح الحماسة والنقائض ، وهو بارع في الوصف وهجاؤه مؤلم ، ولكن فيها مبالغات وتكراراً .

نموذج من شعره

قَلَّ في شَطِّ نَهْرَوانَ اغْتماضي	ودَعَاني هَوَى العُيُونِ المِراضِ
فَتَطَرَّبْتُ للصّبا ثُمَّ أَوْقَفْـ	ـتُ رضاً بالتُّقى وذُو البِرِّ راضي
وأَراني المليكُ رُشْدي وقد كُنْـ	ـتُ أخا عُنْجُهيَّةٍ واعْتِراضِ
غيرَ ما رِيبةٍ سوى رَيِّقِ الغِرَّ	ة ثُمَّ ارْعَوَيْتُ بعد البياضِ

ومنها :

وَجَرَىٰ بالذي أخافُ من البَيْـ	ـنِ لَعينٌ تَنُوضُ كُلَّ مَنَاضِ
صَيْدَحِيُّ الضُّحَى كأنَّ نَسَاهُ	حيثُ يجتثُّ رِجْلَهُ في إِباضِ
سوفَ تُدْنِيكَ من لَمِيسَ سَبَنْتَا	ةٌ أَمَارَتْ بالبَوْلِ ماءَ الكِرَاضِ
فَهْيَ قَوْداءُ نُفِّجَتْ عَضُدَاها	عن زَحَاليقِ صَفْصَفٍ ذي دِحَاضِ

ويقول في آخرها :

إنّنا مَعْشَرٌ شَمَائِلُنا الصَّبْـ	ـرُ إذا الخوفُ مالَ بالأَحْفَاضِ
نُصُرٌ للذَّليلِ في نَدْوَةِ الحَيْـ	ـي مَرائِيبُ للثَّأى المُنْهَاضِ
لم يَفُتْنا بالوِتْرِ قَوْمٌ وللضَّيْـ	ـمِ رِجالٌ يَرْضَوْنَ بالإغْمَاضِ
فَسَلِ النَّاس إن جَهِلْتَ وإنْ شِئْـ	ـتَ قَضَىٰ بيننا وبينك قاضي

ومن قوله :

لَقَدْ زَادَني حُبّاً لنفسي أَنَّني	بَغِيضٌ إلى كُلِّ امرىءٍ غيرِ طَائِلِ

وأنِّي شَقِـيٌّ بـاللِّئَـامِ ولا تَـرَىٰ   شَقِيّـاً بِهِـمْ إلاّ كَـرِيـمَ الشَّمـائِلِ

ومن قوله يهجو بني تميم :

لَـوْ حَـانَ وِرْدُ تَمِيـمٍ ثُـمَّ قِيـلَ لَهَـا   حَوْضُ الرَّسُولِ عليه الأَزْدُ لم تَرِدِ

أو أنـزلَ اللهُ وَحْيـاً أن يُعَـذِّبهـا   إنْ لـم تَعُـدْ لقتـالِ الأَزْدِ لـم تَعُـدِ

لا عَزَّ نَصرُ امرىءٍ أَضْحَى له فَرَسٌ   على تَمِيـم يُـريـدُ النَّصْـرَ مـن أَحَـدِ

لو كان يَخْفَى على الرَّحْمَنِ خافِيَةٌ   مِـنْ خَلْقِـه خَفِيَـتْ عنـهُ بَنُـو أَسَـدِ

الكُميت بن زيد الأسدي :

ولد في الكوفة في نحو سنة ٦٠ هـ ونشأ فيها معلماً للصبيان ، وكان أصم لا يسمع ، كان متشيعاً لآل البيت يمدح الهاشميين ويتعصب لمضر على اليمن ، ومع ذلك كانت بينه وبين الطرماح صداقة ومحبة مع أنه كان خارجياً قحطانياً موالياً لبني أمية .

وكانت حياة الكميت مليئة بالاضطراب والمتناقضات بخلاف حياة الطرماح ، وكان الكميت من الفقهاء والخطباء والشعراء عالماً بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها ، وهو شاعر مكثر يقدر على القصائد الطوال والمقطعات القصار غير أنه يتكلف الغريب ويقصد أحياناً إلى الصناعة اللفظية ، وأشهر فنونه مدائحه في آل الرسول ﷺ وفي بني هاشم وتدعى الهاشميات .

وقد مدح الكميت الأمويين تكسباً ، ومدائحه فيهم جيدة غير أنه يمدح الهاشميين بدافع من قلبه وعن عقيدته ، توفي في سنة ١٢٦ هـ .

قال الكُميت بن زيد يمدح سلمة بن عبد الملك :

فما غابَ عن حِلْمٍ ولا شَهِدَ الخَنَا   ولا اسْتَعْذَبَ العَوْراءَ يوماً فَقَالَها

وتَفْضُـلُ أيمـانَ الـرِّجـال شِمـالُـهُ   كمـا فَضَلَـتْ يُمْنَـى يَـدَيْـهِ شِمـالَهـا

وما أَجِمَ المَعْرُوفَ مِنْ طُولِ كَرِّهِ   وأَمْـراً بـأفعـالِ النَّـدى وافْتِعَـالَهـا
ويبتـذل النَّفْـسَ المصـونـةَ نَفْسَـه   إذا مـا رأى حَقَّـاً عليـه ابْتِـذَالَهـا
بَلَوْنَاكَ في أَهْلِ النَّدَىٰ فَفَضَلْتَهُمْ   وباعَكَ في الأَبْواع قِدْماً فَطَالَهَا
فأنتَ النَّدىٰ فيما يَنُوبُكَ والسَّدَىٰ   إذا الخَوْدُ عَدَّتْ عُقْبَةَ القِدْر مالَها

❊ ❊ ❊




الباب الثالث

النثر ورجاله

الفصل الأول: النثر في هذا العهد وأعلامه

الفصل الثاني: الكتابة والترسل

الفصل الثالث: التوقيعات والروايات




الفصل الأول

النثر في هذا العهد وأعلامه

لقد كان الاهتمام بالنثر الفني في الجاهلية قليلاً لأن غالبية العرب في الجاهلية كانت بدواً وأمية ، فلم يلجؤوا إلى النثر الفني إلاَّ في أحوال نادرة ومنها المناسبات التي اقتضت الخطابة أو كتابة عهد وعقد ، واختاروا الكلام النثري المؤثر عند إرسال مثل واستعماله ، أو التكلم بجملة حكمة أو كلمة بليغة ، فكانت الأنواع التى عمت في هذه المجالات هي الخطبة والوصية والمثل والحكمة.

وجاء الإسلام بكلام نثري رصين مبين هو القرآن الكريم وتكلم الرسول الكريم ﷺ بكلامه البليغ ، فأصبحت للعرب ثروة من النثر الفني البليغ تضاءل أمامه الشعر وخف تأثيره ، وأقبل العرب على الكلام القرآني يستفيدون منه ، وعلى كلام الرسول ﷺ يتبعونه ، وعظم استعمال النثر بحكم الحياة الاجتماعية المتجددة ، نشأ منه للمسلمين أدب النثر ، ونماذجه الأولى هي كلام الرسول ﷺ وصحابته من أحاديث وخطب ، و بدأ العهد الأموي بحاجة إلى النثر بصورة أشد بحكم مقتضيات الشؤون السياسية والدعوية والاتصالات الاجتماعية ، وقويت من أنواع النثر الفني في هذا العهد الخطابة والرواية والترسل ومنها التوقيعات.

الخطابة:

أما الخطابة في هذا العهد فكانت استمراراً للخطابة في صدر الإسلام

الأول ولكن زادت فيها أمور ، منها أن الخطبة طالت ، ذلك لأنها صارت تستخدم لتبليغ أوامر الدولة ، وقد كثرت تلك الأوامر باتساع رقعة الدولة واقتضى تطور الحياة الإدارية والسياسية واتساعها بحكم الفتوح إلى بسط القول في ذلك ، ومن هنا جاء طول الخطبة في الدرجة الأولى ، ثم عرف صدر العصر الأموي ثورات وحروباً واحتاج الولاة والقواد إلى تصريف القول بالإقناع وبالوعيد عند مخاطبة الجموع ، فاقتضى ذلك أن تكون الخطبة أطول مما كانت في الجاهلية أو في صدر الإسلام الأول ، وأهم ما يميزها هي عذوبة ألفاظها ومتانة أسلوبها وقوة تأثيرها واقتباسها من القرآن واتباعها لمنهجه في الإرشاد والإقناع ، وابتداؤها بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، وتمتاز الخطب الأموية بعنصر التهديد والوعيد ومراعاة نفسية المخاطبين العقلية والدينية ، وظل الاستشهاد في الخطب بالأمثال والشعر على ما كان عليه الأمر في صدر الإسلام و قبله .

أعلام الخطابة :

أما أعلام الخطابة في هذا العهد فهم زياد بن أبيه وسحبان وائل ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، والحسن البصري ، وقطري بن الفجاءة وبعض الآخرين .

زياد بن أبيه :

ولد زياد في مكة المكرمة في السنة الأولى من الهجرة من امرأة تسمى سمية ، وكانت جارية من الطائف من النساء المتزينات للرجال ، ولم يعرف الناس والد زياد فسموه زياد بن سمية ثم اشتهر باسم زياد بن أبيه .

ونشأ زياد ذكياً فطناً داهية منفذاً لإرادته ، وعُـدَّ من دهاة العرب ، وهم أربعة ، معاوية بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، وعمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه .

سكن زياد في البصرة ، وكان من أنصار علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ووفياً له ، فولاه على فارس ، فقام بحكمها خير قيام ، وحاول معاوية بن

أبي سفيان رضي الله عنهما استمالة زياد إلى نفسه لما عرف من دهائه وصرامته ولكنه امتنع.

ولما استشهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وأعلن معاوية رضي الله عنه بأن زياداً من أولاد والده أبي سفيان بن حرب وذلك بسبب اتصال والده بسمية في حالة كفرهما، واعترف بذلك معاوية به كأخ له من والده، وبه قرب معاوية رضي الله عنه زياداً إلى نفسه حتى لحق به زياد، وولاه معاوية رضي الله عنه على البصرة وضم إليها الكوفة فيما بعد، فكان والياً على المصرين، وملك زياد العراق خمس سنوات فضبطه وأقر الأمن فيه.

توفي زياد في الكوفة في شهر رمضان ٥٣ هـ بمرض الطاعون.

كان زياد بن أبيه من مشاهير الخطباء، كان شديداً في الحق إلى حد العسف وكان فيه الحلم والكياسة أيضاً، وكان في خطبه حاضر الذهن طلق اللسان، يطيل الخطب ويجيد، وكانت ألفاظه فصيحة وتراكيبه واضحة وأسلوبه جزلاً متيناً، وكان يعتمد على الوعيد والتهديد، ويؤثر على السامعين.

خطبته:

«أما بعد! فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغي الموفي بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول، أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية؟ ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، من ترككم الضعيف يقهر، والضعيفة المسلوبة بالنهار لا تنصر، والعدد غير قليل، والجمع غير مفترق، ألم يكن منكم نهاة يمنعون الغواة عن دلج الليل وغارة النهار، قربتم القرابة، وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتغضون على النكر، كل

امرىء منكم يرد عن سفيهه صنع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً ، ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب ، حرام عليَّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً ، إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ، لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، وإني لأقسم بالله لآخذن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح بالسقيم ، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم قناتكم ، إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم عليَّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي ، فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيَّ ، واعلموا أن عندي أمثالها ، من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله ، فإياي ودلج الليل ، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجَّلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم ، وإياي ودعوى الجاهلية ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن أغرق قوماً أغرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، وقد كان بيني وبين قوم إحن ، جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي ، وإني لو علمت أن أحدكم قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته ، فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ورب مسرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس : إنا قد أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، و أيم الله ، إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاي».

سحبان وائل :

هو سحبان بن زفر بن إياد من بني وائل بن ربيعة ويعرف أيضاً باسم سحبان وائل الباهلي ، ولد ونشأ في الجاهلية ولكن لم يبلغ أشده إلا في الإسلام ، واتصل بمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ونال لديه حظوة كبيرة يوم كان معاوية والياً ، ثم لما أصبح خليفة ، وكان يطلبه إذ جاءه وفد ودعت الضرورة إلى إلقاء خطبة مناسبة جامعة .

وكان سحبان خطيباً غمر البديهة قوي العارضة متصرفاً في فنون الكلام طويل النفس ، يتكلم ساعات طوالاً ، فلا يتردد ولا يتلعثم ولا يفتر ، وقد ضرب به المثل في القدرة على الخطابة ، وسمي خطيب العرب ، وهو بعد ذلك من الحكماء المشهورين والفصحاء البلغاء ، وكان لا يخطب إلا بمخصرة ترضيه وكانت له مخاصر كثيرة وخاصة به .

واشتهر سحبان وائل بخطبته الشوهاء عند معاوية ، و قيل لها الشوهاء من حسنها ، وكان لسحبان شعر قليل ، على أن الذي وصل إلينا من آثاره كلها نزر يسير جداً ، توفي سنة ٥٤ هـ .

نموذج من خطبته :

إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار ، أيها الناس فخذوا من دار ممركم إلى دار مقركم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حييتم ولغيرها خلقتم ، إن الرجل إذا هلك قال الناس ما ترك وقالت الملائكة ما قدم ، فقدموا بعضها يكون لكم ، ولا تخلفوا كَلًّا يكون عليكم .

قطري بن الفجاءة:

كان قطري بن الفجاءة فارساً شجاعاً مقداماً ، وكان خطيباً وشاعراً ، ومر ذكره ونموذج شعره في باب سابق ، أما خطبه فأكثرها في الحث على التقوى والتزهد في الدنيا ، قتل في سنة ٧٨ هـ . خطب يوماً فقال :

«أما بعد! فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة حفت بالشهوات وراقت بالقليل. . . . . . غرارة ، ضرارة ، خوانة غدارة ، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى ، من أقل منها استكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ويهلكه».

الحجاج بن يوسف الثقفي:

ولد الحجاج بن يوسف الثقفي في سنة ٤٢ هـ في مدينة الطائف ونشأ في أسرة مثقفة متعلمة كان هو وأبوه وأخوه معلمين في الطائف ، ثم إن الحجاج ترك التعليم والتحق بالجيش الأموي ، وما زال يترقى في مرتبته حتى أسند إليه الخليفة عبد الملك بن مروان قيادة جيش لمحاربة عبد الله بن الزبير في مكة ، وانتصر الحجاج عليه ، ثم ولاّه عبد الملك على الحجاز واليمن ثم أضاف إليه الولاية على العراق ، وأقر الحجاج الأمن في العراق وسفك دماء طائفة من معارضي الحكم الأموي وأسر عدداً كبيراً منهم ، ولم يستثن من ذلك طائفة من الصحابة رضي الله عنهم أيضاً ولا تابعيهم البررة ، وكان الحجاج قائداً قاسياً شديداً.

قد امتاز بالخطابة فقد جمع بجميع خصائص عصره فيها من جزالة اللفظ ومتانة التركيب وقصر الجمل والموازنة بينها ، مع قلة السجع والصناعة في خطبه ، وكان يقتبس من القرآن الكريم والشعر والأمثال ، توفي في سنة ٩٥ هـ.

نموذج من خطبته:

«إني والله يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق ما يقعقع لي بالشنان ولا يغمز جانبي كتغماز التين ، ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وجريت إلى الغاية القصوى ، وإن أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرَّها عوداً وأصعبها مكسراً

فرماكم بي؛ لأنكم طالما أوضعتم في الفتن ، واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي.

ما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأقرعنكم قرع المروة ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، فإنكم لكأهل ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ وإني والله لا أعد إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أحلق إلا فريت ، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم إلى محاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه».

الحسن البصري:

كان الحسن بن يسار البصري من رواة الحديث وقصّاصاً واعظاً وخطيباً قيل فيه: «أخطب الناس صاحب العمامة السوداء» أي الحسن البصري. كما كان فصيحاً بليغاً بارعاً في اللغة والفقه تقياً زاهداً واسع الحلم حسن الأخلاق ، كان «يسار» والده قد سبي في جنوبي العراق في أيام الفتوح ثم جيء به إلى المدينة فأسلم وأصبح مولى لزيد بن ثابت الأنصاري.

وولد له الحسن البصري في المدينة في سنة ٢١ هـ وهو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري ، نشأ في شمالي الحجاز ثم انتقل إلى البصرة وولي فيها القضاء. ومن تلاميذه واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال ، اعتزل عن أستاذه فسمي مذهبه اعتزالاً ، وخطب الحسن البصري في نهي عن قتال المسلمين:

«أيها الناس الزموا رحالكم ، وكفوا أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة وطمع فيها يسير ليس لأهلها بباق ، ليس الله عنهم فيما اكتسبوا براض ، إنه لم يكن فتنة إلا كان أكثر أهلها

الخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التيه والخيلاء ، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفي والمعروف التقي» .

وللحسن البصري كلام بليغ في الموعظة والتبصير بالحق ، توفي أول رجب سنة ١١٠ هـ .

* * *

الفصل الثاني
الكتابة والترسل

كان العرب في عهد جاهليتهم يقتصرون بالكلام الشفهي ، ولم يكونوا يلجؤون إلى الكتابة إلا نادراً ، وذلك عند حاجتهم إلى كتابة عقود أو إرسال رسالة وذلك في حالات محدودة ، فقد كانت حياتهم بسيطة وبدوية ، مفككة وحداتها الاجتماعية ، وكانوا أميين لا يعرف الكتابة إلا أفذاذهم ، فكانوا يكتفون بقول الشعر ويتناشدون به ، ويعبرون به عن مشاعرهم وتصوراتهم ، وكانوا يستخدمون الخطابة عند حاجتهم إلى الحجاج أو الإبلاغ والرواية لنقل حوادثهم الماضية أو وقائعهم المهمة والشعر الذي قيل فيها ، وكانوا يقومون بالوصية لإعطاء النصح والإرشاد الفردي ، وكل ذلك كان يكفيهم فيه الكلام الشفهي .

ولما جاء الإسلام وقام نظامه الاجتماعي اقتضى الأمر مع الخطابة إلى الاستعانة بالكتابة أيضاً ، وبخاصة لتوسع أطراف الحياة الاجتماعية ، واقتضاء شؤون تتصل بالمعاملات .

وبدأت الكتابة في إطار الرسائل بصورة أوسع ، وكان أسلوبها موافقاً لأسلوب الخطبة والوصية ، تصبح الرسالة بذلك كأنها خطبة مكتوبة ، يتصف أسلوبها بجزالة اللفظ وفخامة التراكيب مع الموازنة والاختصار ، والبدء بالبسملة والتحميد ، واقفاً عند الغرض خالياً من التطويل والتجميل والمبالغة .

وبقيت كتابة الرسائل على هذا المنهج في صدر الإسلام ، وفي أوائل العهد الأموي؛ إلى أن ولي الخلافة الوليد بن عبد الملك ، فأمر بتجويد القراطيس وتفخيم الخطاب وألا يكاتب بما يخاطب به السوقة ، وجرى العمل على ذلك من بعده حتى استخلف عمر بن عبد العزيز ، ثم يزيد بن عبد الملك ، فحملهما الورع ومقت البدعة على الرجوع بالكتابة إلى نهج السلف ، فبقيت الكتابة على ذلك مع شيء من الأخذ من التطور والتحسين ، إلى أن جاء عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بن أمية ، فأسهب في الرسائل ، ونمّقها ورقّقها ، وأطال التحميدات في أولها.

كان الكاتب في أيام الخلفاء الراشدين شخصاً يختاره الخليفة ويجعله في بطانته ، أما في الدولة الأموية فقد أصبح للكتابة مناصب جعل لها ديوان خاص ، وأصبحت الكتابة قبل أن ينقضي العصر الأموي صناعة ذات قواعد وأصول ، وكثر الكتاب وأصبحت لهم آداب ، نصحهم بها عبد الحميد بن يحيى في إحدى رسائله وذكرها بإسهاب ، وهو كاتب يعد إماماً في هذا الفن لتطويره له ، وتقعيد بعض أسسه.

عبد الحميد بن يحيى الكاتب:

هو أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعد ، وكان سعد مولى لأحد بني عامر بن لؤي بن غالب ، فكان عبد الحميد مولداً من أصل فارسي أو آرامي ، ولد في سنة ٦٠ هـ بمدينة الأنبار في العراق ، ثم انتقل أهله إلى الرقة بالشام وكانت نشأته هناك ، واشتغل عبد الحميد في أول الأمر بتعليم الصبيان ، وتعلم صناعة الكتابة ، فكتب ليزيد بن عبد الملك ، ثم اتصل بمروان بن محمد واشتغل بالكتابة له إلى نهاية خلافته ، ولما انهزم مروان بن محمد وانتهت به الخلافة الأموية كان عبد الحميد فيمن قتل من أشياع بني مروان ، وكان مقتله مع مروان بن محمد في سنة ١٣٢ هـ.

كانت ثقافة عبد الحميد بن يحيى في العلوم الإسلامية والعلوم العربية

واسعة ، وكان يعرف الفارسية واطلع على بلاغتها وآدابها ، ويظهر أنه استفاد منها لصالح الكتابة العربية كذلك.

كان عبد الحميد بن يحيى أول من هذب فن الترسل ، ورقَّاه إلى صناعة ، وكانت طريقته تتفق مع القديمة في الرشاقة والجزالة ، وتختلف عنها في الأسلوب والوضع ، فأصبح بذلك إماماً للكتَّاب ، وزعيماً للطبقة الأولى من طبقات الكتابة الأدبية وفن الترسُّل ، وكان يعترف بفضل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الكتابة على نفسه ويرى نفسه تلميذاً له.

وكان من خصائص أسلوب عبد الحميد تنويع الخطاب موافقة لمخاطبه ، والإيجاز والإطناب مراعاة لمقتضى الحال ، والتفنن في البدء والختام مطابقة للغرض ، وإطالة التحميدات في صدور الرسائل ، غير أن أسلوبه لم يخرج في ابتكاره وتجويده من الإطار العربي القديم ، ومن غلبة خصائصه وطريقته بوجه عام ، ولقد بنى أساسه على استفادته من رسائل سيدنا علي رضي الله عنه وكان يعترف بذلك.

وقصر عبد الحميد جهده على كتابة الرسائل ، منها ما هي مطولة مفصلة ومنها ما هي مختصرة قصيرة.

ومن رسائله المختصرة رسالة كتبها وهو منهزم مع مروان بن محمد في إحدى حروبه الأخيرة:

«أما بعد! فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً لها ، وقد كانت أذاقتنا أفاويق استحليناها ثم جمحت بنا نافرة ، ورمحتنا مولية ، فَمَلُحَ عذبها ، وخَشُنَ ليِّنها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ، فالدار نازحة ، والطير بارحة ، وقد كتبت ، والأيام تزيدنا منكم بعداً ، وإليكم وجداً ، فإن تتم البلية إلى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظِفرٌ جارح من أظفار عدونا نرجع إليكم بذل الأسار ، والذل شر جار ، نسأل الله تعالى الذي يعز من يشاء ، ويذل من يشاء أن يهب

لنا ولكم ألفة جامعة في دار آمنة تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين» .

وله رسالة مفصلة في وصف الصيد ومنها :

«وأطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيداً بالعز ، محفوفاً بالكرامة ، ممتعاً بالنعمة ، إنه لم يلق أحد من المقتنصين ولا مُنِحَ متطرف من المتصيدين إلا دون ما لقانا الله به من اليمن والبركة ، ومنحنا من الظفر والسعادة في مسيرنا من كثرة الصيد ، وحسن المقتنص وتمكين الجاسة وقرب الغاية وسهولة المورد وعموم القدرة» .

والرسالة ضافية طويلة فيها ذكر مفصل عن وقائع الصيد إلى أن يقول في آخرها : «حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد والله المنعم الوهاب» .

* * *

الفصل الثالث

التوقيعات والروايات

التوقيعات:

هي فقرات كان يكتبها الوالي. أو نائبه على عرائض أهل الطلب والشكوى ، وتكون متصفة بالإيجاز البليغ وروعة المعنى ، وقد بدأت منذ صدر الإسلام ، فقد وردت من الخلفاء الراشدين ثم من خلفاء بني أمية وهي تشبه في شكلها العام جمل الأمثال والحكم.

نماذج من التوقيعات:

وقع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص في بنيان يبنيه: «أين ما يكنك من الهواجر وأذى المطر» ووقع إلى عمرو بن العاص «كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك آمرك» ووقع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى طلحة بن عبيد الله ، «في بيته يؤتى الحكم» ووقعِ في كتاب جاء من الحسن بن علي رضي الله عنه ، «ورَأْيُ الشيخ خير من جَلَدِ الغلام» ووقع في كتاب سلمان الفارسي رضي الله عنه وسأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة «يحاسبون كما يرزقون».

ووقع عبد الملك بن مروان في كتاب أتاه من الحجاج «جنبني دماء بني عبد المطلب ، فليس فيها إشفاء من الطلب» ، وكتب إليه الحجاج يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسي منهم ، ويستأذن في قتل أشرافهم فوقع له

«إن من يمن السائس أن يتألف به المختلفون ، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون» .

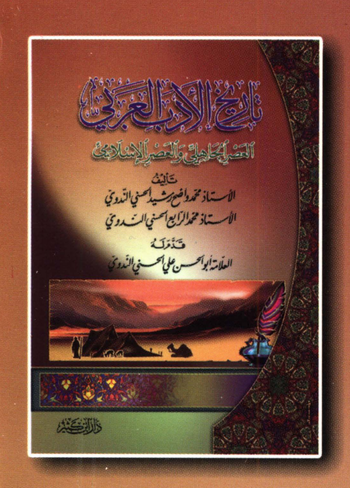
الـروايـات والـتـدويــن :

واقتضى وجود ثروة من الروايات الدينية والأدبية أن يجمع المهم المفيد منها في الكتب لتبقى للأجيال القادمة ، وليستفيد بها عدد أكثر ، كما أن الحفاظ بها يكون أسهل وأضمن ، وقد كان القرآن الكريم يجمع ويكتب بأيدي رجال قررهم رسول الله ﷺ لذلك ، وأراد بعض الصحابة أن يجمعوا أحاديث الرسول ﷺ ويكتبوها ، ولكن رسول الله ﷺ لم يشجع كتابة الحديث لئلا يختلط بالقرآن الكريم ، فاكتفى الصحابة رضي الله عنهم برواياتها الشفوية ، وكانت الأخبار والأحداث العربية أيضاً تنقل بالشفاه على الطريقة العربية ، وتوسع وتنوع التراث الديني والثقافي ، وشاع التعليم ، فاقتضى الأمر أن تحفظ الروايات الشفوية بالكتابة حتى لا يشتبه الأمر في المعارف الدينية ولا يضيع العلم ، فظهر الاهتمام بذلك من أمراء المسلمين أولاً حيث اقترحوا على علماء زمانهم بالاعتناء بذلك ، فبدؤوا بهذا العمل في مجالات عديدة من الدين والمعارف المفيدة ، واهتموا بالتدوين لجوانب من المعارف الأدبية والعلمية والدينية ، وتدرُّج العمل من البساطة إلى التوسع أفضى إلى تكوين مكتبة واسعة للمعارف الدينية والأدبية من حديث وسيرة وتفسير وتاريخ ، ومن علم اللغة والنحو والصرف وغيرها ، كان من أوائل البادئين بالعمل محمد بن مسلم بن شهاب الزهري في الحديث وأبو الأسود الدؤلي في النحو والإعراب ، وتدرج العمل فبرز أئمة وعظماء في تدوين النواحي المختلفة للدين : الأدب والحكمة والثقافة .

* * *

الفهرس

* * *



هذا الكتاب

جزءان في مجلد واحد ، فيه محاولة جادة وعلمية ومنهجية لدراسة الأدب العربي في عصوره التاريخية ، وكان الجزء الأول دراسة للعصر الجاهلي ، والجزء الثاني دراسة للعصر الإسلامي .

ويمتاز الكتاب بخاصة الإستقصاء والشمول ، وإيزاد الشواهد الشعرية والنثرية المناسبة ، والدالة على الفكرة المدروسة . مع بحث عميق حول نشأة اللغة العربية ، وتطورها ، وخصائصها ، وأيام العرب ، وأسواقهم ، ومعتقداتهم .

وكان التعاون مثمراً بين المؤلفين ، حيث أنتجا كتابا في تاريخ الأدب العربي وفق منهج أصيل ، وأسلوب واضح ، بجمع بين الأصالة والتجديد .





دمشق : ص.ب. 311
بيروت : ص.ب. 113/6318
www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com